حجاج أدول

مأساة الملك علوي

رواية

الدار المصرية اللبنانية

حجاج أدول

مأساة الملك علوي

رواية

الدار المصرية اللبنانية

إهداء

إهداء إلى..

طبيب المحبة..

د. مجدي يعقوب.

مقدمة

الصحراء الصفراء القاحلة. قبائل بدوية فقيرة، مضاربها بالقرب من درب القوافل مملكة الأنهار السبعة. المملكة غنية بأرضها الزراعية وأنهارها السبعة، وتجارتها المزدهرة. الأمير البدوي عبد الرحيم الوسيم فارس شاب طموح. جمّع الشباب حوله، وقطع طريق القوافل، فقرر عِلوي ملك مملكة الأنهار السبعة أن يعاقبه. أرسل جيشًا جرارًا بقيادة الأمير راسم بن سِلْوِي ابن أخيه وولي عهده. وعضد راسم بقائد محنك هو حميدو شامة. الأمير راسم فتى طائش مغرور. رغم أن أباه الأمير سِلْوِي كان فارسًا هائلًا.

لم يستمع الأمير راسم لنصائح القائد حميدو شامة، فوقع بجيشه في كمين للبدو فانهزم هزيمة فاضحة، ووقع في الأسر هو والقائد حميدو شامة وعدد كبير من الجنود. في فترة الأسر، أعجب الأمير عبد الرحيم بالقائد حميدو شامة، فقد شاهده في القتال فارسًا باسلًا، وحين تحدث معه وجده واسع المعرفة به نبل واضح. ولما طلب حميدو شامة الزواج من فتاة بدوية، وافق الأمير، وقبل رحلة الأمير لمملكة الأنهار السبعة، أعطاه حميدو شامة رسالة لفارس ياباني نبيل، يقيم في تلك المملكة. وصرّح للأمير عبد الرحيم، بأن الفارس الياباني اسمه الساموراي، وأنه سيكون عونًا له وقت اللزوم.

احتفظ الأمير البدوي عبد الرحيم الوسيم، بالأمير راسم بن سِلْوِي والقائد حميدو شامة أسيرين عنده، وأرسل صديقه الفارس شكّور، مع بقية الأسرى لمملكة الأنهار السبعة، وهناك استقبلته المملكة بحفاوة مبهرة. وأكرموه هو والسبعة فرسان الذين معه. ثم حمّلوه بالهدايا وهو عائد لقبائله البدوية. بالطبع الحفاوة والهدايا، بسبب تواجد الأمير عند البدو.

شكّور ذهب إلى مملكة الأنهار السبعة، مع ثلاثة من شباب الفرسان. سيطلب جزية سنوية يدفعها الملك للأمير عبد الرحيم، حتى لا يهجم على قوافله التجارية. دفع الجزية أمر مهين على ملك مملكة قوية ساطعة مثل مملكة الأنهار الجارية. قبل الملك مضطرا. فوعده شكّور بالعودة مع الأمير عبد الرحيم للتفاوض على الجزية المقررة.

الأمير عبد الرحيم أعد قافلة يصحبه فيها شكور وأحد عشر فارسًا. وانطلقت القافلة تضرب في بطون الفيافي حتى وصلت إلى تخوم مملكة الأنهار السبعة، عند أول قرية في المملكة.. كانت القافلة منهكة تمامًا لطول فترة السفر وصعوبة الصحراء. استضافهم عمدة القرية حتى أتى إليهم فطرون الفأر مساعد الوزير المتغوِّل.

(1)

سرب الخيول وعلى ظهورها فرسان البدو وفرسان من جيش المملكة، يمرون على مزارع فاكهة متنوعة، وحقول زراعية ممتدة، وقرى مبانيها واسعة نظيفة. وإن قابلوا أهالي تلك القرى، يجدونهم في ملابس بسيطة أنيقة، وكلهم مثل جنود المملكة، خفاف الذقن والشارب. الفتيات والنساء منطلقات كاشفات الوجوه بهن صحة ونضرة. يعملن مع الرجال ويضاحكنهم! فيتعجب كل مَن هو بدوي. أريج الفواكه يعبق الجو. نهر ضيق يعبرونه على جسر خشبي متين. البدو يتعجبون من كل هذه المياه، إنها ثروة عظيمة! سألوا فعرفوا أن هذا النهر هو نهر الولاية الثانية، ويصب في بحيرة صغيرة، وليس هو النهر الأكبر في المملكة.

الأمير عبد الرحيم ينظر للأفق البعيد. أفق أخضر ممتد فيتعجب، أكل هذه الأرض مزروعة بخيرات الله؟ خضراوات متنوعة وأشجار باسقة، بما فيها من أشجار الفاكهة! تُرى كم من المياه في هذه المملكة؟ أنا لو امتلكت فقط فرسخًا من هذه الأرض الخضراء، لكنت أغنى أغنياء الصحراء.

أيام ثلاثة والمسيرة على الأرض الخضراء مستمرة. استراحات عديدة لتناول الطعام والشراب والنوم. في عصر اليوم الثالث اقتربوا من نهر عرضه مذهل ومياهه متدفقة متلألئة، من قوتها تصنع أمواجًا عفية متعاقبة، والمراكب كبيرة وصغيرة تسبح على النهر آتية ذاهبة.

إنه النهر الملكي الأكبر كما أطلقوا عليه. نهر الولاية الأولى، الولاية التي تحوي العاصمة وتحوي قصر الملك.

عبروا النهر على جسر قوي أنيق. صوت أرجل الخيول على الجسر الخشبي كأنها طبول تنذر بالآتي.. والآتي ربما وعود خير، أو رعود شر. عبد الرحيم ومَن معه يراقبون هنا وهناك. شكّور يشرح له ما هو متوقع، فقد شاهده من قبل. يقول له:

-اكبح تعجبك، فسترى ما لم تره عيناك من قبل حين تدخل مدينة الملك. مدينة القباب.

الغروب.. بانت من بعيد قباب مدينة القباب، انعكاسات أشعة الشمس المحمرة عليها، تعطي أنواعًا رائقة رائعة من الألوان. أما القباب الذهبية، فكل منها تتلقى شمس الغروب ليرتد منها غروب خاص بها. قاربوا المدينة ليلًا، تبينوا سورها العالي السميك، وأبراج الحراسة على مسافات متساوية، وكل برج يعلوه شعلة لا تنطفئ طوال الليل. دخلوا المدينة من بابها الرئيسي، باب الجيوش. مشاعل نفط تنير الطرقات الواسعة. هدوء مستريح لا يعكره سوى سنابك الخيل الواثقة في خطواتها. قليل من الناس يمرون هنا وهناك. وجنود بملابس خاصة بحرابهم يقفون في نواصي الشوارع يراقبون المارة بنظرات تخويف. ترعة هي فرع من نهر. ثم جسر خشبي متين. عبروه فدخلوا في منطقة القصور، الحدائق الواسعة الغنّاء مترامية، صيحات الطيور الليلية.

وصلوا لقصر الضيافة، الذي خصص للأمير ومَن معه. خارج مبنى القصر الرئيسي، وعلى بعد منه مبنى الجنود. مبنى مستطيل خشن المظهر، نوافذه متعددة ضيقة. في داخله على اليمين مدخل للاستحمام وقضاء الحاجة، وعلى اليسار تمتد مساحة واسعة لا تحوي أي أثاث سوى خمسة وعشرين حشية ملقاة على جانب، ومثلها على جانب آخر. وعلى الجدران مصابيح منيرة. هنا منام ومأكل ومشرب فرسان البدو المصاحبين لأميرهم.

هبطوا من على صهوات خيولهم. العبيد والخدم ذهبوا بالخيل لحظيرتها حيث ستأكل وتشرب وتستريح. أما فرسان البدو فقد ذهبوا بهم لمبنى الجنود. فارتموا على الحشوات ينتظرون الطعام والشراب وما حكاه لهم زميلهم عجرد. وهو ثالث ثلاثة كانوا مع شكّور في رحلته الأولى لهذه المملكة. يعدهم بثلاثة أيام ضيافة هي أيام عز وإوَز، ونكاح جواري ومتاع بما لم تسمع به آذان بدو ولم تره أعينهم. شكّور قال نفس هذا الخبر للأمير عبد الرحيم الوسيم.

الأمير وابن خالته شكّور دخلا القصر. قصر فاخر زاخر بكل ما لا يتخيله البشر. جمال وبهاء. الكل في تعب والنوم يغالبهم. عبيد سود وجاريات متعددات الألوان مخصصون للخدمة. عبد الرحيم وشكّور كلاهما ذهب لحمام خاص. كل منهما وجد عبيدًا لا يرتدون سوى ما يستر العورة. غطسوه في مغطس مياه فاترة.

قالوا له هذا حمام سريع، لأنك متعب، وغدًا الحمام سيكون غير هذا. بعد الحمام تقابل عبد الرحيم وشكّور وتناولا عشاءً خفيفًا. ما هو العشاء الخفيف؟ تشكيلات من لحوم الطيور. وأنواع من الجبن والحلوى، ثم الفالوذج وتنويعات فاكهة. كل هذا وقوارير النبيذ الخفيفة التي تشجع على الإفراط في الطعام متواجدة. رفض عبد الرحيم أن يكون كل منهما في حجرة خاصة. قال حجرة لنا سويًا. فذهبوا بهما إلى حجرة واسعة بسريرين. بقي شكّور جالسًا على سريره بينما تمدد عبد الرحيم مستعدًا للنوم. ابتسم شكّور عندما سمع طرقات على الباب، فقد أتى ما يتوقعه. دخل عليهما عبد سمين ضاحك السن دومًا. ملبسه إزار أبيض عاري الذراعين ومئزر أبيض يحيط بوسطه ويغطي أعلى ركبتيه. خلف العبد الباسم جاريتان جميلتان. سأل العبد: مَن منكما الأمير؟ عرض العبد الجاريتين على الأمير أولًا ليختار مَن منهما تكون متعته هذه الليلة، على أن تكون الثانية لمرافقه! الجاريتان تتحركان حول نفسيهما مبتسمات في دلال لتظهرا فتنتهما. رفض عبد الرحيم كما رفض شكّور وأعادا العبد والجاريتين. كان كل منهما له أسبابه في الرفض. عبد الرحيم عليه أن يتصرف كأمير له مكانته وكرامته وكبرياؤه، فلا يرتمي على جارية أتته مهما كان جمالها. أما شكّور فقد رفض ولم يقُل السبب لعبد الرحيم، عليه أن يصبر، فسيكون في فراش الأميرة ذات الرِّفعة بعد ليلة أو ليلتين على الأكثر، وربما تضعف

وهي في حضنه ويحدث ما يأمله.. أن ينال جسدها كما نال قلبها في رحلته الأولى.

صعد العبد للدور العلوي حيث ترك الجاريتين الجميلتين، وهبط وخلفه عشرة من العبيد في نفس ملبسه، يحملون قوارير ضخمة من الخمور وأكوابًا معدنية. وخلفهم سرب من عشر جاريات متنوعات الجسد والشكل والعمر. ذهبوا لمبيت الجنود حيث أحد عشر من فرسان البدو ينتظرون ما حكى لهم عجرد. البدو أخذوا الحشيات التاليات لباب المبنى المستطيل ذي النوافذ المتعددة. خمسة على كل جانب. اثنان منهم اختارا ركنًا في نهاية البيت. الفارس مقص المزين، المتخصص في قص الشعر والتكحيل وغيرها من فنون تحسين البشرة. ومهمته الأساسية تجميل الأمير والعناية بملابسه. والثاني هو الفارس عاقص، الذي كان من أمهر فرسان البدو، ثم تراكمت عليه الدهون حتى صار بهيئة مفجعة.

ما كاد البدو يشاهدون الجواري، وتيقنوا من أنهن ضيافة مخصصة لهم ليستمتعوا بهن، وأن كل هذه الخمر هي لليلتهم هذه، حتى فرحوا وهللوا لتلك التقدمة المفاجئة. عجرد صاح:

- ألم أقل لكم؟ والآن انتظروا يا رفاق مشروب النكاح.

الجواري ليس لهن القبول أو الرفض، هن ينفذن ما يُمليه عليهن أسيادهن. كل ما كان منهن هو التسابق لنيل الأوسم والأقوى من البدو. والبدو بدورهم تسابقوا

للإمساك بالأجمل. فالجواري بينهن السمينات والرشيقات وجميلات الوجه ومَن ليسوا على جمال. وبينهن مَن وصل عمرها لأكثر من أربعين! ومنهن البيض والسمر والسود. بعد أن أمسك كل بدوي بنصيبه، سواء كان راضيًا به تمام الرضى، أم أن نصيبه هو ما تركه الأسرع في الحراك والاختيار. استقر الجميع وكل بدوي جلس مع جاريته على حشيته متعجلًا.

العبد الباسم، يبتسم في تعالٍ. أشار للعبيد فتقدم أحدهم ومعه إبريق فضي في يد، وكوز في الأخرى. صاح العبد المبتسم:

-اسمعوا يا بدو الصحراء. هذا المشروب، الذي في الإبريق، خاص بالرجال. اسمه مشروب النكاح. خمر بلح مضاف إليه خلطة عشبية ذات مرارة بسيطة. المشروب مقوٍّ للرغبة ويطيل المتعة مع النساء.

حامل الإبريق والكوز. يصب للبدو واحدًا بعد الآخر. يتجرع كل منهم ثم تظهر على وجهه علامات المر الذي تجرعه. ثم وضع بقية العبيد قوارير الخمر جانبًا، وعلى البدو أن يتناولوه براحتهم. لم يتكلم أي بدوي مع أي من العبيد، وتجاهلوا أيضًا العبد الباسم. أسرعوا يتجرعون من الخمر بشراهة، ثم ينقضون على الجواري يتحسسونهن ويحتضنونهن، في تسرع ونهم.

إحداهن صاحت:

- يا لحظي التعس! البدوي الذي أنا من حظه أبخر الفم، ستكون ليلة كريهة الرائحة بائخة المضاجعة.

ضحكات الجواري والفرسان. الكل مضطجع ملهي بالتقبيل واللمس والتسرع في نزع الملابس. بقيت الجارية الأقل جاذبية، تقف بجوار الباب وعلى وجهها خشية أن تكون من نصيب الواقف على بُعد بجسده بالغ السمنة. عاقص في كآبة. كل الجواري ابتعدن عنه سريعًا، إشفاقًا على أنفسهن من ضخامته. العبد الباسم واقف منتصف المبنى يراقب ليطمئن أن الأمور تسير سيرًا حسنًا. لاحظ الجارية التي لم يخترها أحد، وتشفق على نفسها أن يأخذها مَن يقف وحده بجسده بالغ السمنة. العبد أخذ في الضحك. انتبه الجميع. نظروا لعاقص الواقف في جهة محرجًا والجارية المرتعبة في الجهة الأخرى، انهمروا في الضحك الساخر من عاقص، وانضمت لهم الجواري في الضحك. عاقص أخذ في لعن زملائه البدو والجواري، فازدادوا في الضحك الساخر عليه. وانضمت لهم الجارية التي تقف بعيدًا. العبد الباسم أشار للجارية آمرًا بأن تتقدم لعاقص. الجارية تقدمت خطوات في اتجاه عاقص وعلى يمينها وشمالها كل فارس في أحضانه جارية، وكل منهما في شأن. عاقص أشار للجارية بأن تبتعد. ثم استلقى على حشيته في ضيق. البدو والجواري انشغلوا بشرب الخمور الطيبة وانتزاع ملابسهم. فخرج العبد الباسم ومعه الجارية المرفوضة. وبعد وقت قصير، عاد ومعه جارية سمينة لكنها ليست في سمنة عاقص. دخل العبد وخلفه الجارية السمينة. وقفا أمام حشية عاقص الذي ينظر

بعيدًا في أسى. العبد الباسم بقدمه ضرب قدم عاقص الذي التفت ناظرًا لأعلى ليرى مَن هذا الذي أتاه ليسخر منه. وجد العبد الباسم ومعه الجارية السمينة. لم يستوعب عاقص الأمر. فقال له العبد الباسم:

- أقدم لك الجارية شحمة.

بصعوبة وقف عاقص ينظر للجارية شحمة. سمينة قوية ذات وجه جميل وعينين بهما من الأنوثة والمكر الكثير. ابتسم عاقص راضيًا فضحكت له الجارية شحمة. فضحك العبد وهو يبتعد عنهما.

عاد العبد الباسم خارجًا وهو يسخر من البدو المنكبين في النكاح، يتأوهون ويلهثون. الجواري من تحتهم غير متحمسات، مستجيبات بفتور لكل هذه الحماسة التي يمتلئ بها البدو.

العبد الباسم عندما دخل قصر الضيافة من الباب الخلفي، وجد فطرون الفأر ينتظره. طمأنه بأن عاقص قبل الجارية شحمة. فطرون أوصى العبد بأن يهتم بعاقص اهتمامًا خاصًا. فطرون من إحدى نوافذ مبنى الجنود، تلصص مراقبًا هذا النكاح الجماعي المضحك.

الصباح الباكر. مقص المزين استخدم كل ملكاته في تزيين الأمير عبد الرحيم الوسيم. دلّكه في حمام بمياه غزيرة ومسحه بزيت مُشِع. قص شعره ودهنه فجعله ناعمًا هائمًا مسترسلًا خلف رأسه، وعلى جانبي وجهه، فيغطي نصف أذنه ويصل حتى منابت عنقه. وكذا اعتنى بلحيته القصيرة وشاربه الأنيق. نتف له حاجبيه

فصارا مرسومين بدقة. جعله أوضح وسامة مما هو فيه. ارتدى الأمير ملابسه البدوية. الجلباب ذي الخطوط الطويلة العريضة. ثم غطرته فوق رأسه وعليها عقاله الذهبي. ولم ينسَ خُفًّا أنيقًا. وقبل أن يخطو خارجًا أحكم حزام الجلد على خصره وتقلد بسيفه، ثم مسح وجهه وعنقه وكفيه بعطر فوّاح.

خرج إلى فناء القصر. فرسانه على صهوات الخيول وأمامهم شكّور، وبجانبهم عشرون من جنود قصر الملك. عشرة يغلب اللون الأحمر على ملابسهم، حتى البيضة المعدنية التي تحمي رؤوسهم حمراء. وعشرة اللون الأزرق هو الغالب، والبيضة المعدنية زرقاء. كل منهم يتمنطق بسيفه. يد تمسك بلجام حصانه، وبالأخرى رمح طويل لامع. يتقدمهم قائدهم وبجانبه فطرون الفأر. أبعد عبد الرحيم نظره عن فطرون الفأر، فهو يكرهه من لحظة أن رآه، وفطرون الفأر يعلم ذلك، لكنه بلزوجة يبتسم للأمير عبد الرحيم ابتسامة تبدو نفاقًا، وتحمل في طياتها سخرية وتوعدًا. امتطى عبد الرحيم حصانه وتقدم ليتأكد من هيئة فرسانه. وجدهم في حالٍ مزرية. سكر ونكاح ليلة أمس أحالهم إلى أشباه فرسان. وجوههم ذابلة وعيونهم بالكاد جفونها مرتفعة قليلًا. أما عاقص فلم يكن موجودًا، شرح فطرون الفأر سبب غيابه، أحس عاقص بمرض في أمعائه فأخذوه لمطبب. عبد الرحيم أمر شكّور بأن يعيد فرسان البدو ليبقوا في

مبناهم. لن يتحرك بهم وهم هكذا في حال تجلب الرثاء بدلًا من جلب الرهبة.

سرب الخيول يخرج من حديقة قصر الضيافة. طرقات ما بين قصور واسعة معبدة بأحجار مستوية. قصور متوسطة للأغنياء والأمراء من أقارب العائلة الحاكمة. الجو خريف ليس حرًا ولا بردًا، ثم مساحة عشبية خضراء واسعة، تتوسطها أشجار باسقة. بعدها لاحت مجموعة القصور. عبد الرحيم وشكّور صاحا: يااااه! هل هذا ممكن؟ ما كل هذه القصور بأناقة مبانيها وكأنها تتحدى بعضها أيها أكثر روعة؟! شرح لهم فطرون الفأر. هذه مجموعة قصور عائلة السمايدة، عائلة الملك. أهم وأقوى عائلة من عائلات أربع، ويتصدرها قصر الأكبر. وكل عائلة من العائلات الأربع لها مجموعة قصور يتوسطها قصر كبيرهم.

(2)

اقتربوا من القصر الأكبر الأفخم. قصر عالٍ من طابقين، ويمتد عرضه لفراسخ ثلاثة على الأقل. إنه قصر الزمردة. اتخذ اسمه من قبته التي على شكل زمردة خضراء مصقولة، زمردة لها عشرات الأوجه تتفاعل مع حركة الشمس في السماء، ومع حركة القمر في الليل، فتعطي الزمردة تشكيلة ألوان في كل دقيقة سواء في النهار أو في ليل البدر المتحول. وبجانب جمالها، لها تأثيرات علاجية لأنواع من الخَبَل التي تصيب عددًا من الناس. القبة الزمردية أعلى من كل قباب القصور الأخرى، قبة ممنوع تقليدها في أي قصر، فبقي قصر الملك وحده له قبة زمردية.

دخلوا ساحة القصر. الحدائق الأمامية. ألوان المزروعات المتنوعة، وإن كان اللون الأخضر هو الغالب. أشجار زينة أطولها ما يقال عنه النخيل الملكي. حدائق غنّاء بطيورها مختلفة الأشكال والألوان. نوافير مياه. موسيقى الطيور وأريج الفواكه والورد. قالا نحن دخلنا إلى جنة عدن الأرضية. ونحن البدو في قحط ويباب!

جدران القصر لُجينية والنوافذ والشرفات زرقاء. الحراس الأقوياء على الباب الرئيسي سمحوا للأمير وشكّور بالتقدم. أما بقية فرسان الملك وفطرون، فقد اتجهوا لجانب بعيد.

العبيد أمسكوا بأعنة الخيول فهبط الأمير وشكّور. حارس تقدم فسارا خلفه. القصر من الداخل أفخم

وأجمل وأروع مما يتخيله الإنسان، خاصة لو كان هذا الإنسان بدويًا بسيطًا. اتساع بما يقال عنه واسع شاسع. طرقات عديدة ودرجات درج كلها مبلطة بالرخام والمرمر الملون ومفروشة بأبسطة لينة. والأعمدة ذات أشكال كل مجموعة لها تصميم يضارع التصاميم الأخرى جمالًا. رائحة العطور منعشة. قاعات متعددة صيفية وشتوية. وكل الأمكنة ينالها شيء من لون الزمرد حسب قربها من القبة وبعدها عنه. الحرس الملكي المنتشر داخل القصر، من أجمل وأقوى الشباب، ويرتدون أبهى الملابس.

توقف الحارس عند باب قاعة العرش، ثم طلب الحارس من الأمير وشكّور تسليمه سيفيهما ففعلا. باب القاعة واسع على جانبيه حارسان يمسكان بحربتين. عبد الرحيم وشكّور نظرا للداخل، القاعة متسعة. على جانبيها مقاعد يجلس عليها ذوو المكانة والهيبة. الجميع لهم لحى وشوارب قصيرة مشذبة. في الصدارة منصة تعلو ثلاثة أذرع، في منتصفها كرسي العرش العريض. تعلوه قبّة خشبية على هيئة زمردة. اللون الأخضر بتعدداته مسيطر على قاعة العرش. الملك عِلوِي السُمَيِّد على العرش الذهبي الوثير. يجلس في أبهى صورة، وكل أنواع المجوهرات، متناثرة من أعلاه حيث عمامته الحمراء المثبت عليها تاج ذهبي ثقيل، حتى الخُف في قدميه كل منها تعلوه ياقوتة حمراء. كل هذا لم يستطع مداراة أن وجه الملك هضيم وتكسوه غمامة تشي

بضيق القلب، وملبسه القشيب لم يخدع الأعين، فالملك نحيف ضعيف.

من حجرة جانبية، أتى رجل طويل عريض يرتدي ملابس مبالغ في زركشتها، وينظر للجميع في ترفع وكأنه هو الملك. إنه حاجب الملك. هكذا قال شكّور لعبد الرحيم. خلف الحاجب المتعاظم يسير رجل مرتبك. يدخلان القاعة. وعندما يقتربان من كرسي العرش، يصيح الحاجب بصوته العميق:

- مولاي ملك البلاد الملك العظيم الفخيم عِلوِي السُمَيِّد. أتاك عبد من رعاياك يعرض عليك مسألته.

يتنحى الحاجب جانبًا. فإذا بمَن أتى ليعرض مسألته يقع ساجدًا وهو يشكر في ملك البلاد سيد العباد. يهز الملك رأسه، الحاجب يطلب من الرجل الوقوف، فيقف ليعلن ما يريد. يستشير الملك مَن يجلس على يمينه ثم يتكرم بكلمتين، لينسحب صاحب المسألة بظهره حتى يخرج من القاعة. يأتي الحاجب برجل غيره وغيره ثم بسيدة. وكل مَن يدخل يسجد للملك.

لم يرضَ عبد الرحيم بأن يقف هكذا منتظرًا أن يدعوه الحاجب للدخول. بمجرد أن خرجت السيدة وخلفها الحاجب، حتى أمسك عبد الرحيم بيد شكّور ودخلا القاعة في خطوات سريعة واثقة. الحاجب انتابه الغضب وأسرع خلف الاثنين، فصاح به صوت من الداخل أن اتركهما. إنه صوت الملك. الملك بعد أن قال اتركهما. لم يلتفت لهما. ينظر ليمينه حيث مقعد وثير

يجلس عليه الوزير المتغوِّل. الوزير قصير مدور الجسد. كرش ومؤخرة ورجلان قصيرتان. وجه ليس به من الوسامة سوى شفتين محددتين وأسنان سليمة. ثم الملك ينظر إلى مَن يجلس على يساره، وهو شاب قوي جسيم وسيم، يرتدي ملبس القتال وسيفه معلق في خاصرته، إنه جَربال قائد الجيوش. واضح أن الملك النحيف الضعيف يعتريه إرهاق. عيناه واسعتان، ملامح وجهه الهضيم متناسقة. لحيته وشاربه بسيطان. به وسامة لكن ليست له هيبة.

قاعة العرش الفخمة أرضيتها الرخامية مغطاة بالسجاجيد الثمينة الرائعة. الحاجب تقدم ووقف أمام عبد الرحيم وشكّور وصاح:

- مولاي ملك البلاد الملك العظيم الفخيم عِلوِي السُميِّد. وصل لأعتاب قصرك المنيف، قصر الزمردة.. الأمير البدوي عبد الرحيم الوسيم ومعه ابن خالته شكّور.

ابتعد الحاجب جانبًا. عبد الرحيم وشكّور على بعد خطوات من الملك. لاحظا كيف أن الحاجب نطق كلمة البدوي باستهانة. لم يسجدا. بل وهما واقفان ظلا ينظران للملك ضعيف البنية. صاح الحاجب غاضبًا آمرًا:

- اسجدا للملك عِلوِي السُمَيِّد يا عبيد الملك.

لم يسجدا.

وقف رجل ثقيل اللحية حليق الشارب معمم بطريقة مختلفة عن الجميع. صاح في عبد الرحيم وشكّور:

- اسجدا لخليفة الله في الأرض يا جهلاء.

عبد الرحيم وشكّور نظرا إليه في استهانة. تقدم الرجل الثائر خطوة إلا أن الملك صاح به:

- اتركهما يا شيخ صقالي.

عاد الشيخ صقالي لمقعده وجلس وهو في غضب مصطنع.

تقدم عبد الرحيم خطوتين فإذا بعدد من الحرس يسرع وقد أشهروا الحراب ناحيته. حتى جَربال وقف مشهرًا سيفه، وقرب ذؤابته من عنق عبد الرحيم. وقف عبد الرحيم غير آبه بما حدث. بل نظر في طمأنينة وكبرياء تجاه الملك عِلوِي السُمَيِّد. أشار الملك للجميع بأن يتركوه.

توجَّه الأمير عبد الرحيم بالحديث للملك:

- أيها الملك المُهاب ذي المكانة العظيمة، والأبهة التي لا ينكرها سوى أعمى. أنا الأمير عبد الرحيم الوسيم. أمير البدو والمسيطر على طرق القوافل. أتيت إليك للتفاوض. فلا تترك خدمك الأذلاء يحاولون خفض مكانتي. ولتعلم أيها الملك العظيم أن الأمير عبد الرحيم الوسيم لا يحني رأسه لأحد فضلًا عن أن يسجد. سجودي لخالقي فقط. هذه بداية..

الملك عِلوِي السُمَيِّد بان على وجهه الضيق. أما الوزير المتغوِّل فنظر بتدقيق في وجه الأمير عبد الرحيم. وإن كانت هيئة المتغوِّل من بعيد لا تعطيه حقه كإنسان خطير، فإنه بالاقتراب منه والنظر في عينيه، يدب القلق

فيمَن ينظر إليه. قال الملك بابتسامة تحمل السخرية أكثر من الود:

- أهلًا وسهلًا بالأمير عبد الرحيم الوسيم، أمير البدو والمسيطر على طرق القوافل. لا تغضب يا أمير من عبيدي، فهذا عهدنا. أن تسجد لي رعيتي.. ثم.. تتفاوض معي. هذا هو ما أتيت له، كما جاء من قبلك ابن خالتك شكّور فأكرمناه. أليس كذلك يا شكّور؟

- بلى يا مولاي.. لقيت منك كل كرم يليق بملك عظيم مثلك.

واصل الملك عِلوِي السُمَيِّد حديثه لعبد الرحيم:

- باختصار.. نريد مَن أسرتهم عندك، مقابل أن نُنعم عليك ونجزيك خيرًا.

- مولاي.. هل أبقى واقفًا هكذا؟!

- تفضل بالجلوس أيها الأمير.

تقدم الأمير ناحية الوزير المتغوِّل وأشار له بالقيام. نظر المتغوِّل متحيرًا للملك عِلوِي السُمَيِّد. هز الملك رأسه. فقام الوزير في ضيق لكنه لم يتحرك من أمام مقعده. دفعه عبد الرحيم بعيدًا فكاد الوزير ضئيل الجسد أن يقع. حمل عبد الرحيم المقعد ووضعه أمام الملك مباشرة. شكّور كاد يضحك من منظر الوزير القصير المشدوه، الذي تقدم من الرجل الجالس بجانب مقعده المنتزع، فقام الرجل ليجلس الوزير. عبد الرحيم أشار لشكّور أن يتصرف مثله. توجه شكّور للوزير الذي جلس على مقعد مَن كان بجانبه. أمر شكّور الوزير بأن

يقف ويترك له هذا المقعد أيضًا. فقام الوزير أيضًا ليقف أمام مقعده متصلبًا، فينحيه شكّور جانبًا. حمل شكّور المقعد وأتى به على يسار عبد الرحيم، وهو يكتم ضحكاته من منظر الوزير الذي يضرب الأرض بقدميه وهو يكاد يبكي من الإهانتين.

قال الملك:

- اعلم يا أمير البدو أن واجب الضيافة ثلاثة أيام، بعدها يكون التفاوض. أقول هذا وأنتم معشر البدو أهل ضيافة وكرم.

قال عبد الرحيم للملك:

- أوافقك.. فقط سأبين المبدأ الذي سنتفاوض عليه. ابن أخيك الأمير راسم السُمَيِّد ومَن معه من قيادات جيشك، مقابل الذهب ثم جزية سنوية تصل لي. هذا هو الأساس فهل توافق مولاي؟

الوزير المتغوِّل أتى سريعًا ووقف بجوار منصة الملك. ثم نظر لعبد الرحيم في غضب واستعلاء وقال:

- أيها الأمير البدوي.. لا تُملِ شروطًا على ملك مملكة الأنهار السبعة.

لم يأبه به عبد الرحيم، بل نظر للملك وقال:

- أما التفاصيل فتكون بعد ثلاثة أيام، وبعيدًا عن هذا الزحام.. والسلام.

وقف الأمير عبد الرحيم وتبعه شكّور خارجين من قاعة العرش، والملك وحاشيته متعجبين من غلظة هذين البدويين وشجاعتهما. عبد الرحيم وشكّور أخذا

سيفيهما وخرجا من القصر. أتوا لهما بحصانيهما. الشمس قاربت منتصف السماء. عبد الرحيم اتفق مع رأي شكّور، الملك عِلوِي السُمَيِّد ليست له هيبة ملك يجلس على عرش مملكة متسعة غنية مثل مملكة الأنهار السبعة. عبد الرحيم طلب من شكّور أن يذهب وحده لقصر الضيافة. اتجه هو رأسًا لقلب مدينة القباب. يريد عبد الرحيم أن يرى المدينة ويرى ناسها وكيف يعيشون. أربعة من جنود القصر بحرابهما على خيولهما لحقا به. لن يتركوا الأمير بعيدًا عن المراقبة. يخترقون المنطقة الغنية. منطقة القصور. ويعبرون على جسر خشبي لمنطقة رعايا المملكة الشغالين وما يقال عنهم الصعاليك والواغش والدهماء. مبانٍ قصيرة متوسطة الجودة، وشوارع ليست باتساع منطقة القصور، لكنها معقولة وتتخللها الأشجار فتلقي بظلال مستحبة للسائرين في هذه الظهيرة. الناس في ملابس ليست فاخرة ولا رخيصة متهرئة. عمائم صغيرة على رؤوسهم، وسراويل فضفاضة في نصفهم السفلي وقمصان بأكمام على نصفهم العلوي، بعضهم حافي القدمين وبعضهم الآخر يرتدي الخفاف. النساء والفتيات اللاتي يغطين جانبًا من رؤوسهن بمنديل لين خفيف، وشعرهن ينسدل على الجانبين، تاركات خصلة تتراقص أعلى الجبهة في دلال. ملابسهن ملونة لا هي متسعة ولا هي ضيقة. عبد الرحيم يتمعن في جمال النساء وطراوتهن وابتساماتهن التي لا يحجبنها عن الرجال ولا عنه، رغم أن مظهره

يوضح أنه ليس من رعايا المملكة، بل هو من البدو. وكلما انحرف عبد الرحيم على حصانه لشارع، تابعه الجنود الأربعة على أحصنتهم.

من شارع جانبي ينطلق رجل يجري بأقصى سرعة وعلى وجهه ملامح الخوف. كاد يصطدم بحصان عبد الرحيم فانحرف سريعًا وواصل العدو. جنديان يطاردانه وكل منهما يحمل حربته. الرجل وقد أفلت من الاصطدام بحصان عبد الرحيم، لم يتوقع أيضًا الخيول الأربعة، فارتطم بحصان منها. وقبل أن يتماسك ويواصل العدو، وخزه الجندي صاحب الحصان بحربته في صدره، فصرخ ألمًا وهو يتهاوى على ظهره. لحق به الجنديان وهما يشهران حربتيهما عليه. الرجل المصاب يصرخ ألمًا من الطعنة، وقد فقد الأمل في الهرب. الناس الذين شاهدوا ما حدث، توقفوا في أماكنهم ولم يتكلم منهم أحد، لكن الغضب ظهر على وجوههم وهم يبتعدون. عبد الرحيم من فوق ظهر حصانه أقبل ناحية الرجل المصاب. لكن الجنود الأربعة على أحصنتهم وقفوا حاجزًا بينه وبين الرجل المصاب. فالتفت عبد الرحيم بحصانه واستمر في السير. وصل لقلب المدينة. السوق الكبير. ما كل هذا الضجيج؟ تشكيلات ألوان. تداخلات أصوات خشنة وناعمة عالية وأكثر علوًّا. دكاكين مترعة بالبضائع المختلفة. روائح طيبة وخبيثة وبين بين. عيون زائغة وعيون شرهة وعيون جائعة وعيون تشتهي امرأة تتمايل، وعيون نسائية ترغب في

شاب قوي نصف عارٍ، والعرق يبلله من شعر رأسه حتى إزاره الذي يستر به وسطه. ضجيج فرح ومرح، وضجيج ضيق وحشرجة. ضجيج نداءات الباعة الجائلين والذين أمام دكاكينهم. وضجيج نهيق الحمير وصهيل الخيول وأصوات الجِمال والماعز والخرفان، التي تزاحم الناس بأجسادها وضجيجها. بعضها تائه وبعضها يعلم من أين أتى وإلى أين يذهب. أناس يسيرون لمجرد الفرجة أو ملاقشة النساء خاصة الاحتكاك بمؤخراتهن ونهودهن. الأغلب مشغول بالبيع والشراء، ولا يهمهم حصان عبد الرحيم الذي يمر بينهم، ولا يأبهون ببعض الجِمال التي تحمل ركابًا أو بضائع. مطاعم في قارعة الطريق والبعض منهمك في تناول طعامه. بائع البسبوسة المرصوصة في صينية على رأسه، وعلى كتفه حامل خشبي مطوي، يعلن عن حلاوة بسبوسته. أشار له عبد الرحيم. فرد البائع الخشبتين، ووضع الصينية عليها. بسكين عريضة اقتطع قطعة وناولها لعبد الرحيم. تناولها عبد الرحيم واستساغها مبتسمًا. ألقى للرجل بدرهم. بائعو مشروب العرق السوس في أوانٍ معدنية كبيرة الحجم، محملة على بطونهم ومربوطة بحزام يلتف من فوق أكتافهم. ينادون على بضاعتهم عن طريق صاجات نحاسية ترن بنغمة معروفة. أشار إلى أحدهم. فناوله كوبًا من المشروب. لم يستسغه عبد الرحيم في البداية. ثوانٍ واستطابه. شرب وأعطى الرجل درهمًا. واصل السير.

عبد الرحيم في دهشة من كَمِّ النساء البائعات بأصواتهن الرفيعة العالية، وكم السائرات الشاريات بدون أن يكون معهن رجالهن، يشترين ويفاصلن مع البائعين الرجال في يسر وبساطة. يخرجن كيس نقودهن من بين ملابسهن ونهودهن ويدفعن الدراهم، ويتسلمن البضائع في ابتسامات. ثم يسرن ليِّنات متهاديات متسارعات ضاحكات! بعض الأتربة تتصاعد ورائحة السمك المقلي والمشوي، ورائحة خبز طازج من فرن كبير. وسط كل هذا الزحام، رجل بعمامة متهرئة يلاقش امرأة فتنظر إليه شزرًا، ولما يلاقشها شاب أنيق تبتسم راضية، فيسايرها متابعًا مطمئنًّا، ومَن يلاحظون الأمر لا يهتمون. مقهى بطابقين أمامه شجرتان وافرتان. الطابق العلوي وكأنه شرفة عريضة تطل على الشجرتين والشارع. مقاعد ودكك عريضة يجلس عليها العامة يشربون مشاريبهم ويدخنون النارجيلة. بعض الحمير مربوطة على جانب. اتجه الأمير عبد الرحيم ناحية المقهى وهبط عن ظهر حصانه وسط دهشة الجالسين والمارة. واضح من ملبس عبد الرحيم وهيئته أنه من علية القوم حتى لو كان بدويًّا. توقف الجنود الأربعة بجوار المقهى يراقبون عبد الرحيم في ضيق. فالمقهى متواضع ولا يليق بضيوف الملك.

صعد الأمير للطابق العلوي وجلس يتابع الشارع النشط. أتاه خادم المقهى الحافي وعاد بنارجيلة لعبد الرحيم. قلد عبد الرحيم ما يفعله شاربو النارجيل،

فسعل وضحك عليه مَن حوله، كما شاركهم الجنود وهم على صهوات خيولهم في الضحك الساخر. فضحك عبد الرحيم بدون أي حرج واستمر في التدخين والسعال. ظل فترة يستمع للحوارات التي تشكو من أن الأمور تسوء، والرزق يقل، لكن لم يتفوه أحد بأن السبب ضعف الملك وفساد العائلات الأربع. قام عبد الرحيم وترك النارجيلة وأعطى الخادم دراهم أسعدته كثيرًا.

على حصانه وهو يعود متخذًا طريقًا مختلفًا. شارع عريض يحوي دكاكين تبيع السجاد الفاخر. في ناصية الشارع جامع له درج عريض. الشارع حتى الجامع مغطى بسقيفة قماشية كبيرة، ليستظل الناس ويبقون لمعاينة البضائع والشراء براحتهم. من على ظهر حصانه. وقف عبد الرحيم يتمعن في السجاد. نادى عليه بائع ليهبط ويعاين عن قرب. ابتعد عنه عبد الرحيم بلا مبالاة. نظر للجنود الأربعة فأقبل رئيسهم إليه. وقبل أن يتكلم عبد الرحيم قال رئيس الأربعة إن مدينة القباب واسعة وتحوي أحياء ومناطق عديدة، ولا يستطيع غريب أن يلم بالمدينة في نهار يوم أو نهارين. عبد الرحيم طلب منه أن يكون بجواره ليدله على طريق العودة لقصر الضيافة.

***

أمر الأمير عبد الرحيم بحضور فرسانه البدو من مبناهم. فأتوا ودخلوا أكبر قاعة في قصر الضيافة، حيث ينتظرهم أميرهم مع شكّور. تجولوا في القصر هنا

وهناك، ثم صعدوا للدور العلوي. إنه أفخم من السفلي. حجرات عديدة، لهم أن يفتحوا كل باب، إلا بابًا فخمًا في الوسط. سأل فارس بدوي لماذا هذا مغلق؟ أجابه عبد من العبيد:

- إنه جناح ملكي يطل على حديقة القصر الخلفية، ولا يفتح هذا الجناح إلا بأمر من الملك أو من أمراء العائلة المالكة فقط.

هبطوا للدور الأرضي يجوسون فيه. العبيد والجواري ينظرون إلى البدو في ترفع. إنهم مضطرون لخدمتهم وهم يرونهم لا يستطيعون التصرف اللائق مثل أمراء وأغنياء المملكة. يبصقون على السجاد الفاخر وكأنهم على رمال صحرائهم! ولما أخذهم الأمير ليجولوا في القصر، ساروا في تعجب من كل هذه الفخامة، فأين هي خيامهم المسكينة بجوار هذا المبنى الشامخ بممراته وحجراته وشرفاته، وبكل ما يخلب الألباب من رخام وسجاجيد وستائر وغيرها؟ البدو المشدوهون بما يرون، يمسكون بالفخاريات الثمينة ليفهموا ما هو الجمال الذي فيها! المصابيح المذهبة الأنيقة يمسكون بها ويخلعونها من أماكنها، يقلبون فيها ويعيدونها أو يتركونها أرضًا، إحداها سقطت وتحطم زجاجها فضحكوا ساخرين وابتعدوا. أحدهم أعجبته مؤخرة جارية سمينة، فضربها بكف يده مازحًا فصرخت الجارية من الخضّة.

أمر الأمير بإحضار الغداء له ولمَن معه في القاعة. اضطر العبيد والجواري للتنفيذ، وهم في يقين أن سجاد

تلك القاعة سيتم تبويظه. يأكلون ويشربون بفجاجة. خلال تناول الطعام المكون من تشكيلات لحوم مع تنويعات طبخ، مع نبيذ خفيف. أبلغهم الأمير بألا يسكروا مرة أخرى كما سكروا في الليلة الماضية. فمظهرهم غاية في الأهمية بالنسبة لهدف رحلتهم هذه.

في حجرتيهما، شكّور أبلغ عبد الرحيم بأن الأميرة ذات الرِّفعة أرسلت له، وأنه سيتسلل إليها ليلًا. نظر له عبد الرحيم نظرة فيها ما فيها. فقال له شكّور قولًا حازمًا:

- تحبني وأحبها. لم يحدث ما تركز عليه نفسك. ثم.. ثم لا تسألني عن علاقتي بها. لا قبل ذهابي إليها ولا بعده.

***

(3)

امتطى شكّور حصانه وتبع مرسال الأميرة ذات الرِّفعة. الحصانان سرعتهما متوسطة، فلا بطء كسولٍ ولا سرعة تسترعي الانتباه، فالبصاصون في كل مكان، حتى المختص بمراقبة قصر الضيافة بما فيه من ضيوف، قد شاهد مرسال الأميرة ذات الرِّفعة، لكنه لم يعرف أنه من طرف ذات الرِّفعة، ولم يجرؤ على متابعة الحصانين حتى لا ينكشف، فكل ما استطاعة أن يبلغ فطرون الفأر بما رآه.

باب جانبي لحديقة جانبية ثم فناء ثم قصر الحرملك. القصر لا يبان إلا حين يأتيه أحد من هذا الباب الجانبي. يدخلان في ثقة. ردهات مضاءة بمصابيح زيتية. هدوء ثم جوارٍ يسرعن لحالهن ضاحكات غير مباليات بالمرسال وشكّور. عند باب موارب يقف المرسال ويشير لشكّور أن يدخل. شكّور يدخل مخدع الأميرة. لم يهتم بالحجرة الواسعة التي عرفها من قبل. ولا بالإضاءة المنيرة بالمصابيح الرائعة، ولا بكل هذه الستائر ومنها القطيفة ومنها القطنية الرقيقة على الجدران وعلى النافذتين الواسعتين العاليتين المغلقتين. تركيزه كله ووجدانه كله انصب في منتصف الحجرة الرحبة، حيث تقف الأميرة ذات الرِّفعة في ملبس شفاف أنيق ورائحة عطرها تعبق المكان. رشيقة القوام ليس في جسدها موضع نافر في تحدٍّ.

لم تنتظر ذات الرَّفعة حتى تغلق جاريتها الخاصة الباب. أسرعت إلى شكّور واحتضنته بقوة وهي تبكي وجسدها ينتفض وتكرر مؤكدة كم اشتاقت إليه! شكّور ربَّت ظهرها وشعرها بلطف. ابتعدت عنه خطوة تنظر في وجهه وقالت:

- كيف حال ابني الأمير راسم؟ ابني يا شكّور.. أهو بصحة جيدة؟ هل يأكل جيدًا؟ هل ينام مرتاحًا. أخاف أن يكون أحد قد آذاه.

طمأنها شكّور تمامًا، فهدأ قلب الأم قليلًا. عادت لأحضان البدوي الذي أحبته من زيارته الأولى، ووجدت فيه رقة وحنانًا لم تجدهما عند أحد منذ اغتيال زوجها الأمير سِلْوِي السُمَيِّد. رفضت الزواج من الكثيرين، وكأنها كانت تبحث عن مثيل لسِلْوِي، فوجدت شكّور البدوي الذي أتاها من قلب الصحراء، ولا يمكنها الزواج منه، ولا يمكنه الزواج منها. فلن يقبل الملك ولن تقبل عائلتها، والأهم أن ابنها راسم سيرفض وسيقف ضدها بقسوة، هي تعرفه وتعرف عجرفته، فكيف ينام في سرير والده بدوي صحراوي؟! وشكّور أيضًا، لن يستطيع هجر زوجته وبناته وحفيدته. لن يستطيع التخلي عن قبيلته ولا عن معيشة الصحراء، التي يراها، كما يرى جميع البدو، أنها الأمثل والأشرف.

سألته عن نفسه وعن زوجته وبناته. سألته عن رحلته وكيف كانت؟ لما لاحظت أنه تنسم رائحة فمها، صارحته بأنها تنفست قليلًا من دخان الحشيش. فهي أدمنته بعد

اغتيال زوجها الأمير سِلْوِي. ابتسم لها ثم كانت في أحضانه وقبلاته التي تحتاجها هي أكثر من احتياجه هو. وهذا ما كان. حتى وهما على سرير عريض ليّن. وعليها ملبس أملس خفيف. أنهيا تلامسهما النفسي، أما الجسدي، فلم ينل إلا ما سمحت به ذات الرِّفعة. لا نكاح مستكمل. لم يستطع شكّور المعارضة، ولم يستغل لحظات ضعفها وحالة نشوتها فيدخلها وهي في حالة الوهن هذه.

هدءا. توقف العرق المنهمر منهما. مالت الأميرة ناحيته..

- كيف وأنت البدوي تكون بكل هذه الطيبة؟

- وهل البدوي ليس بشرًا مثلكم يا أميرتي؟

- هي أقوال.

- وها أنتِ ترين أننا لسنا كذلك.

- حياتكم خشنة، ونحن أهل الأنهار في لين ودعه.

- الصحراء أعطتنا خشونة وليونة. فقرًا وكبرياءً. إدراكًا حتى وإن كانت معارفنا محدودة.

- لم تدخل فيَّ، مع أنك كنت تستطيع!

- لا أستطيع خيانة مَن أحبها، ولا حتى مَن لا أحبها.

- كم أحببتك يا شكّور وأعجبت بسموك. يا بخت زوجتك بك.

- وكم أحببتكِ يا ذات الرِّفعة. لكني!

- ماذا؟

- أخشى عليكِ من تسللي إليكِ. أخشى من انفضاح أمرنا. بصاصو الملك في كل زاوية وكل ركن وكل باب. سيبلغونه بحضوري إليكِ في مخدعكِ الخاص.

- هل تخشى عليَّ أم على نفسك؟

- عليكِ أولًا.

- لا تخشَ لا عليّ ولا على نفسك. أنا أعلم بشئون الملك وشئون قصر الزمردة. هذا القصر، قصر الحرملك، لا يدخله علنًا من الذكور سوى الملك. بقية الرجال كل منهم مخصي، منهم الخدم وبعضهم من الحرس، يقال عنهم حرس الحريم. والجواري بالطبع هم الأساس. والحرملك به من الخبايا ما لن تصدقه وإن رأيته بنفسك. النكاح فيه كالماء والهواء، الجواري والعبيد والخدم كلهم في نكاح مبين. أما ناحية أخي الملك، فهو أضعف من أن يصيبني بشر أو حتى بتهديد. أنا التي تهدده، فهو يخشاني بعد خشيته من أخته الأميرة مرمرة، فهي التي تصيبه بالرعب والهلع.

يضحك شكّور ويقول:

- ملك يخشى زوجة أخيه ويرتعب من أخته؟ فكيف يكون ملكًا؟!

- هذه حكاية ذات شجون. لنترك الملك وأخته ونبقى في مسائلنا. اسمع وصدقني.. أنا الأميرة ذات الرِّفعة. ابنة عائلة الحوافظ وأرملة الأمير النبيل سِلْوِي السُمَيِّد. الوحيد الذي أخشاه هو ابني راسم. أنا أخشى من غضب ابني فقط. ابني وحيدي راسم. لا أخشى أحدًا غيره. لا

أريد أن أغضبه. لا يهم أن يعرف أن أمه في حالة عشق، فجواري القصور كلهن والأرامل والمطلقات والعزباوات، كلهن لهن علاقات شبه علنية مع عشاق . لكن أن يكون العاشق بدويًا.. فهذا مخزٍ. لا أريد أن يعايره أحد بأن أمه عشقت بدويًا وسلمته جسدها. آآآه. أين أنت يا راسم يا حبيبي؟ أين أنت يا قلبي؟ هل تنام مستريحًا؟ أتناولت عشاءك أم تنام بطعام قليل وذل كثير؟ كيف يعاملونك وأنت ابن الأمير الهمام سِلْوِي، وحفيد الملك نفعي؟ آآآآه..

مال شكّور ناحيتها واحتضنها، وأكد لها:

- أقسم لكِ إنه يُعامَل معاملة طيبة. رغم كبريائه فقد أوصينا عليه فهو الأمير. وبالنسبة لي هو ابن سيدة من أحب الناس إليّ.

- أنا أصدقك. لكن.. أنت تعرف قلب الأم. لن أستريح إلا عندما أراه أمامي معافًى وآخذه في أحضاني.

- قريبًا إن شاء الله.

- تعرف يا شكّور، أنا التي ألححت على الملك عِلوِي ليرسله على رأس الجيش الذاهب إلى صحراء البدو! أنا لم أكن موافقة. لكن ابني ألح عليّ كثيرًا وغضب مني حين رفضت التوسط له. دائمًا ابني راسم يحاول أن يثبت أنه لا يقل فروسية وشجاعة عن أبيه سِلْوِي رحمه الله.

فترة تكفكف دموعها وهو يقبلها قبلات حنان حتى هدأت قليلًا، وقالت وهي ترتمي على صدره:

- في أول فرصة سأحكي لك كيف اغتالوا زوجي الأمير سِلْوِي السُمَيِّد.

- ماذا؟! وهل زوجكِ اغتيل؟ كنت أظن أنه مات ميتة عادية!

- ستعرف ما نعرفه، لكن ما نعرفه ليس كل التفاصيل، فما زالت جوانب من اغتيال زوجي لم تتضح تمامًا. ولست وحدي مَن ينتظر يومًا ما أنتقم من قاتله، بل كل محبي سِلْوِي من القيادات وجنود الجيش، لن ينسوا الانتقام لفارسهم النبيل.

- مَن الذي اغتاله؟ مَن يا حبيبتي؟

- أقول لك اسم مَن نُحمله المسئولية، لكن لا تسألني الآن كيف ولماذا؟

- لن أسأل.

- أخوه..

- أخوه؟! أخوه المـ.. الملك عِلوِي السُمَيِّد.

- نعم. لم يقتله بيده، لكني أشعر أنه من ضمن الذين دبروا اغتياله.

- إذن لو شارك في التدبير، فقد شارك في قتله. لا أستطيع أن أصدق. أخ يقتل أخاه؟ لماذا؟ ما السبب؟ حتى وإن تواجد سبب، أو أسباب.. يقتل أخاه؟!

- في صحرائكم. ألم يسبب الطمع أن يقتل أخ أخاه؟

- آآآه. بل يقتل أباه. لكن.. هل أساء.. معذرة يا أم راسم. هل أساء زوجكِ أولًا لأخيه الملك، إساءة تقتضي أن يقتله الملك؟

-لم يحدث أبدًا. فسِلْوِي مثلما اشتهر كفارس قوي، وأنه مندفع متحمس في الحق، فقد اشتهر بالسمو والتعالي على الصغائر. الرعية تناديه بالبطل الطيب، والجيش حين يقولون الفارس، فالقصد هو الأمير سِلْوِي. يعتبرون الأمير سِلْوِي منهم. لكن عِلوِي أخاه الكبير والذي صار ملكًا، مشهور بالتفاهة وضعف الشخصية، وأنه من صغره يحقد على أخيه سِلْوِي الأصغر منه. عِلوِي تحت تحريض عائلة النوارنة خاصة زوجته فوز التي تسيطر عليه، وتوءمها لوز الخبيث، ومعهما قائد الجيوش جَربال، بالإضافة للداهية الأكبر الوزير المتغوِّل، بثوا في قلب الملك عِلوِي القلق من انقلاب سِلْوِي عليه، ليستولي على العرش بمساعدة عائلة الحوافظ. والحوافظ هم عائلتي، وأنا لا مع الحوافظ ولا مع مَن ضد الحوافظ، أنا مع ما أراه حقًّا، أشهد بأن زوجي الأمير سِلْوِي فارس نبيل. عِلوِي الغبي صدق أن سِلْوِي سينقلب عليه. ولم يفهم عِلوِي حتى الآن أن هذه العصابة تريد إزاحته من الطريق لينفردوا به ويقضوا عليه. نظن نحن ويظن غيرنا، أن عِلوِي عديم الذكاء وافق على اغتيال أخيه سِلْوِي. نتأكد من الظن يومًا بعد يوم. سِلْوِي وقتها كان في مهمة تهدئة هوجة خطيرة في ولاية النهر الخامس. قالوا إن الهوجة المسماة بهوجة جبل الصد قتلته هو ومساعده. ثم أشاعوا أن ممبار مساعد قائد الجيوش هو القاتل. لكن ما نتداوله جميعًا، ما يقال منذ أعوام قليلة، إن ممبار

مظلوم. وعصابة جبل الصد بريئة من دمه، براءة الذئب من دم ابن يعقوب. نحن في داخل العائلة المالكة، نحس أن عِلوِي في عذاب مع نفسه.. بسبب جُرم قديم وجُرم جديد. واضح تمامًا أنه في حسرة وندم يؤذيانه.

- وإن كان الملك عِلوِي شارك في اغتيال زوجك، فما هو موقفه من ابنكِ راسم بن سلوي؟

- عِلوي يحب ابني راسم، وراسم يحبه! فراسم يشبه عِلوِي في ملامح الوجه وأخذ قوة جسد أبيه سِلْوِي. وعِلوِي يعمل على زواج ابني راسم من ابنته نورة. وكأنه يريد التكفير عن اغتيال أخيه سِلْوِي، وفي نفس الوقت، يضمن أن يكون العرش من نصيب ابنته نورة.

- الملك عِلوِي يوافق على قتل أخيه! لا أتخيل هذا.

- وتسبب في موت أخته جوهرة.

- أعوذ بالله. كيف؟

- وهذا ندم حارق يكويه، ندم أقدم من ندمه على مقتل سِلْوِي. مقتل الأميرة جوهرة.

- القتل في عائلتكم كثير!

- نعم. فحيث يتواجد العرش، تتواجد الأطماع الهائلة، ثم تترسخ المآسي والأحزان. حكاية عائلة السمايدة، حكاية طويلة. حكاية لها جذور بعيدة. أبعد من تاريخ قريب لا يتعدى سنوات قليلة، الحكاية بدأت من التاريخ القديم. الملك المُر هو أول مَن وحَّد الأراضي المزروعة بالأنهار، وصار أول ملك عليها تحت اسم مملكة الأنهار السبعة. وهو الذي اهتم بالصنائع ونسخ

الكتب وإنشاء بيت الخط وبيت السلاح وبيت المال وبيت الجنود وغيرها. فأرسى قواعد نهضة مملكة الأنهار السبعة، بجعلها في وفرة العمران واتساع الأحوال. والملك المُر أنجب أربعة. ثلاثة ذكور وأنثى. الذكور هم السُمَيِّد وهو مُكَوِّن عائلة السمايدة. ثم جَربال الذي أنشأ عائلة الجرابلة. وحافظ أبو الحوافظ. أما الأنثى، فهي نورة وأبنائها هم النوارنة. وهي في الترتيب بعد السُمَيِّد. لكن لكونها أنثى فهي تعتبر الأخيرة. ونقطة ضعف سلالة نورة، أن جدتهم امرأة وليس رجلًا مثل بقية الثلاثة! فسلالة الأبناء الذكور حتى الآن يعايرون النوارنة، بأن كبيرهم امرأة! وهذه نقيصة في مملكتنا، حتى وإن كانت النساء في مملكتنا قد خلع معظمهن النقاب ونحَّين الحجاب، وصرن مكشوفات الوجه والذراعين، فمازلنا نحن النسوة تحت صلف الذكور وجبروتهم. لذا فالعائلات الثلاث ومعهم غالبية الرعايا، متوافقون على أن النوارنة ليس من حقهم المطالبة بتاج المملكة! حكاية العائلات الأربع وصراعهم البيني والأحقاد التي توالدت وما زالت تتوالد، حكاية طويلة طويلة طويلة، إن حكيتها لك بتفاصيلها فستأخذ منا ليلتنا هذه وعدّة ليالٍ أخرى. فلنكن معًا ونترك حكاية تلك العائلات لتعرفها في وقت لاحق.

(4)

سمع شكّور من الأميرة ذات الرِّفعة، حكايات العائلات الأربع، ولم يتعجب من استبعاد عائلة النوارنة من تولي المُلك. لكنهما أعجبا بتصرف النوارنة الذكي. فالنوارنة عوضت ضعفها الأنثوي بالتركيز على المال والجمال، والمال لا يأتي إلا بالعلم، والعلم والمال لا يأتيان سوى بالذكاء، فعليكم اختيار مكمن بذوركم، تزوجوا من الأذكياء الجميلين والجميلات، حتى لو كانوا وكنّ من خارج المملكة، أو حتى من عامة الناس الواغش. سينسى الناس الأصل حين يبرق الذهب أمام أعينهم، وتستولي فتنة الجمال على لبهم. هكذا نصحتهم الجدة نورة. وهكذا فعلوا ويفعلون. صار الربح عندهم فوق الحق. فوق الناس. وفوق المملكة. يركزون على العلم ولا يتزوجون إلا من النساء القويات الجميلات جدًّا والشباب المبهر بوسامته. هذا دستور النوارنة في الانتقام من العائلات المنافسة الثلاث، ويراهنون على المستقبل لا الحاضر. فالعرش والتاج بعيدان عن حلمهم حتى الآن. وما فُرض عليهم من الابتعاد عن التنافس للاستحواذ على العرش، جعلوه فائدة، إبعادهم عن الحروب البينية بين العائلات. وفر عليهم قتلى بالعشرات واستنزاف أموال طائلة كما حدث للعائلات الثلاث الأخرى.

النوارنة صاروا الأكثر عددًا والأغنى في العائلات الرئيسية. وبعدهم المظهري هذا لا يمنع من بعض

الألاعيب حين يمالئون عائلة ضد عائلة ثانية، ثم يعودون مع الثانية ضد الأولى. فديدنهم هو المصلحة. لذا فأبناء وبنات النوارنة من أهم الدارسين لعلوم الحساب والفلك وأصقاع العالم والفقه والتطبيب. وعن طريق علومهم وذكائهم وجمالهم صاروا هم الأغنى حتى الآن. ولم يبلغ أحد غناهم من العائلات الأخرى سوى الأميرة مرمرة.

بعد الملك المُر مؤسس المملكة، تربع ابنه الأكبر السُمَيِّد على كرسي العرش. والسُمَيِّد بعده ابنه ثم ابنه. ومن عهد الملك السابع في سلالة السمايدة، بدأت سلالات العائلات المنافسة الثلاثة، في تدبير المكائد وإشعال الحرائق لإسقاط العرش من السمايدة، خاصة أن كل عائلة لها جيشها الخاص، وإن كانت العائلة المالكة هي الأقوى، فبجانب جيشها الخاص، فهي تمتلك جيش المملكة وشرطتها وبصاصيها ولهم سطوة على شيوخها. حدثت بالفعل متواليات من المعارك والانقلابات الفاشلة، أسالت دماء غزيرة من العائلات الثلاث ومن أتباعهم من أفراد الرعية، الذين اشتركوا في القتال مرغمين وسالت دماؤهم وليس لهم في المُلك أو الثروة شيء. والوكسة النكسة أساسًا تقع على سكان مدينة القباب. فالمعارك تتفرع من القصور ومن معسكرات الجنود لتصل لقلب المدينة، فتدوس جيوش المتقاتلين على العامة، وتحطم كل ما يعترضها من منصات البائعين، ويلوذ الناس لبيوتهم أيامًا خائفين، فلا

يجدون ماءً، فالسقائون في منازلهم مرعوبون، ولا يجدون خبزًا، فالأفران مغلقة. وكثيرًا ما يختبئ بعض الجنود في البيوت فيهاجمهم مطاردوهم، فيقتلوا معهم عددًا من سكان البيت بما فيهم من نساء وأطفال. وبيوت تحرق فتصل النار لجوانب من الأسواق. وهذه الابتلاءات لا تنحصر في عاصمة المملكة فقط، بل تدور في أرجاء المملكة كلها، خاصة في الولايتين.. ولاية النهر الخامس لتواجد جبل بالغ الوعورة، والذي أُطلق عليه جبل الصد. وولاية المستنقعات، التي تستغل تلك المستنقعات بتفريعاتها في ملاعبة جنود المملكة، ما يشجع الولايتين على إشعال الاضطرابات والفورات.

النوارنة لم ولن تقف على الحياد، كانت تتدخل بأموالها وأتباعها مع عائلة السمايدة المالكة تارة، وتارة مع الجرابلة وتارة ثالثة مع الحوافظ. النوارنة عُرفوا بالمكر والخداع. ولقوتهم فالعائلات الثلاث تعمل كل منها للتقرب منهم لتكسبهم في صفها، أو على الأقل تتقي شرهم.

وأخيرًا عائلة الجرابلة أشعلت معركة ناجحة، وأسقطت عائلة السمايدة من العرش، وتربعت على كرسي العرش لسنوات طالت. الجرابلة كانوا يخشون هبَّة من السمايدة وخباثة من النوارنة، لكن العائلة التي تحركت بانقلاب كانت المفاجأة.. عائلة الحوافظ. معارك اشتعلت في منطقة القصور وفي السوق الكبيرة وفي ساحة الفروسية المطلة على هضبة النهر، وفوق الجسور

الرابضة بين ضفتي النهر، الكفتين متعادلتين مما أوقع خسائر كبيرة فيهما معًا. الحوافظ كادوا ينجحون وقاربوا دخول القصر الملكي، وفي النهاية أبلى الحرس الملكي الأحمر والأزرق بلاءً حسنًا، وأفشلوا انقلاب الحوافظ على الجرابلة. الجرابلة خسرت من رجالها ومن أموالها الكثير، وتسببت في خسارات هائلة للمملكة، والرعية الغلبانة كانت خسائرها هائلة، خاصة أنهم ليسوا بالغنى الذي به العائلات الأربع، فلا يستطيعون تعويض خسائرهم المؤلمة، فتزيد المرارة في نفوسهم ليومٍ ما يثورون فيه، لا أحد يعلم متى هذا اليوم الموعود؟

تولى الملك عاصم جَربال، وكان مهزارًا سكيرًا، معظم أوقاته وأسعدها، تواجده في أحضان الغواني والجواري وتجرع الخمور. كل ليلة ينثر على المنافقين من حوله الأموال وصكوك الأراضي، حتى أوشكت خزانة المملكة على الإفلاس. الرعية أطلقت عليه لقب الفاسق. البصاصون أبلغوا وزيره بتردي وضعه عند شعبه. الوزير أبلغ الملك المنفلت، فلم يهمه ولم يتعلم من انقلاب الحوافظ الذين كادوا يستولون على العرش. كرهته قيادات جيشه خاصة حرسه الملكي بفرعيه الأحمر والأزرق. هنا جاءت فرصة للسمايدة لينقلبوا على الجرابلة، وأشعلوا معارك قبرت فيها نفوس، واحترقت فيها أموال لا تُحصى، وكان من القتلى الملك عاصم جَربال الذي مات وهو سكران. وانتصر السمايدة وانتزعوا العرش مرة ثانية ليكون في حوزتهم.

بعد انتقال العرش للسمايدة للمرة الثانية، تغيرت أحوال العائلات الأربع. دماء ونيران أحقاد بين الجرابلة والسمايدة، دماء ونيران وأحقاد مثلها، بين الجرابلة وبين الحوافظ. وبقيت النوارنة في أمان من إسالة دمائها وضياع أموالها.

مرت سنوات والسمايدة على عرش المملكة. ملك بعد ملك حتى أتى ملك طال عمره، لكنه لم ينجب سوى ثلاثة ذكور، أولهم مات بعد أن تم فطامه بشهر. والثاني هو نفعي. والثالث نزل من بطن أمه ميتًا. لذا كان العرش لنفعي، ونفعي لم يجد له إخوة يقوونه ضد المنافسين. وربما عدم وجود إخوة كان فائدة له، فكثيرًا ما يكون العرش مهددًا من ذوي القربى، أكثر من تهديده من البُعداء.

تولى الملك نفعي الحكم. وضع التاج على عمامة حمراء، اتفق على حلف مع النوارنة ضد الجرابلة والحوافظ، ليتقوى بذكاء النوارنة ومكرها ومالها، وهي تستفيد من عرشه في امتلاك مساحات من الأراضي، وتيسيرات خاصة لتجارتهم وباقي أعمالهم، فتمددت النوارنة في كل أصقاع المملكة. ومن بنود التحالف بين العائلتين، بند أول هو الأهم.. الزواج المختلط بين شباب وشابات العائلتين، وبهذا يكون ميراث العرش يحوي السلالتين. فإن يكن الملك من السمايدة، فإن مَن بعده سيكون الملك اسمًا من السمايدة، لكن دمًا ستكون الذرية من العائلتين وستنتمي للعائلتين.. السمايدة

والنوارنة. وبالطبع لن يستكفي النوارنة بهذا، بل سيعملون على أنه يومًا ما يكون الملك من النوارنة أساسًا.

تزوج الملك نفعي من عائلة النوارنة، بناء على هذا الاتفاق، وتمت زيجات مختلطة بين شباب وشابات العائلتين، وإن كانت ليست زيجات ذات أهمية كبيرة. فالأهمية الأساسية فيما تم من زواج الملك من النوارنة، وفي المستقبل يكون الزواج المشترك في الأميرين ابني نفعي وهما عِلوِي وسِلْوِي، ثم ابنتيه جوهرة ومرمرة.

دهاء القدر بسخرياته لعب بعائلة الملك نفعي. بالطبع كملك وكأب، كان تركيزه العملي في شئون المملكة على أولاده الذكور. أما في شئون عائلته، فكان يدلل ابنتيه جوهرة والصغرى مرمرة دلالًا، ويغمرهما حبًا وعطفًا، والابنتان بهما من الطيبة والشفقة الكثير. جوهرة الكبرى حين أحست بالتوترات التي تحدث في القصر، وأخبار المؤامرات والدماء المسفوكة، صارحت أباها لتعرف السبب، لم يستطع إقناعها بأن أمور الحياة هكذا. كوكبة من الحرس الملكي حول حصانها وحصان الجارية التي ترافقها. قاموا بجولة في أنحاء المدينة، ذهبوا بها لمنطقة القصور المرفهين، لم تستكف، أمرت فأطاعوا رغمًا عن أنوفهم. ذهبوا بها حيث أماكن سكنى الرعية البسطاء. صُدِمت من الشوارع والبيوت. فهي ليست كالقصور والحدائق الغنّاء التي تعيش فيها! تألمت للبيوت الفقيرة والناس الفقراء. كل مَن يشاهدون

موكبها من الرعية، ينحنون لها، فواضح أنها من العائلة المالكة. بعض النظرات تحمل الدهشة والاستغراب، لكن الكثير من النظرات تحمل الضيق والغضب. عادت حزينة. تكلمت مع أمها عن حال الرعية الصعب، وأن هذا الهوان فيهم مسئولية أبيها الملك. أبلغت الأم الأب، فازداد حيرة مع ابنته التي تشفق على الرعية وعلى العبيد والجواري، وعلى الخدم العاملين في القصر. بعد شهور حادثتهم جوهرة عن حال العبيد والجواري، ولماذا هم عبيد ولماذا نحن أحرار. قالا إن تلك الفتاة في طريقها للجنون، تعشم الأب وقال لزوجته إن الأيام ستضع ابنتهما في الواقع المر.

أيام قليلة وطلبت جوهرة أن تزور الولاية السادسة، ولاية البحر، تريد رؤية البحر الذي سمعت عنه. ولاية البحر أغنى الولايات وتكاد تنافس الولاية الأولى بعاصمتها مدينة القباب. أرسلها أبوها مع وفد كبير وحرس كثيف. اهتم بها هناك أخوالها النوارنة، فهم المسيطرون على التجارة البحرية. بُهرت بالأنهار الستة التي تتلاقى وهي تصب في البحر. شغفت حبًا بالبحر المالح الذي وقفت على شاطئه، ولم ترَ الضفة الأخرى منه. صعدت على مركب من المراكب. متسعة عالية ضخمة عميقة، الأشرعة شاسعة. نظرت للأفق البعيد الغامض. رأت بعض البحارة والتجار الأجانب. بياضهم ناصع، لغتهم مختلفة، وجمالهم مختلف. مشاعرها طفولية حالمة. طلبت فاستجابوا لها، فأمضت ليلة كاملة

على المركب. تمنت أن تتمكن من زيارة بلدانهم لتعايشهم، خاصة تلك التي فيها أمطار وجبال ثلجية. متشوقة لمعرفة المزيد من البشر والبلدان.

حكت جوهرة لأختها مرمرة، عن أحوال الرعية المساكين، وعن العبيد المظلومين. وحكت عن رحلتها للبحر الأزرق اللازوردي، وأمواجه العالية ذات الزبد الأبيض. تعيد وتزيد عن مدى المتعة التي نالتها منها. الذي أحبطها.. أنها كانت تتمنى أن تسافر على مركب من المراكب، لتسيح في بلاد الله خلق الله.

ابنه الذكر البكري هو عِلوِي. عِلوِي شاب عادي الجسد عادي الملامح، يميل للسمنة، بطيء الفهم والحركة، يميل للرخاوة والطراوة. لا يمتلك شجاعة ولا دهاء يجب أن يكونا من أساسيات ملك على عرش مملكة الأنهار السبعة. ثم يأتي ابنه الثاني سِلْوِي. فإذا به المثال في الجمال الرجولي والعقل الذكي، والضمير الخالي من الخبث، وإن كانت به أحيانًا اندفاعة غضب تتملكه ولا يتملكها. سِلْوِي أحب اللعب بالسيوف والرماح والأقواس منذ طفولته. الملك نفعي شجعه منذ طفولته أن يعيش فترات في معسكر الجيش، رغم اعتراض وخشية أمه. فتدرب سِلْوِي في معسكر الجيش طفلًا وصبيًا ثم شابًا. في تواضع يأكل وينام مع الجنود حتى صار منهم رغم أنه أمير. صار فارسًا عظيمًا يفخر به الجيش لأنه منهم، كما يفخر به الملك نفعي لأنه ابنه. صار الأمير الفارس سِلْوِي هو ممثل الجيش عند الملك، يحل مشاكلهم

ويأتي بحقوقهم. يحبهم ويحبونه. وبجانب امتلاك الأمير سِلْوِي للقوة والشجاعة والفروسية، فبه خواص نُبل وسمو مشهور بهما. فكان نبله وسموه مع فروسيته، هم اعتماده كمرافق للرسل كبار السن، الذين يذهبون للولايات التي تحدث بها مشاكل كبرى. فكان في التفاوض وكأنه يمثل الرعية في تلك الولايات، وليس هو من ضمن الوفد الممثلين للملك! يساند الرعية في مطالبها ويشفق عليهم من المكوس الظالمة. الملك نفعي لم يكسر بخاطر ابنه، فكان يوافق على ما يقرره ابنه، وفهم أن ما يفعله الأمير سِلْوِي بمواقفه مع الرعية، في صالح تثبيت عرش السمايدة.

الأمير سِلْوِي كما اكتسب حب الجيش جنودًا وقيادات، اكتسب حب الرعية وصار عندها هو الأمير المحبوب. ومع مرور السنوات يستحوذ سِلْوِي على تقدير العائلة والحاشية. وسِلْوِي بوسامته وفروسيته يخطف قلوب العذارى والمجربات، سواء من علية القوم، أو من الرعية الغلابة. وبهذا اتضح أن الأمير عِلوِي وإن صار يومًا ما ملك البلاد، فلن تكون مكانته في قيمة ومكانة وبهاء سِلْوِي. فأين عِلوِي الثري من سِلْوِي الثريا.

الملك نفعي حسرته عميقة، ينظر لولديه الذكرين في حيرة، يسأل ربه قائلًا:

- لماذا لم تجعل سِلْوِي هو الأكبر؟ عِلوِي لن يستطيع تثبيت هيبة المُلك، فهو ليس بذي هيبة. ولا يمتلك المكر لمحاججة الدهاة، ولا يمتلك الجرأة لمقارعة الدواهي.

الجيل الصاعد من العائلات الأربع، الذين دخلوا مرحلة البلوغ، يعرفون بعضهم ويتقابلون في المناسبات الكبرى مثل الأعياد والاحتفالات، لحاهم نبتت منذ سنوات وشواربهم طالت. والفتيات وضحت نهودهن واستدارات مؤخراتهن. الأقرب لبعضهم هم السمايدة والنوارنة للنسب والحلف الذي بينهما، ثم الحوافظ، والأبعد هم جيل الجرابلة. أكبر هذا الجيل عمرًا هو جَربال. يافع قوي وسيم بالغ الجسامة، ولأن حمل عائلته وحلمها مُلقى على كتفيه، فهو بالغ الجدية لم يستمتع بطفولته والآن لا يستمتع بمطلع شبابه. فبصفته ابن كبير عائلة الجرابلة، وبما وهبه الله من حسن مظهر وعمق منطق، تُعوّل عليه الجرابلة أن يعلو بها، ويعيد لها هيبتها التي خفتت كثيرًا، بل ربما يكون هو الصاعد بها لعرش المملكة، بعد أن يزيحوا السمايدة وينتقموا مما فعلوه بهم في معركتهم الأخيرة. ثم عِلوِي الابن الأكبر للملك نفعي وولي عهده. أمير باهت في كل أموره. لا يمتلك أي ميزة يفاخر بها أو يعجب بها مَن حوله، فضلًا عن أن تُعجب به الفتيات. بعده بسنتين هو الأمير سِلْوِي الذي لا ينافسه في الوسامة والفروسية والذكاء سوى جَربال الذي يكبره بسنتين. وفي مناسبات الفروسية، يحدث تحدٍّ مستتر بين الشاب جَربال ابن أهم رجل في الجرابلة، وبين الشاب الأمير سِلْوِي بن نفعي. مَن يراقبهما مع غيرهما لا يستطيع الجزم إن تبارزا فمَن منهما الذي سينتصر؟

أما لوز، ابن أهم رجل في عائلة النوارنة، والذي سيكون مستقبلًا هو كبير عائلته، فهو في جمال وجه مثل توءمته فوز. ذكاؤه أساسه خبث وتآمر. طموحه غاية في الشراهة، يطمح في الجلوس على عرش مملكة الأنهار السبعة! لوز لم يصرح بطموحه الخطير هذا سوى لأمه، أخطأ فقد كان تحت تأثير قارورة من الخمر. غضبت منه أمه، معنى طموحه أنه سيحارب توءمته فوز التي ستكون هي الملكة بعد زواجها من ولي العهد عِلوِي. طلب لوز الصفح من أمه، وأكد لها أنه قال هذا تحت تأثير الخمر، وترجاها ألا تفشي سره لا لأبيه ولا لتوءمته، وأقسم لها ألا يفكر مرة أخرى في العرش. وكان كاذبًا كعادته.

فوز توءم لوز، توءم متشابه في الصورة وفي اللب. فوز لا تقل عن توءمها لوز ذكاءً وطموحًا، تقل عنه دهاءً وتزيد عليه غرورًا بجمالها. ولغرورها الفادح، تتوقع فوز أن يسعى إليها العرش، بدون أن تسعى هي إليه. لا تنتابها أي سحابة قلق، أن يكون العرش لغيرها، فرسوخ قرار زواجها من الأمير عِلوِي ولي العهد، رسوخ جبال. فالعائلتان السمايدة والنوارنة قد اتفقوا على هذه الزيجة وأعلنوها. تلك الزيجة المرتقبة، هي من أساسيات الحلف الذي قام بينهما.

على مرتفع ساحة الفروسية الرملية الواسعة، والتي تطل على منحنى النهر، يقام احتفال فيض النهر وهو احتفال كبير مبهج، يجمع بين الملك نفعي والأمراء

والعائلات الأربع وعليَّة الناس، وبحضور الرعية. فوز وقد ودّعت الطفولة وبدأت في النضج الجسدي والعاطفي، وأخذ قلبها يتفتح كزهرة ترنو للشمس. وأحاسيسها تبدّلت من سذاجة طفلة لعواطف أنثى. فوز فتاة صغيرة جميلة متطلعة. تجلس في المنصة الملكية، تتصدر فتيات العائلات الأربع وأغنياء المملكة، وأمامهم ساحة الاستعراضات وخلف الساحة تزاحم مئات ومئات المشاهدين. بدأت الاحتفالات بصعود عدد من الشعراء وكل منهم يتقدم ليلقي قصيدة مدح في الملك العظيم نفعي، ويعدد مناقبه. ويهبط من المنصة ليتقدم غيره مبتسمًا منشرحًا في مبالغة نفاق ليلقي قصيدة، هي نفس الكذب المتكرر وهكذا. وبالطبع كل منهم سينال كيسًا من الذهب. بعد الشعر السخيف الممل، دور الاستعراضات يتقدمها الأميران عِلوِي وسِلْوِي. كل منهما بالملابس الحربية على جواد قوي رشيق. على الرأس بيضة معدنية لامعة، وعلى الجسد قميص حديد، ويمسك بحربته، وسيفه في جرابه. ورغم أن الأخوين متوازيين فإن الذي أخذ الأنظار والإعجاب والثقة، هو الأخ الأصغر سِلْوِي. هو الأقوى والأجمل. منه تشع هيبة تصل للرجال وفتنة تحوي النساء. التصفيق والزغاريد من ناحية الرعية. ثم هتافات الشباب والشابات باسم سِلْوِي. وكأن لا أحد بجانبه. وكأن الملك لم ينجب سوى سِلْوِي. وهنا حدث الانقلاب الكبير في قلب وعقل فوز. رغمًا عن كل ما كانت تعيشه من حقائق تظنها ومستقبل

مستقر لها كزوجة لعِلوِي. إذا بها تفتتن بسِلْوِي وتعشقه في هذه اللحظات السريعة.

بعد كامل استعراضات الحرس الملكي والجيش، عاد الأمير سِلْوِي للساحة فأدى حركات الفروسية المبهرة على حصانه. ثم رميه للرمح والسهام والضرب بالسيف. ثم مبارزاته الاستعراضية مع عدد من الجنود. ولم يجارِ الأمير سِلْوِي سوى الفارس الجسيم جَربال، وبعض الفرسان الشباب من عامة الرعية وأشهرهم الفارسان العظيمان حميدو شامة، والشاب الأبيض الأصفر الساموراي، القادم من جزر اليابان البعيدة. أما عِلوِي فكان بائخًا خائبًا.

ومنذ هذا اليوم، لم تبرأ فوز أبدًا من عشق سِلْوِي، صار هو رجلها المبتغى. هو وحده الذي تتمنى احتضانه، لم تنسَ طموحها في العرش، تتمنى أن تأتي مصيبة ما فتقضي على عِلوِي ليكون سِلْوِي هو الملك، ويتزوجها فتتملك العرش والحبيب.

ولم تكن فوز هي الوحيدة التي عشقت الأمير سِلْوِي، فسِلْوِي هو معبود فتيات وسيدات المملكة، ممن سمعن عن وسامته وفروسيته وسمو أخلاقه، وإن لم يرينه رأي العين. ثم إنه فارس أمير. ولطيبته وخُلقه لم يكُ زئر نساء ولم يكُ نحلة تثب على كل حدائق النساء اللاتي عشقنه.

ومن أهم الفتيات اللاتي عشقن سِلْوِي، فتاة من عمر فوز. فتاة بالغة الأهمية مثل اسمها بالغ الأهمية. اسمها

ذات الرِّفعة ابنة عائلة الحوافظ. فتنتها تتفجر في طيبتها وتواضعها وخلوها من الخباثة. جسدها هادئ وطبعها متزن وعواطفها رقيقة يرتاح معها الشباب والشابات. ولهذا وقع في حبها الأمير سِلْوِي. ولم يلتفت لمحاولات فوز في التقرب منه بإصرار. فوز في البدايات كانت تعامل الأمير سِلْوِي متباهية بجمالها ومكانتها ومالها، وأنها خطيبة وستكون زوجة أخيه الأكبر. تعامله بتعالٍ وتكبر بلسان حالها.. أنا الأجمل في كل فتيات العائلات الأربع. ولن تستغني عائلتك عن عائلتي. فأنا بكل المعطيات ملكة المملكة المقبلة، والجالسة على العرش، فيجب عليك أن تكون صاغرًا لي. حتى سقطت في افتتانها به يوم احتفال فيض النهر. فتبين لها أن سِلْوِي لا يعيرها أي اهتمام. ففيرت من معاملتها له، صارت تعامله بلطف مبالغ فيه، وتقدير زائف. ولم تنجح.

ميل سِلْوِي لذات الرِّفعة، أثار جنون الغيرة في جوف فوز، وملأها حقدًا عليهما معًا. فوز عقلها لا يستوعب.. كيف يفضل سِلْوِي مَن هي أقل جمالًا وأدنى مكانة. كيف لهذا الأهوج أن يقع في الإعجاب بفتاة من الحوافظ، رغم أن الاتفاقية بين عائلته السمايدة وعائلتها النوارنة، أن يتزوجوا من بعضهم البعض؟ لشدّة غرورها ظنت أن ميل سِلْوِي لذات الرِّفعة، عمل سحري أوقع بسِلْوِي في شباكها!

الأمير عِلوِي في غضب مكتوم. فمن صغره يعلم أن زوجته ستكون الفتاة الجميلة فوز، وهو بذلك فخور،

فوز هي أهم فتاة في المملكة جمالًا ومالًا. فلماذا تبتعد عنه ولا تأبه به ولا تعطيه الاهتمام ولا الاحترام الواجبين عليها تجاهه. أليس هو الأمير ولي العهد وهو زوج المستقبل؟ وهذا الزواج هو أهم زواج بالنسبة لمستقبل العائلتين؟ وما زاده غضبًا كاويًا، أنه وضح له ولغيره أن فوز في عشق صار شبه علني لأخيه سِلْوِي! أرضاه وطمأنه أن سِلْوِي لا يهتم بفوز، ولن يعمل على انتزاعها منه، ولم يستمر رضاء علوي عن أخيه طويلًا، فإن أخاه الأصغر منه دائمًا هو الأول عند والديهما، وعند بقية العائلة والحاشية، بل وحتى الرعية وأغلبهم لم يروا لا سِلْوِي ولا عِلوِي، لكنهم يحبون ويفاخرون بأميرهم سِلْوِي! كل هذا ثم تتراخى فوز عن الاهتمام به وتنجرف هاوية في حب سِلْوِي؟ إنها ضربة مطرقة تقع على يافوخه، بعد ضربات القادوم المتواليات في السنوات الماضية.

ما أشعل القلق في عائلة النوارنة، فشل كل محاولات ابنهم الأهم وهو لوز الخبيث، في جذب قلب وعقل الفتاة جوهرة بنت الملك نفعي، والثالثة في العمر بعد عِلوِي وسِلْوِي وقبل أختهم الأصغر مرمرة. جوهرة جاءها الحيض منذ عام فقط، بالكاد خرجت من طور الطفولة. رفضت تخصيص جارية لها، أصرت على الاستكفاء بالمرضعة، وما زالت تحب اللعب والانطلاق في حدائق القصر وركوب الخيول القصيرة. والاستفراد بالكتب التي تقتنيها، وكل ما ينغلق على فهمها تسأل

فيه معلمها الذي يأتي لتعليمها يوميًا. يقول والداها إن نظرتها للدنيا ستتغير حين تدخل مرحلة البلوغ، ومع اختلاطها في زمرة الفتيات في المناسبات الاحتفالية. وكبرت جوهرة عامًا وتعمقت في القراءة، وشاركت في الاحتفالات بحس وعقل الطفلة الكبيرة، لكنها مطلقًا لم تسترح لمقاربات لوز منها، أكبر منها بسنوات. لم تسترعِ انتباهها حدّة ذكائه وسعة فهمه في أمور التجارة والمال عمومًا، فهو لا يقرأ لا في الشعر ولا في أحداث التاريخ ولا في الفلك ولا في أي شيء. لا ينتبه لوز لجهله، ولم تنتبه جوهرة مطلقًا لجمال وجهه وأناقته المبالغ بها، خاصة ثقل العطر الذي يتعطر به، والدهونات التي يدهن بها وجهه وشعره وذقنه وشاربه. بل ربما تحذلق لوز في الحديث وفي الحركات وفي الملبس، كل هذا أبعد نفسها عن نفس لوز. ومع إصرار لوز على ملازمة جوهرة، وإلحاحه في الحديث معها، مقاطعًا اندماجها مع الفتيات من سنها ومن هن أكبر منها قليلًا. اضطرت إلى أن تسخر منه متسائلة:

- ما رأيك؟

- فيمَ؟

- في أحقية العبيد أن يكونوا أحرارًا؟

الدهشة احتلت معالم وجه لوز. لم يستطع الإجابة لأنه لم يستوعب واقعية السؤال. رمته جوهرة بسؤالٍ ثانٍ:

- أنت لا تقرأ ولا تهمك القراءة، لا بأس، فأغلب الناس لا يطيقون القراءة. لكن الشباب مثلك يمتطون خيولهم ويمتعوننا بألعاب الفرسان، لِمَ أنت قابع وسط البنات يا لوز؟ أم تخشى ركوب الخيل ولا تستطيع اللعب بالسيف والرمح؟

غضب لوز ودافع عن نفسه بكبرياء مجروحة..

- صغر سنك يمنعك من فهم أمور الدنيا. لو تعلمين لكنتِ علمتِ أهميتي وقدراتي.

تأكد الملك نفعي من التقارب الواضح بين ابنه سِلْوِي وذات الرِّفعة ابنة الحوافظ. حادثه هو شخصيًا مبينًا أهمية الحلف الذي بين السمايدة والنوارنة، وأنه وهو الملك نفعي تزوج من أمه ابنة النوارنة. وأن على سِلْوِي أن يتزوج منهم مَن تعجبه ويبتعد عن فتيات الحوافظ وغير الحوافظ، استمع سِلْوِي لأبيه في أدب، لكن ما في قلبه لم يهتز، وما في عقله لم يتخلخل. لم يستجب لطلب أبيه، وبعده لم يرضخ لرجاءات أمه التي حاولت معه كثيرًا أن يتزوج من النوارنة.

الملك نفعي أسرع بزواج ابنه الكبير من فوز. وكان فرحهما باذخًا أولم فيه لكل الرعية وأضاء مدينة القباب بالأنوار لسبع ليالٍ. وجاء بكل المشهورين من مغنيين ومغنيات وراقصين وراقصات وعازفين وعازفات. ورفض ساحة السوق الكبير المواجه للجامع الكبير، واختار ساحة الفروسية، لتتم استعراضات الجيش والحرس الملكي، بمشاركة حضور الرعية. مع وفرة من

الطعام والشراب للجميع. حتى ضُرب بهذا العرس المثل في الأبهة والبذخ. العروس الجميلة فوز، لم تكن تبغي الاقتران بعِلوِي حتى لو كان هو الملك القادم بعد أبيه نفعي، وتكون هي الملكة. وحتى لو كانت ليالي عرسها مشهودة في تاريخ المملكة. قلبها عند سِلْوِي. وتمنت أن يكون جسدها في أحضان سِلْوِي. عِلوِي أحس بفتورها رغم ابتساماتها المستمرة ودلالها بجمالها، ونظراتها المصطنعة له. ومضت ليلة العرس الأساسية وكان جسد الجميلة له. وفي صباح اليوم التالي كانت تعطيه ظهرها. ولما شب مستندًا على كوعه لينظر في وجه زوجته، وجد وجهًا تعتريه الحسرة وتنحدر عليه دمعتان. فكانت نظرة الحسرة هذه، تلفحه بنارها طوال سنوات حياته، والدمعتان جدولان يكويان قلبه حتى الممات.

وضع الملك نفعي شرطًا أساسيًا لإتمام زواج ابنه الثاني سِلْوِي من ابنة الحوافظ. أن يكون حفل الزفاف في قصر الحوافظ ولليلة واحدة، وبدون بهرجة وأنوار. ثم يأتي سِلْوِي بعروسه في هدوء إلى جناحه في قصر الزمردة، المجاور لجناح الأمير عِلوِي. الحوافظ رفضت، لكن ذات الرِّفعة وافقت وضغطت على عائلتها، وشرحت لهم نفسية الملك واضطراره لوضع هذه الشروط. هو لا يريد زيادة حسرة ابنه البكري عِلوِي. وتم الزفاف في هدوء غريب. والأمر الذي كان منعشًا للعروسين، أن قيادات الجيش وعددًا كبيرًا من الجنود، ساروا في

موكب العروسين من قصر الحوافظ لقصر الملك، مع ضربات الطبول ونفخ الأبواق. وكان في مقدمة القيادات. الساموراي وحميدو شامة، هما الوحيدان من القيادات اللذان دخلا جناح الأمير سِلْوِي. فصارا شقيقين لزوجته ذات الرِّفعة. والغريب أن الساموراي هو من الندرة في المملكة الذين يحلقون ذقونهم وشواربهم!

ورغم شماتة فوز في هذا العرس الفاتر، إلا أنها في منتصف ليلة زفاف سِلْوِي على ذات الرِّفعة، وهي تظن أن زوجها عِلوِي ما زال متواجدًا في تفصيلات العرس، وقفت في شرفة جناحها تتحسر وتنتحب. حبيبها في أحضانه امرأة غيرها. منافستها ذات الرِّفعة في أحضان مَن تحبه. صرخت فوز صرخة مفزعة، وشقت ثوبها من العنق لما تحت الصرة. لطمت خديها وبكت بكاءً مرًّا، ولم تكن تتوقع أن زوجها قد عاد سريعًا، بعدما هنأ أخاه سِلْوِي تهنئة مظهرية، تهنئة خارجها فرحة وداخلها صرخة. عاد الأمير عِلوِي للقصر، وصعد لجناحه ودخل حجرة نومه، فشاهدها وهي تتحسر على فقدها حبيبها سِلْوِي الذي يحتضن الآن غيرها. سمعها زوجها عِلوِي تبكي وتنتحب وتلطم خديها.

تزوج لوز من فتاة من السمايدة، لكنها ليست من بنات الملك كما كان يطمح، ليست جوهرة التي كان يخطط بها للعُلا والسؤدد على عرش المملكة. وبعد عدة سنوات تزوج فتاة أخرى من السمايدة، والسبب أن الزوجة الأولى أنجبت طفلًا ذكرًا واحدًا ثم فتاتين ولم تأتِ له

بذكر ثانٍ وثالث، فالذكور هم مَن سيساندونه في تولي العرش، وإن لم يكن، يكون واحد منهم هو الملك. القدر سخر من لوز، فقد أنجبت له الزوجة الثانية فتاتين أيضًا، فكرهها واتهمها بأنها عاقر، طالما لم تنجب له ذكرًا، فهي عاقرا! وهذا ما جعل لوز يركز على أمرين.. الدسائس والخبائث حتى يهدم السمايدة وغيرها، ليكون بمعاونة النوارنة هو الملك، أو ابنه على الأقل. والتركيز الثاني نهمه على الطعام وتجرع الخمور.

تأكد الملك نفعي أن ابنه عِلوِي لا يصلح لتولي العرش. وأن ابنه الثاني هو الأصلح والأقوى والأذكى ليحافظ على العرش له ولنسله ولعائلته. استشار الملك نفعي حاشيته وعددًا من عائلته رجالًا ونساءً، فتبين له أن ما يوشك على إعلانه هو الصح، وهو الذي سيرضي عائلة السمايدة، فهم يعلمون أن الأمير سِلْوِي، هو الذي يستطيع ملاعبة العائلات المنافسة دهاءً وشجاعة وهيبة، وأن الرعية كلها ستكون موافقة على الأمير سِلْوِي وستعضده في كل أوامره وأفعاله، فحبهم له وافر وثقتهم فيه راسخة. التي اعترضت بشدّة ولم تستطع تغيير رأي الملك، هي زوجته الملكة، فرغم أنها أم الاثنين عِلوِي وسِلْوِي، فقلبها يشفق على الصدمة التي ستضرب قلب ونفس ابنها البكري عِلوِي. لكن الملك حذرها من أن تبوح بهذا السر حتى لولديها. الملك نفعي ينتظر فرصة ما تمكنه من تنفيذ ما يراه صحيحًا، ينتظر يومًا تؤكد أحداثه لابنه عِلوِي أن مصلحة العائلة

والمملكة، بل مصلحته الشخصية هو تنحيته عن ولاية العهد.

رغم كتمان ما يخطط له الملك، انفلتت طراطيش أحاديث، بما ينويه في تنصيب ابنه الثاني سِلْوِي في ولاية العهد. ووصلت الطراطيش للنوارنة. لوز كاد يتوقف قلبه عن الخفقان. فمعنى جلوس الأمير سِلْوِي على العرش، أن ذرية الملك المرشحة للعرش، ستكون من السمايدة والحوافظ. إذن النوارنة وهو على رأسهم، سيكونون في المرتبة الثانية. وطموحه الذي لا يهمد في الجلوس على العرش، ابتعد وتلاشى وضاع تمامًا. إذن عليه الإسراع بتدبير مؤامرات سريعة تبطل تدبير الملك. اشترك مع توءمته فوز في بث الشائعات محاولين التقليل من هيبة ومكانة الأمير سِلْوِي، وأيضًا من مكانة رفيقيه الفارسين حميدو شامة والساموراي، لأن هذين البطلين من أقرب الناس لسِلْوِي، ومن أبغض الناس عند الملك عِلوِي، كما أنهما مكروهان عند جَربال قائد الجيوش. ولا يطيقهما الوزير المتغوِّل الذي خطط ونجح في إبعادهما. فالقضاء على سِلْوِي يحتاج إبعاد حميدو شامة والساموراي.

لوز من خلف ظهر توءمته الملكة فوز، لا يهمد عن التآمر وتلويث نفوس الجرابلة للانقلاب على السمايدة. يطمئن الجرابلة بأنهم في هَبّتهم التالية، النوارنة سيساعدونهم بالمال. وسينجحون في إبعاد العرش عن السمايدة، حتى لو تم قتل الملك وتشريد الملكة. المهم

أن يكون العرش له. وأقسم إنه سيتزوج شابة منهم تكون هي الملكة، وتنجب له ولدًا يحمل دم النوارنة والجرابلة.

لوز شارك في تدبير المؤامرة المحكمة السريعة، ليسقطوا الملك نفعي السُمَيِّد. أحقاد الجرابلة جعلتهم يقعون في هذا الخطأ، خطأ التورط في معركة كبيرة، وهم لم يبرءوا بعد من جراح معاركهم الأخيرة ضد السمايدة، ولم يدركوا جيدًا خباثة النوارنة، النوارنة على لسان لوز النوارني، أعطوهم تأكيدات وأقسموا لهم أقسامًا غليظة إنهم معهم قلبًا وقالبًا. بعد الاتفاق، لوز النوارني مع وفد من العائلة، أبلغوا الملك نفعي السُمَيِّد بهذه المؤامرة، فهكذا هم. خبثاء غير مؤتمنين. والجرابلة لأنهم لم ولن يثقوا في النوارنة الثقة التامة، لم يبلغوهم أن قائد الحرس الملكي الأزرق، مشارك معهم في المؤامرة، ويتبعه العديد من فرقة جنوده الزرقاء. هذا بعدما وعده الجرابلة بأنهم سيرقونه ليكون قائدًا للجيوش بدلًا من القائد العجوز المريض. وسيهبون له قصرًا. الخطة الأساسية أن فرسان الجرابلة وأتباعهم تهاجم معسكر الجنود الذي على أطراف المدينة، وتقتل قائده ويتم تعيين قائد جديد تم الإعداد له، ثم يخرجون بالحشود العسكرية كلها ليهاجموا قصر الزمردة، ولن يستطيع الحرس الملكي مواجهة الجيش. ثم يُقتل الملك ويُعين جَربال ملكًا.

في فجر اليوم الموعود، خرج فرسان الجرابلة وأتباعهم، ولم يتجهوا لمعسكر الجيش كما اتفقوا مع النوارنة، بل مباشرة أغاروا على قصر الزمردة. وعندما هاجموا حرس السور والباب الرئيسي. فوجئ الملك ومَن معه مفاجأة صاعقة، إذ ليس هذا ما توقعوه، فارتدوا ملابس القتال سريعًا، وهبّ أفراد الحرس الملكي لصد الهجوم المفاجئ. وبدلًا من أن ينضموا جميعًا ليواجهوا المهاجمين، إذا بقائد النصف الأزرق يعطي الأمر المفاجئ العجيب.. أن يهاجم جنوده الزرق زملاءهم الحمرا! حجّته أن الحمر وقائدهم خائنين وتابعين لهجوم الجرابلة. ينفذ الزرق الأمر ويهاجمون الحرس الأحمر. تسببت هذه الأكذوبة في خلخلة خطيرة داخل دفاعات القصر، وهذه فرصة للمهاجمين حتى قاربوا مبنى القصر الذي تم إغلاق أبوابه. المعركة داخل القصر تحتدم وقرقعات السيوف والحراب والدروع أصواتها ترن وتصنع صدى عميقًا والدماء تسيل. الملك نفعي والأمير سِلْوِي يقودان المعركة ببسالة ضد الحرس الأزرق وقائدهم. أما الأمير عِلوِي فقد ارتدى لباس القتال لكنه لم يخرج من جناحه، وزوجته فوز اختبأت تحت السرير مرعوبة. جوانب القصر تهتز بصيحات المحاربين وصرخات المطعونين والطاعنين، وتصاعدت أيضًا صرخات الجواري. ويحتدم القتال ولم يتبين بعد مَن الذي سينتصر. سريعًا الأمير سِلْوِي طلب من عبد قريب من العائلة، أن يطلق حمامة

زاجلة تطير لمعسكر الجيش، تطلب برسالتها سرعة نجدة الملك والقصر.

المهاجمون من خارج القصر، رغم أن قائدهم الشاب هو الفارس القوي الشجاع جَربال، لم يستطيعوا تحطيم أي باب، ولم يستطيعوا الوثوب من أعلى السور، فكل مَن يعتليه يتلقى سهمًا يرديه. وكلما طال الوقت توتر المهاجمون والخائنون، فالجيش الأساسي إن أتى، فالويل لهم. وهذا ما كان. قبل أن تشتد الشمس وصل لأسماعهم صهيل الخيل وكأنه زوابع الانتقام، ووقع أرجلها على الأرض دوي رعد يؤكد نهايتهم. هربوا. داخل القصر أدرك قائد الحرس الأحمر المكيدة، فأخذ يصرخ في جنود الحرس الأزرق أنه لم يخن، وأن الخائن هو قائد الحرس الأزرق، صاح بعض من الحرس الأحمر بما يصرخ به قائدهم. توقف الحرس الأزرق عن القتال. العشرة الذين اتفقوا مع قائدهم على الخيانة، تم قتل نصفهم والنصف الآخر أسرعوا هاربين في طرقات القصر التي يعرفونها جيدًا. خرجوا من القصر متجهين لحظيرة الخيول ووثبوا عليها وانطلقوا فارين من الباب الخلفي الصغير.

تلك الموقعة التي كادت تهلك الملك نفعي وعائلته، أخذت أغلب النهار. لم يستكفِ الملك نفعي بالنصر داخل القصر وخارجه، بل أصر على اجتثاث الخونة سواء من الجنود أو من أتباع عائلة الجرابلة المشتركين في الهجوم، ومطاردته ستركز على مَن هربوا من الحرس

الأزرق، فهم الأخطر، هم المكلفون بحمايته من الاغتيال، لا الاشتراك في اغتياله.

قوات متنوعة خرجت من القصر يتصدرها الملك نفعي، وعلى يمينه الأمير سِلْوِي وبجانبه صديقه الساموراي الذي أتى من جزائر اليابان، ثم القائد حميدو شامة. الثلاثة يقال عنهم الثلاثي الأعظم. وعلى يسار الملك، الأمير عِلوِي الذي خرج من جناحه بعد أن اطمأن أن الخيانة فشلت، ولا خطورة على حياته. وبجانب الأمير عِلوِي قائد الحرس الأحمر. وفي منتصف مسيرة هذا الجيش، أمر الملك بأن يتوجه الأمير سِلْوِي ومعه الساموراي وحميدو شامة، على رأس قطاع من الجيش، فيدخلا المدينة من جانب. والملك ومعه الأمير عِلوِي على رأس قطاع من الجيش، يدخلون من جانب آخر. يجب أن يقضوا على المهاجمين المتناثرين هنا وهناك.

ما بعد الغروب، والمعارك في كل مناطق مدينة القباب، مجاميع مجاميع تتقاتل هنا وهناك، وكأنها معارك عصابات ليس لهم رابط ولا ضابط. يتبينون بعضهم بصعوبة. قتل الكثير من الحرس الأزرق والأكثر من أتباع الجرابلة المعروفين. المعارك كالعادة أحدثت وبالًا على الرعية، تحطمت دكاكين وتبعثرت محتوياتها وخُرِّب معظمها. ودخل الليل ولم تُنر مصابيح الدكاكين، استمرت المعارك الصغيرة في الظلام. وقتل زملاء زملاءهم وهم لا يعرفون. بعض المعارك تسربت داخل البيوت التي حاول عدد من الفارين الاختباء داخلها،

فقتل بعض الساكنين المساكين وجرحوا. واشتعل حريق كبير. المتقاتلون ابتعدوا عن ألسنة النار وهم مستمرون في قتل وجرح بعضهم البعض. الرعية المغبونة وحدها تعمل على إطفاء الحريق الذي سيقضي على أملاكهم. الرعية لا تملك سوى الدعاء على جميع المحاربين، وتنتظر يومًا تستطيع التخلص من العائلات الأربع كلها، حتى وهم على درجة من الحب للملك نفعي وابنه الأمير سِلْوِي .

عادت قوات الملك إلى قصر الزمردة والجيش إلى معسكره. الساموراي وحميدو بقيا في القصر، هكذا طلب منهما الأمير سِلْوِي. ففي الصباح الباكر القادم، يكون الهجوم على قصر الجرابلة والقضاء على شوكتهم تمامًا.

في نفس الليلة. الملك نفعي توتره بلغ ذروته مما جرى. لقد كاد العرش يضيع منه، وكادت تلك الخيانة أن تقضي على زوجته وأولاده وعليه شخصيًا، وعلى عائلة السمايدة كلها. قرر الملك نفعي إبعاد كل فرد في الحرس الأزرق عليه شك ولو بسيط. الباقون للحرس الأحمر. بعدها الملك نفعي طلب ولديه في اجتماع خاص. ورفض حضور غيرهما. كان الغضب واضحًا على الملك، وعزيمته على أمر جلل واضحة أيضًا. وفي هذا الاجتماع انهار عِلوِي، وهو يستمع لأبيه يعلن أن ولاية العهد تُسحب منه وتعطى لسِلْوِي.. فأحداث معركة اليوم، بينت وأكدت أن سِلْوِي هو الأجدر، وأن عِلوِي لا

يمتلك أية مقومات ملك منتظر. يكفي بقاؤه في جناحه المغلق، جبنًا عن قتال كاد يتسبب في مقتل والده وجميع العائلة. بكى عِلوِي ولم ينطق. وحاول سِلْوِي الدفاع عن أخيه. فلم يقبل الملك هذا. ولما بين سِلْوِي أنه يحب أخاه عِلوِي ولا يريد تكديره، صاح فيه أبوه الملك:

- هل تظن يا سِلْوِي أنني أحبك أكثر من حبي لِعلوِي؟ بهذا تكون غبيًا. لم أحبك أكثر من ابني البكري مطلقًا وأبدًا. فقلبي معه أكثر منك. أم تظن أنك تشفق على أخيك أكثر من شفقتي على ابني؟ أنا معه أكثر مني معك. لكني.. لكني أفخر بك أكثر وأثق فيك أعمق. فأنت الأجدر. والدليل معركة نهار اليوم. كنت أنت في الدفاع عن القصر أقدر حتى مني أنا الملك. وأين كان عِلوِي؟ في جناحه ينتظر انقشاع الغمّة؟ سِلْوِي.. يجب أن تتقبل قراري بدون مناقشة. وأنت يا عِلوِي. يجب أن تتقبل قراري، وأنا أعلم أن سِلْوِي سيُكِن لك احترامًا ووضعًا لائقًا في القصر وفي المملكة، ستذهب لتدير ولاية النهر السابع وهي عصب تجارتنا وتحتاج لمراقبة. وتيقن أن سِلْوِي لن يتزعزع تقديره لك. أنا أعلم أن سِلْوِي طيب ويحبك.

الأمير عِلوِي الأسى يغمر وجهه، والدموع تنهمر من عينيه بغزارة. يجيب أباه منهنهًا، بأن الشائعات كانت تتطاير بأن هذا التغيير سيتم يومًا ما. وأنه على كل حال موافق على كل ما يقرره ملك البلاد.

انتهى الكلام وغدًا في مثل هذا الوقت سيكون رؤساء العائلات الثلاث، السمايدة والنوارنة والحوافظ، في قاعة العرش، ومعهم القيادات العليا للجيش ليعلن القرار في تواجدهم.

أتت الأم لجناح عِلوِي لتخفف عنه الصدمة. وأهانت زوجته فوز التي حاولت أن تحرضه على رفض القرار وأن يعاند أباه. فوز نكبتها مضاعفة.. أتفقد الحبيب ثم تفقد العرش أيضًا؟ عِلوِي ارتمى على صدر أمه باكيًا. لكنه بين لها أنه راضٍ بقرار والده، فليس في يده حيله، وأنه يحب أخاه سِلْوِي ويعلم أن سِلْوِي لن يظلمه أبدًا.

فجر اليوم التالي. الملك وعلى جانبيه أميريه وكبار قياداته وقطاع من جيشه يهاجمون قصر الجرابلة. متأكدون من النصر لكثرتهم وقوتهم، ولأنهم يعلمون أن جيش الجرابلة جيش لا انتماء له، فهم مأجورون بالمال فقط، ولن يعرضوا أنفسهم للموت في سبيل عائلة الجرابلة. ستكون المقاومة من فرسان الجرابلة أساسًا.

اقترب جيش الملك نفعي. فرسان غزيرة ومشاة خلفهم يسرعون حاملين أسلحتهم، وبينهم الرماة. يقتربون، تركوا قصور الجرابلة الفرعية، اتجهوا لقصر لكبيرهم. قصر الجرابلة الرئيسي يبدو وكأنه مستعد لهم. من أعلى السور ومن فتحات الأبراج، رماة الجرابلة يطلقون سهامهم لعرقلة اندفاع فرسان الملك. السهام ليست بالغزارة المنتظرة. الأمير سِلْوِي يقود فرسان الملك الأماميين، الحاملين دروعًا عريضة ترشق السهام

فيها. ورماة جيش الملك يطلقون سهامهم على رماة الجرابلة ليمنعوهم من إجادة التصويب. بعض السهام أصابت الخيول التي صهلت متألمة وسقطت أو حرنت لتوقع فرسانها أرضًا. توقف رماة القصر عن الرماية. لم يصب من فرسان الملك سوى عدد جد قليل. وعدد قليل أيضًا أصيب خلال الهجوم بقيادة الأمير سِلْوِي، الذي ترك حصانه وانضم للجنود في اقتحام الباب الرئيسي بواسطة جذع شجرة غليظة، يحملها جنود أشداء وسِلْوِي في وسطهم، ويضربون بها الباب الرئيسي. انفتح الباب من الداخل كما هو متوقع. وجنود الجرابلة المأجورون وقفوا على الجانبين مستسلمين وأسلحتهم ملقاة أمامهم.

عائلة الجرابلة كانت تتابع وقوفًا على باب القصر ومن نوافذه. لعنوا جنودهم الجبناء وارتدوا للداخل وأغلقوا أبواب القصر وأخذوا في رمي السهام من النوافذ. جيش الملك نفعي نظم نفسه وعاد الأمير سِلْوِي على ظهر حصانه وسط فرسان الملك. هجموا هجمة واحدة سريعة، وهم يحمون أنفسهم بالدروع التي تصطدم بها السهام، في صدارة الفرسان الأمير عِلوِي، يسبق أباه الملك ويسبق أخاه الأمير سِلْوِي، يريد إثبات أن شجاعته لا تقل عن شجاعة أخيه. لا يتوقع أن يعود أبوه عن قراره، لكنه فقط يريد أن يؤنب أباه، ويثبت له أنه على خطأ. ويريد أن يبين لنفسه ولأخيه أنه شجاع.

الجرابلة وجيشهم من داخل القصر يقاومون مقاومة شرسة، لكن جيش الملك أقوى. يضربون باب القصر الرئيسي بالبلط، وبعضهم التف للباب الخلفي. الأبواب من خشب متين معشق بالحديد والنحاس. في الظهيرة تم كسر الباب الجانبي. اندفع الفرسان على خيولهم يقطعون الممرات، ويسقط منهم مَن يسقط نتيجة للسهام التي تأتيهم من الأمام ومن الجوانب، خاصة من نوافذ الدور العلوي. عِلوِي وسِلْوِي في المقدمة دائمًا. وإن كان الأمير سِلْوِي يقود بصياحه العالي جنود أبيه الملك، ويظهر عجائب الفروسية والشجاعة، فإن قدرات الفارسين الساموراي والقائد حميدو شامة ظهرت جليًّا. الساموراي قصير القامة ضئيل الحجم، حليق الذقن، بملبس القتال الثقيل. على رأسه بيضة معدنية يتدلى منها ما يحمي جوانب رأسه ما عدا ناحية الوجه، ودروع معدنية ملونة على كتفيه وجذعه، ومن الخصر لما تحت الركبتين دروع، في حزامه سيفان مربوطان، سيف طويل وسيف عادي. وهو مثل الجني المقاتل برمحه الطويل يطعن في الأعداء في سرعة مربكة. يثب بين ثلاثة أو أربعة أو أكثر. لينثرهم هنا وهناك ويقتل فيهم ويجرح في سرعة. ولما تضعضع الرمح من كثرة ضرباته على دروع أعدائه، ألقاه وسل السيف الكبير. واستمر يبدع أعاجيب فروسيته المتفردة. والقائد حميدو شامة نفس الشيء، بسيفه يقتحم تكتلات فرسان الجرابلة ويخترقهم، ويقتل ويصيب

فيهم. الساموراي وحميدو شامة جالا على فرسيهما في كل أجناب القصر وكانا من أهم أسباب النصر.

الجرابلة يدافعون عن أنفسهم ويقاتلون باستماتة، صيحات الأمير سِلْوِي تطاردهم وتضعضعهم وكأنها ألف سيف! جَربال بطل الجرابلة فارس خطير بالغ القوة البدنية. هو ومَن حوله من فرسان يفتكون بجنود الملك نفعي. وكلما تكاثر عليهم جنود الملك يضطرون للتقهقر وهم يقاتلون بنفس الاستماتة.

في جانب من إيوان واسع. يهجم جندي من الجرابلة على الأمير عِلوِي ويسقطه من على ظهر حصانه، ويقترب منه ويضرب فيه بسيفه وعِلوِي بدرعه يصد الضربات في صعوبة، يكاد الجندي ينجح في قتل عِلوِي، لولا أن الأمير سِلْوِي شاهد الموقف وأسرع على حصانه وهوى بسيفه على بيضة الجندي فشقها وشق رأسه فخر صريعًا. وقف عِلوِي غاضبًا وصرخ في أخيه قائلًا:

- لِمَ أتيت؟ أنا كنت سأقف وأقتله وحدي.

لم يجبه سِلْوِي. التف بحصانه مستمرًا في القتال، باحثًا عن الفارس جَربال. في كل جانب من جوانب المعركة يصيح:

- جَربال. أين أنت يا جَربال؟ اظهر لي وبارزني يا جبان.

مع استمرار تدفق فرسان الملك في قصر الجرابلة بغزارة، وهنت المقاومة. أمر الملك بعدم التصدي للنساء

والخدم والعبيد. أما الجرابلة وجنودهم فلا رحمة.

سهم يصيب حصان سِلْوِي فيقتله بينما يقفز سِلْوِي على ساقيه، قبل أن يسقط الحصان بجانبه. سِلْوِي يستكمل القتال مترجلًا باحثًا عن جَربال، يريد قتله. يبحث هنا وهناك وهو يقتل كل مَن يقابله من عائلة جَربال وأتباعهم، ثم لمحه.. لمح جَربال وهو يتقهقر لجانب من جوانب القصر وحوله عدد من فرسانه. صاح فيه سِلْوِي:

- جَربال. لم لا تأتي لي وتبارزني سيفًا بسيف؟

نظر له جَربال نظرة كره نارية. جَربال فارس قدير، لكنه يعلم تمام العلم أن سِلْوِي أفرس منه، وفي الغالب سيفوز عليه ويقتله. لا يستطيع رفض المبارزة، فماذا يفعل؟ أخذ خطوات ليذهب ويقاتل سِلْوِي، لكن مَن معه منعوه، فمستقبل الجرابلة معقود عليه. أخذوه بالقوة للخلف. قاومهم ليتركوه للمبارزة، منعوه وهو يعلم أنهم سيمنعونه، أسرع سِلْوِي ليلحق به، لكن جنود جَربال سحبوه واختفوا، وكأنهم فص ملح وذاب. فكما في قصور السمايدة أنفاق وممرات سرية، ففي هذا القصر ممر سري، هرب من خلاله جَربال ومعه أهم قياداته.

القتال لم ينتهِ. والقتل في بقايا الجرابلة مستمر. الملك نفعي على حصانه يسرع على صهوته في طرقات القصر وإيواناته ويقتل في جنود الجرابلة، ويبحث عن كبيرهم ليقتله بنفسه، وعن الذي تم تعيينه قائدًا للحرس الملكي فخانه. أيضًا يريد الملك أن يقتل الخائن بنفسه.

من نافذة من نوافذ الدور الأعلى. رجل من الجرابلة موجوع من الملك نفعي ومن عائلته، بقوس وسهم يتابع الملك ليقتله.

الملك نفعي لم يعثر على كبير الجرابلة، لكنه لمح القائد الخائن ما زال مرتديًا الزي الأزرق، زي الحرس الملكي! هجم عليه ودارت مبارزة قصيرة تمكن فيها الملك من طعن القائد الخائن وأسقطه قتيلًا. ولما توقف حصان الملك والملك ينظر هنا وهناك، متابعًا نهايات المعركة التي انتصر فيها. أطلق الرجل سهمه ليطير طير الشياطين نافخًا في الهواء فيصيب عنق الملك ويخترقه. يصرخ الملك ويقع من فوق حصانه. جندي بجواره يحمله ويمدده بجوار جدار. مات الملك سريعًا.

لم يبحث جيش الملك عن الهاربين من النفق السري، يعلمون أن النفق يؤدي لقصر أو أكثر من قصور الجرابلة. وربما جانب منه يؤدي إلى مهرب بعيد. فالاتفاق غير المكتوب بين العائلات الأربع، أنه في حال انهزام عائلة وهروبها، يتركون الهاربين حتى لا تتم إبادة للعائلة المنهزمة، فتضعف العائلات كلها أمام الرعية، فإن ثارت ستكون العدو الأساسي لهم، وإن تمكنت ستنتقم من الكل، من كل العائلات وأيضًا الانتقام سيطال علية القوم من التجار الكبار المساندين للعائلات. رغم هذا الاتفاق، فإن السمايدة كسروه حين شاهدوا ملكهم يسقط من على ظهر حصانه والسهم مرشوق في عنقه. فأعملوا القتل الباغي في عائلة الجرابلة التي لم تتمكن

من الهروب عن طريق النفق، حتى سميت تلك المعركة بمذبحة الجرابلة. ولم ينسها الجرابلة أبدًا.

في الصباح وقبل أن يتم دفن الملك نفعي، وبمساعدة الملكة فوز زوجة الأمير عِلوِي، تمت مقابلة سرية بين الأمير عِلوِي ولوز. همس لوز للملك عِلوِي، ألا يصرح بما كان ينتويه أبوه من تغيير ولاية العهد. فبما أن لا أحد يعرف هذا السر، سوى هو وسِلْوِي وأمهما وزوجته فوز، فعليه أن يكتمه وأن يتولى العرش. فكل ما يعرفه البعض، هو إشاعة بأن الملك نفعي انتوى نقل ولاية العرش لابنه الثاني سِلْوِي. إنها مجرد إشاعة ليس إلا، ثم إن أمهما لن يرضيها أن تعلن نية الملك نفعي، وتشعل حروبًا بين ابنيها. القلق يضرب قلب عِلوِي، لكن لوز طمأنه بأن سِلْوِي لن يقاتله ولن يقف في صعوده للعرش أحد، وأنه أي لوز، سيتفق مع الشيوخ وبعض القيادات في العائلات الأربع وفي علية القوم، بأن يعلنوا سريعًا ولاءهم للملك عِلوِي.

دُفن الملك القتيل. الأميران عِلوِي وسِلْوِي وسط القيادات الكبرى وكبار العائلات الثلاث، وجموع من الرعية جاءت لأنها تحب الملك نفعي رغم كرهها للظلم الواقع عليهم، ومنهم ما جاء لمجرد الفرجة.

مساءً في قصر الزمردة، اجتمع كبار العائلات الأربع في قاعة العرش. لم ينطق الأمير سِلْوِي بكلمة عما كان ليلة أمس، وقرار الملك نفعي بتعيينه وليًا للعرش. وكذا صمت الأمير عِلوِي. العرش خالٍ والأميران على

الجانبين. أولًا وقف الشيخ صقالي المنافق. ترحم على الملك المقتول، ثم أشاد بالأمير عِلوِي وأن الله عوّض المملكة بخير خلف لخير سلف. غضب الأمير سِلْوِي ووقف ليعترض، فوقف الأمير عِلوِي ليواجه أخاه، وهو متأكد أن أكثر المتواجدين سيكونون معه هو، فلم يعلن الملك القتيل أن سِلْوِي هو وريث العرش. تبين للأمير سِلْوِي الموقف، وتيقن أن اعتراضه سيسفك الدماء، والنتائج ستكون وبالًا على العائلة وعلى المملكة كلها. جلس الأمير سِلْوِي رغمًا عنه، مفضلًا الخير للجميع ومضحيًا بحقه في العرش.

وقف مَن هو أكبر سنًا في عائلة السمايدة. وأبَن الملك نفعي بكلمات طيبات، بينت كم كان عادلًا ولقيت المملكة كلها خيرًا في سنوات حكمه، وأنه لولا طمع عائلة الجرابلة وخبثهم، ما كانت تراق الدماء. ثم نظر للأمير عِلوِي وقال:

- والآن بعدما ترحمنا على الملك الذي توفاه الله، ننحني للملك الجديد عِلوِي بن نفعي السُمَيِّد.

نظر الأمير سِلْوِي لأخيه الأمير عِلوِي، لكن عِلوِي لم ينظر ناحية سِلْوِي، بل تقدم للعرش وصعد الدرجة والتف وجلس على العرش في فرحة صبيانية طاغية. فتقدم كبير العائلة ووضع تاج المملكة على رأسه.

وقف الشيخ صقالي وقال بصوتٍ رخيم:

- بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على نبينا الكريم. والآن وقد رضي عنا ربنا العطوف، فكما وهبنا

الملك نفعي ثم سحبه له معززًا مكرمًا، ليتمتع برحمة الله إن شاء الله. فقد وهبنا المولى ملكًا جديدًا هو ابن الملك الراحل في سلام. وهبنا رجلًا فحلًا فطنًا طيبًا. عنده ثواب الآخرة أهم من كل مغريات الدنيا. يحب رعيته وتحبه الرعية. فعلينا أن ندعو له في منابر المساجد، ونبين لأنفسنا في كل محفل ولمّة، أننا رعيته المطيعة. أننا عبيد إحسانه وجواري نفحاته. فقد وهبه الله الخلافة باسم الملك عِلوِي السُمَيِّد. والآن.. علينا أن نخر له ساجدين.

يسجد الشيخ صقالي ويلحق به في السجود الخبيث لوز. فيسجد الجميع بما فيهم سِلْوِي السُمَيِّد. أشار الملك عِلوِي للجميع بتواضع كاذب، وقال في وقار مصطنع:

- انهضوا وتفضلوا بالجلوس.

الأمير سِلْوِي السُمَيِّد، تقبل خيانة أخيه، وتقدم من الملك الجديد وقبَّل يده ورأسه وأعلن طاعته. فأخذه أخوه عِلوِي الملك بالأحضان، وهمس في أذنه بكلمة واحدة: «سامحني يا أخي». فأجاب سِلْوِي هامسًا: «أسامحك يا أخي الملك». بعد الأمير سِلْوِي تقدمت الحاشية كلها لتقبل يد ورأس ملكهم الجديد.

بهو خاص في قصر الزمردة. جلسة لكبار العائلتين الأكبر. السمايدة والنوارنة. السمايدة وإن لم يرضهم عدم اشتراك النوارنة في القتال، فالكل يعلم أن النوارنة لا يقاتلون، تكفيهم خباثتهم الموجهة لهنا وهناك، وهم قد أفادوا السمايدة بكشفهم لمؤامرة الجرابلة، وإن كانت

الشكوك حول لوز تتزايد، كما يزداد لحمه وشحمه. لوز له ضلع في كل المكائد. والآن سيتم إعادة توزيع مناصب المملكة من جديد. أهمها وأكثرها بالطبع لعائلة الملك. عائلة السمايدة، ثم النوارنة حيث المصاهرة بين العائلتين عديدة، ثم الحوافظ وحرمان الجرابلة. القرار الأول الذي سيصدر من الملك عِلوِي السُمَيِّد، عزل كل الجرابلة. سواء مَن هم في مناصب بالعاصمة ذات القباب، أو في مقاطعات المملكة السبعة. لوز النوارني اعترض، وأقنع الملك والحضور الهام بأن إهانة الجرابلة بهذا الشكل، فيه خطورة. فإن كانت الجرابلة فعلًا في حالة ضعف بالغ، فمن الأفضل تهدئتهم حتى لا يجتهدوا بإصرار على إعادة قوتهم في وقت سريع، ثم يعودوا للانقلاب على الملك وعلى العائلتين. واقترح اقتراحًا غريبًا. إعطاء الجرابلة عددًا بسيطًا من المناصب التي لا تَهِش ولا تَنِش. مناصب ليس منها ضرر علينا ولا خطورة. بما أن قائد الجيوش عجوز مريض وسيعين غيره، فيُعطى لأهم فارس في الجرابلة، وهو الشاب جَربال! فقيادته للجيش ستكون شكلية، لأن مساعديه ومَن سيتولون الأمور حقيقة هم اثنان، والاثنان ليسا تابعين له. حميدو شامة والساموراي، وهما صديقان حميمان للأمير سِلْوِي ولا يرتاحان لجَربال وجَربال لا يطيقهما. بعد ذلك كل القيادات الأساسية من حوله، سمايدة وبعضهم حوافظ. وكل الجيش وجميع الحرس الملكي يحبون الأمير سِلْوِي، وطاعتهم له أوجب من

طاعتهم لأي قائد رسمي عليهم. إذن فقائد الجيوش لن يستطيع أن يحرك جيشه ضد الملك، ومنصبه هذا يجعله طوال الوقت ظاهرًا لنا، ويمنعه من المشاركة في أي دسيسة جَربالية. ونكسب بالإضافة لذلك، أننا نريح كرامة الجرابلة ونثبط عزيمتهم للفوران السريع، وقدمنا للجانب المسالم منهم ما يتقوى به ضد المتهورين، فقد قدمنا لهم مركزًا يرطب مهانتهم ويتباهون به أمامنا وأمام الرعية، وفي نفس الوقت، نحن نعلم أنه مركز شرفي غير ذي جدوى.

الوزير المتغوِّل أبدى إعجابًا بالفكرة، فهو مَن قام بتوضيبها مع لوز من قبل. أما الأمير سِلْوِي فاعترض، فإن لم يتم قتل جَربال، فعلى الأقل يجب حصاره لا تفضيله وتلميعه. اضطر الأمير سِلْوِي أن يوافق، لأن الملك اقتنع بمبررات لوز وتدخل المتغوِّل وقوله إنه لا يمكن أن نترك جَربال بعيدًا عن أعيننا. وفي منصبه كقائد الجيوش، سيكون محاصرًا مرئيًّا من قيادات الجيش والبصاصين.

عندما أرسل الملك عِلوِي ليتباحث مع الجرابلة، عارضًا عليهم المصالحة، ومنحهم مركز قيادة الجيوش، وعددًا آخر من المناصب، كان لوز قد سبق وأبلغهم بما سيكون، هذا لتعلم الجرابلة فضل لوز النوارني عليهم، حتى يردوا له الجميل حين اللزوم! فالجرابلة يشكون في أنه أبلغ السمايدة، لكن ليس معهم دليل. الحكماء المحبون للسلام والوئام في عائلة الجرابلة، قبلوا هذا

العرض وبينوا أن رفضه ربما سيتسبب في فناء العائلة كلها. عادت الجرابلة للمشاركة في عدد قليل من المناصب البسيطة، فيما عدا قيادة الجيش التي سيتولاها جَربال. وأقسموا على طاعة الملك. وبعد شهور قليلة والبحث عن مشعلي الحرب بين الجرابلة والسمايدة، تبين تمامًا أن لوز الخبيث، هو الشيطان الأكبر الذي حرض الجميع على الجميع. فاحتقره الجميع وإن لم يُبدِ أحد منهم ذلك، ولم يستطع أحد أن يضره، فهو توءم الملكة فوز التي تتحكم بالملك عِلوِي.

ظهر التعب على الأميرة ذات الرِّفعة، وشقشق الفجر عليهما، ويجب على شكّور أن يعود لقصر الضيافة. فطلبت تأخير بقية حكايتها. وافق شكّور مرغمًا، كان في غاية التشوق لمعرفة بقية الحكاية، خاصة كيف تم اغتيال الأمير سِلْوِي. قال شكّور لحبيبته الأميرة ذات الرِّفعة:

- واضح أن تلك الحكاية مُلغزة محيرة.. حكاية فيها العجب بسبب وبدون سبب. في ليلة أستطيع المبيت معك.. تحكين لي يا حبيبتي بقية الحكاية.

***

(5)

عاد شكّور لقصر الضيافة ودخل الحجرة التي تحويه وصديقه ابن خالته الأمير، فوجده نائمًا. ولما بدل ملابسه وتمدد على سريره، إذا بصوت عبد الرحيم يقول مبتسمًا ساخرًا:

- يا لك من عاشق كتوم!

- مستيقظ يا عبد الرحيم؟!

- لن أسألك يا شكّور عن ليلتك الليلاء.

- حتى وإن سألت فلن أجيبك إلا بما يخص مهمتنا.

- هاها. سعدت نومًا ابن خالتي.

- انتظر. أنا سألت ذات الهمّة عن الساموراي.

اعتدل عبد الرحيم..

- وماذا قالت؟

- هو ما بين مُستبعد من القصر، وبين معتزل برغبته الشخصية. حدثت مشاكل بينه وبين قائد الجيوش جَربال ومساعده الأول مِمْبار، وأيضًا بينه وبين الوزير المتغوِّل. ومنذ عام تقريبًا تزوج سيدة مُخلطة.

- كيف؟

- أبوها عبد وأُعتق.. وأمها حرة.

- كيف نصل لفارس الساموراي بدون لفت الأنظار؟

- قالت إن بيته مُراقب دومًا من بصاصي المتغوِّل. حتى حين يقوم بجولاته منفردًا خارج القصر أو حتى خارج المدينة، يقوم بصاصان بمراقبته.

- بهذا فلا مفر من أن نذهب له علنًا. نستأذن من الملك، حميدو حدثني عنه كثيرًا. وطلب أن نتكتم بأمر الرسالة التي نحملها له.

- سيعلم الملك وبطانته أننا سمعنا عن الساموراي من حميدو شامة.

- وليكن.. سيستكبر عن منعنا. يجب أن أرى هذا الفارس الصنديد.

الصباح بعد حمام منعش لكليهما، خاصة شكّور المتعب من سهرة الأمس التي أشبعته أحضانًا وحكيًا، وأتعبته حرمانًا من عدم الولوج في جسد مَن أحبها وتحبه. لم يأتِ مقص المزين ليراجع تجميل أميره، فهو مع بقية فرسان البدو، نائم منهك من ليلة أمس الليلاء، ليلة الضيافة الثانية، فمشروب النكاح الذي يتناولونه قبل نكاح الجواري، بالفعل يقوي الانتصاب ويطيل فترة وطء الجواري. عبد الرحيم وشكّور يتناولان إفطارهما. حكى شكّور حكاية المملكة وما جرى فيها، وكيف أن الأمير سِلْوِي، ربما اغتيل بموافقة أخيه الملك عِلوِي. وبقية الحكاية، لكنه لم يتكلم عن الخصوصية العشقية غير الكاملة بينه وبين حبيبته الأميرة ذات الرِّفعة. عبد الرحيم لم يكن يتوقع كل تلك الخطايا في هذه المملكة الغنية ذائعة الصيت. كيف تحمل نفوسهم كل هذه النواقص، وهم من أغنى ممالك الأرض؟!

خرجا من مبنى القصر فوجدا فطرون الفأر على صهوة حصانه ينتظرهما مبتسمًا. قال شكّور لعبد

الرحيم:

- أعوذ بالله. هذا الفطرون الفأري، القُبح يشع من مظهره ومخبره.

امتطيا حصانيهما فاقترب منهما فطرون الفأر، وصبّح عليهما ونقل لهما خبرًا أقلقهما..

- صديقكما الفارس عاقص مرضه ليس بالهين. الطبيب النطاسي المتمكن، بعد أن أبعد خطر انهيار أمعائه نصحنا بأن ننقله لمقاطعة النهر الرابع. الولاية الرابعة بعيدة عنا، لكن علاج عاقص يتطلب ذلك، فهناك بلدة بها نبع من مياه شافية، ستكون تلك المياه شافية لمعدته إن شاء الله.

عبدالرحيم وشكّور في حيرة. لم يتركهما فطرون الفأر، قال ضاحكًا:

- فرسانكم في نوم ثقيل بعد ليلة فاسقة فسوق الشياطين. لم أستطع إيقاظهم. فما رأيكما؟

قال له الأمير عبد الرحيم في ضيق:

- لا أحتاج إليهم. اتركهم يستيقظون وقتما يحلو لهم.

- إذن فالملك عِلوِي السُمَيِّد يدعوك أنت وصديقك ابن خالتك شكّور، لجولة في بعض أماكن المملكة التي ستروق لكما. ثم تستريحان لتشاركاه وتشاركا الحاشية وعلية القوم، في مشاهدة احتفالات يوم من أهم وأمتع أيام المملكة، إنه يوم عيد للمملكة، يوم فيض النهر.

دخلا القصر وحدهما تاركين فطرون الفأر يذهب جانبًا. جندي من الحرس الملكي يرشدهما لقاعة من

قاعات قصر الزمردة. لم يطلب أحد منهما ترك سيفيهما. القاعة أصغر حجمًا وإن كانت لا تقل جمالًا عن قاعة العرش. الملك عِلوِي يرتدي ملابس أقل فخامة وليس على رأسه التاج الذهبي الثقيل. شعره مصبوغ ليداري البياض الذي يغزوه. يجلس ويتكئ على وسائد لينة. على يمينه بمسافة الوزير المتغوِّل، يجلس على وسادة لكنه لا يتكئ على شيء. يجلس في احترام وتقدير للملك. لا أحد غيرهما إلا عدد من العبيد نصف عراة، ينتظرون أوامر الملك. البخور يعطر المكان. عبد الرحيم وشكّور ألقيا السلام فأشار لهما الملك بأن يجلسا على يساره. جلسا وتعمد عبد الرحيم أن يسحب وسادة من جانبه ويتكئ عليها. ابتسم الملك والوزير يكاد يضحك ساخرًا منافقًا. صفق الوزير. فدخلت الجواري رشيقات في ملابس حريرية شفافة ملونة. يكدن يكن عاريات، يحملن أطباقًا بلورية تحوي أنواعًا من الفاكهة. وغيرهن يحملن أكوابًا من عصائر متنوعة. وضعن الأطباق بالقرب من الجالسين. بدأ الملك في تناول تفاحة وبعده كل منهم يتناول ما يروق له من فاكهة. ثم الجميع يشربون العصائر. دار بينهم حديث مجاملات. ثم نهض الملك وقال:

- هيّا.

قاموا واتجهوا ليقفوا تحت القبة الزمردية. القبة من زجاج متين أخضر. تشكيلاتها من الداخل لا تقل عجبًا عن تشكيلاتها من الخارج. بعض جوانبها زجاجها أثقل

وأدكن، والبعض خفيف فاتح اللون. القبة تتلقى أشعة الشمس من الخارج وتصبها تحتها في تشكيلات ألوان زمردية متحولة متأثرة بحركة الشمس. الملك يتباهى بهذه القبة التي ليس لها مثيل في كل أرجاء الدنيا. ينظر لعبد الرحيم وشكّور في فخر وغرور. بعدها خرجوا من القصر سيرًا على الأقدام. ركن بعيد خلف حدائق. ثم الخروج من باب متوسط عليه حراسة. فإذا بباحة ثم مبنى واسع متواضع المظهر. في الداخل المبنى مختلف عن مظهره من الخارج.. كل الجدران مرسوم ومنقوش عليها كتابات بمختلف أنواع الخط، خاصة آيات مختارة من القرآن الكريم. قال الوزير المتغوِّل موجهًا حديثه للأمير عبد الرحيم الوسيم:

- نحن في بيت الخط. بيت قائم بنفسه لأهمية الخط عند الملك عِلوِي. فالملك عِلوِي يعشق الجمال عامة، وجمال الخط العربي خاصة.

عدد من الرجال والنساء، وكل واحد منهم أمامه تختة مثبت عليها قطع مسطحة من الخشب، وكل منهم مشغول في الرسم عليها بتصاوير للأشجار والطيور والغزلان. يشرح الوزير أن هذه الزينة سيتم وضعها في قصر جديد يتم وضع أساساته الآن. ذهبوا لقاعة ثانية. بها العديد أيضًا من الرجال والنساء. وكل منهم جالس في ركن يمسك بريشة وأمامه محبرة، ومشغول في نقل كتاب أمامه إلى رقع جديدة من الورق. والبعض واقف ويكتب آيات من القرآن الكريم على ورق طويل. يشرح

الوزير أنهم ورّاقو القصر. ينقلون الكتب القديمة في نسخ جديدة. والآيات القرآنية هي تحضيرات لتكتب لاحقًا على جدران الجوامع. ثم تكلم المتغوِّل مبينًا أن كل هؤلاء، رجالًا ونساءً، غاية في إتقان الكتابة. استمر المتغوِّل قائلًا:

- إن ملك البلاد الملك عِلوِي السُميِّد، خطه بالغ الحسن. أليس كذلك يا مولانا؟

الملك هز رأسه موافقًا مبتسمًا في تواضع كاذب. استمر المتغوِّل:

- نحن في المملكة غيركم في الصحراء.. نعتني بالخط.

ثم ضحك المتغوِّل وهو مستمر في الحديث الساخر:

- وبالطبع أنتما لا تستطيعان الكتابة. هاها.

الغضب على وجه شكّور. عبد الرحيم ابتسم للوزير الوقح ولم يجبه. بل تقدم من ورَّاق جالس وأزاحه وجلس مكانه. تناول قلم البوص وغمسه في دواة الحبر، وأخذ في استكمال عمل الوراق. استمر هكذا حتى أكمل الصفحة. قام ونظر للملك وقال:

- مولاي الملك عِلوِي السُمَيِّد. أنت تتعمَّد أن تترك وزيرك يهينني. وهذا خطأ كبير. مره يا مولاي بأن يتأدَّب في مخاطبتي فأنا الأمير عبد الرحيم الوسيم. أنا الفارس المقاتل الذي لا يُشق له غبار.

أجابه الملك:

- لا يا عبد الرحيم. الوزير لا يقصد إهانة. الوزير يتباسط ويمازحك فقط.

تدخل الوزير المتغوِّل بنفس السخرية:

- أنت يا أمير الصحراء نقلت ما هو أمامك وكأنك ترسم. لكن لا أظن أنك تستطيع الكتابة حقًّا، اكتب لنا جديدًا من خاطرك. اكتب لنا أسماء مَن تعرفهم.. مثلًا عائلتك وقبائلك إن كنت كاتبًا حقًّا؟

عاد الأمير عبد الرحيم ليجلس ويسحب ورقة فارغة، وبالقلم كتب واصفًا الصحراء والبدو الفرسان البواسل. وعظمة عائلته ومكانتهم الكبيرة، ثم كتب أسماء أبنائه ذكورًا وإناثًا. قام وأعطى الورقة للوزير الذي تناولها وأخذ في النظر إليها مبديًا إعجابه. ثم نظر للأمير عبد الرحيم وقال:

- أنت بالفعل كاتب قدير وقد ظلمتك. لكن هل ابن خالتك وصديقك شكّور مثلك. أم أنك أحسنت القراءة والكتابة بصفتك أميرًا وبقية رعيتك جهلاء لا يعرفون الكتابة؟

جلس شكّور وكتب عن عائلته وأسماء أبنائه.

وهنا شخّص الوزير المتغوِّل حالة الإحراج، لكنه ما زال ساخرًا وقال:

- اقبل اعتذاري يا سمو الأمير عبد الرحيم. اقبل اعتذاري أيها الفارس شكّور.

لم يعره عبد الرحيم اهتمامًا فقال الملك له:

- أيها الأمير، ألا تقبل اعتذار وزيري المتغوِّل؟!

- لا. فهو لا يهمني في شيء، وليس له عندي أي اعتبار.

الوزير المتغوِّل لم يغضب، بل ضحك ضحكة استهزاء. خرجوا من بيت الخط. ساروا مسافة وفرسان الملك خلفهم على خيولهم.

واصلوا السير معًا والفرسان خلفهم للحماية. وصلوا لمبنى بيت السلاح. مبني شاسع لتصنيع السلاح. رجال أشداء أنصاف عراة، يطرقون على الحديد ليتشكل سيوفًا ورؤوس حراب وسهام. صانعو الدروع. العديد من أفران صغيرة عديدة لصهر الحديد، وفرن كبير في ركن بعيد. ركن به السيوف التي لم يتم جليها بعد. جانب حيث يتم استكمال صقل السيف. ثم عدد من العمال مشغولون لاستكمال السيوف بمقابضها. بعده مبنى هو بيت المال، حيث مخزن الذهب والفضة والدنانير. ثم بيت الزجاج، ثم بيت الحديد.

خارج بيت المال. ما سيذهبون إليه مسافته بعيدة. والملك عِلوِي ظهر عليه التعب. الخيول تنتظرهم وعدد من فرسان الملك يقفون هم أيضًا بجوار خيولهم. العبيد ساعدوا الملك والوزير على امتطاء حصانيهما، فالملك فاقد للعافية، والوزير المتغوِّل يجد صعوبة في امتطاء الخيول، لقصر قامته وضعف بنيته. الملك في الوسط وعلى يمينه عبد الرحيم وشكّور وعلى يساره وزيره المتغوِّل، وخلفهم الحرس الملكي. ساروا في موكب ودخلوا جانبًا من المدينة، وكلما قابلهم عدد من الرعية

رجالًا أو نساءً، يهرعون على الجانبين ويركعون خوفًا من موكب الملك، واضح أنهم لا يحملون أي مهابة له. دخلوا شارعًا عريضًا، فإذا بمجموعة شباب تسد الشارع ويقودها شاب يرتدي ثياب المشايخ. تقدم الحرس الملكي وفرقوهم بخيولهم وتهديدًا برماحهم. صياح مزعج ينادي:

- عِلوِي. عِلوِي. استمع لكلماتي أيها الملك المتكبر.

عاد الشباب وتسللوا من بين خيول الحرس الملكي. أولهم كان شيخًا شابًا صاحب النداء الجريء للملك. الملك أوقف حارسين رفعا سيفيهما على الشيخ الشاب. الملك ينظر في غيظ للشيخ الذي تكلم سريعًا:

- سأقول لك كلمة حق وأنت سلطان جائر. أنت متكبر غافل عن رعيتك. وبطانتك فاسدة تظلم الناس وتأكل حقهم. وأول الفاسدين مَن هو على يسارك. المتغوِّل الذي لا يستطيع إدارة بيته وعاجز عن التحكم في أهل بيته، وأنت تطلقه ليعُض ويعذب رعاياك. ثانيهما هو لوز الذي تزوجت أخته، فهو وبال على عباد الله بفساده، كما أن أخته فوز وبال عليك بتحكمها فيك وتثبيتها لأخيها لوز الخبيث. أما الذي وليته قيادة الجيش، جَربال. فكما هو قاسٍ على الرعية، فسيكون وبالًا عليك وعلى عرشك، وعلى عائلتك. اعدل يا عِلوِي، وأنتَ لن تعدل طالما في بطانتك شيوخ النفاق وعلى رأسهم الشيخ صقالي، آكل السحت وواضع التفسيرات المنافقة.

أشار الملك عِلوِي لحرسه بأن يبعدوه. أبعدوه هو ومَن معه. لم يأمر بتكتيفه وسجنه، فالكثير من الناس اجتمعوا على جانبي الشارع، وسمعوا ما قاله الشيخ الشاب واستحسنوه. اسم الشيخ صار معروفًا في المدينة.. الشيخ عبد الرازق.

استكملوا سيرهم وقد انقلب وجه الملك جهمًا، فهذا الشيخ الشاب أهانه هذه المرّة وهو بين بدو غرباء. ونصيحة المتغوِّل وغيره، ألا يقتله أو يسجنه حاليًا، فأتباعه كثيرون في أنحاء المملكة، رغم أنه ما زال شابًا صغيرًا؟! وإن كان الملك حانقًا من الشيخ فالت اللسان، فإن الوزير يكاد ينفجر غيظًا، فهذا الشيخ أهان عائلته وقال ما يخشى الوزير أن يقال.. إنه لا يتحكم في أهل بيته.

وصلوا لمدينة الجنود. شاسعة بها أبنية لمبيت الجنود، وعدد كبير من الخيام متنوعة الاتساع والألوان. ومخازن الطعام ومساحة لزراعة ما يحتاجه الجيش من خضراوات وفاكهة. أما حظائر الخيول فهي على جانب متطرف. وفي وسط المدينة عدّة ساحات مفتوحة للتدريب على الأرجل وعلى صهوات الخيول. وساحة شاسعة بها هياكل خشبية عملاقة، يضعون فيها فواخير تنبعث النار من فتحاتها. الهياكل الخشبية ترميها لبعيد، لتسقط في أهداف بعيدة لتشعلها وتحولها لنار عظيمة. يتعمد الملك ووزيره أن يشاهد عبد الرحيم وشكّور مدى

قوة المملكة. عندما مال الوزير المتغوِّل على الأمير عبد الرحيم وقال بصوتٍ عالٍ ليسمعه الملك:

- جيشنا أقوى. أتعرف ذلك؟

أجاب الأمير عبد الرحيم ببساطة وبصوت يسمعه الملك:

- أعرف جيشكم تمامًا، أليس هو الجيش الذي هزمته وأسرت قياداته؟!

في الظهيرة عادوا لقصر الزمردة. تناولوا الغداء في بهو فخم، وسطه مائدة مستطيلة هائلة. جلس الملك في المقدمة وعلى يمينه وزيره وعلى يساره عبد الرحيم وشكّور. ويخدمهم مجموعة كبيرة من الخدم والحشم، بينهم عبيد وجوارٍ. أنواع لم يرها الضيفان. عبد الرحيم وشكّور يحاولان كتم انبهارهما بتنوع الطعام ولذّته. وخلال تناول الطعام الفاخر، أراد الأمير عبد الرحيم أن يجامل الملك لكن بسؤال حقيقي، تمهيدًا لما بعده..

- مولاي الملك عِلوِي. تجولت كثيرًا في مملكتك. أتعجب.. ما كل هذا الجمال! من أين تلك الأموال الهائلة التي تصرف على كل هذا التشييد؟ ومن أين كل هذا الذهب؟!

ضحك الملك عِلوِي سعيدًا بالسؤال وأجاب:

- حين دخلت مملكتنا آتيًا من صحرائك. ألم تعبر نهرًا واثنين؟

- نعم.

- ألم ترَ الحقول المزروعة الممتدة على مدى البصر؟

- رأيتها.

- إن غنانا الأساسي من هذه الحقول. إنها الذهب الأخضر الذي يأتي لنا بالذهب الأصفر. وبعد الحقول تكون تجارة البحر. ثم تجارة قوافل الصحراء التي تهددها أنت وبدوك. هاها.

ضحك الأمير عبد الرحيم وشكّور. دقيقتان وسأل الأمير عبد الرحيم عن الفارس الصنديد الساموراي؟ احتار الملك في الإجابة. أسعفه الوزير المتغوِّل وقال:

- إنه فارس بالفعل، لكن من المبالغة أن نصفه بالصنديد. لماذا تسأل يا أمير؟ هل تحدث عنه أحد الأسرى الذين عندك؟

- نعم. القائد حميدو.

- آآه. وماذا تريد من الساموراي؟

- أريد أن أراه. مجرد رؤية مَن هو مختلف. لكن إن كانت رؤيتي للساموراي تقلق ملك مملكة الأنهار السبعة، فسأتنازل عن طلبي.

حوصر الوزير فتدخل الملك بالموافقة. وقال الوزير إنه سيرسل مع الأمير مَن يعرف الطريق. قال الأمير عبد الرحيم إنه سيزوره اليوم.

بعدها عاد عبد الرحيم وشكّور لقصر الضيافة. راحة سريعة ثم الذهاب إلى بيت الساموراي.

كما هو متوقع. مَن سيرافق الأمير وشكّور هو فطرون الفأر. أتاهما وعلى خيلهم ذهب ثلاثتهم لبيت

الساموراي. على تخوم المدينة بجوار بوابة الفيافي. منطقة مظللة بالأشجار الكبيرة المتنوعة. كل بيوتها متباعدة عن بعضها، بيوت واسعة بأفنية. الحركة هادئة. عند أغرب بيت وقفوا. بيت كله من الخشب. سقفه منزلق للجانبين برشاقة. هبطوا من فوق خيولهم. أتاهم خادم فتولى حفظ الخيول وهم عبروا الفناء ثم صعدوا عشر درجات من سلم. ثم باب البيت. طرق فطرون الباب. فتحته شابة متوسطة الطول سمارها خفيف، باسمة الوجه جميلة التقاطيع. شعرها جدائل كثيفة تتراقص مع كل حركة. لمحت فطرون فارتسمت على وجهها نظرة كره. نظرت لعبد الرحيم وشكّور وقالت:

- أهلًا.

فقال لها فطرون الفأر:

- عسلية الغامقة! أوحشتني يا جميلة! أما زلتِ تخدمين الساموراي؟

نظرت إليه الفتاة ببرود ولم تجبه. طلبت منهم خلع أحذيتهم. ثم دعتهم للدخول. غرفة واسعة أرضيتها خشب بني ناعم. على جانب وسائد عديدة. سمعوا أصوات صرخات وحشية غريبة. نظروا لها فابتسمت ودعتهم لأن يتبعوها. خرجوا من الباب الآخر للغرفة الواسعة. شرفة وقفوا يطلون منها على بهو منخفض وسطه رجل قصير نحيف، شعر ناعم قصير. حليق الذقن والشارب. يرتدي ثوبًا أسود فضفاضًا. الكمّان يصلان لتحت الرسغ بقليل؛ وحزامًا أحمر مشدودًا. في

قدمه خف. يمسك بقبضتيه بسيف طويل قوي لامع. الرجل يقاتل أعداءً منتشرين حوله لا يراهم إلا هو! حركاته بطيئة وكأنه مغمور داخل بحر من المياه الشفافة. ينظر في اتجاه لكنه يرى بقية الاتجاهات حتى مَن يتحرك خلفه. فجأة وكأن جنيًّا ركبه. يتحرك في سرعة البرق طاعنًا ومناورًا مَن يقاتلونه. سرعته لا تُصدق. ترك السيف وأسرع جانبًا والتقط رمحًا طويلًا. وقاتل نفس الأعداء المخفيين عن المشاهدين الأربعة. بنفس الصيحات المرعبة. ألقى الرمح وفي سرعة التقط من جيب ثوبه شيئًا ما. الفتاة السمراء قالت: لماذا؟ وقبل أن تنتهي من استكمال كلمتها اليتيمة، كان الساموراي يلتف حول نفسه مرتين وهو يصيح صيحة قتال. وكل مرة يقذف ما يشبه النجمة متعددة الحواف في اتجاه المراقبين، النجمتان تطيران في الهواء من قوة القذفة وترتطمان مباشرة أعلى سور الشرفة. بين مكان الرشق وبين أجساد الأربعة مسافة تقل عن شبر. إنهما نجمتان حديديتان كل منهما حوافها بها بروزات حادة. فوجئ المشاهدون واضطربوا فيما عدا الفتاة فهي قد تعودت على أفعال الساموراي.

الساموراي من أسفل ينظر لهم في برود. صعد إليهم ولما اقترب انحنى لهم محييًا. فانحنت له الفتاة السمراء محيية، لتوحي للثلاثة بأن يفعلوا مثلها ففعلوا. انحنى مرة أخرى وتركهم. عادوا للحجرة الواسعة. لفت نظرهم حامل خشبي أنيق، معلق على جدار. يحوي ثلاثة

سيوف أنيقة في أغمادها، أطوال السيوف مختلفة. وبالقرب من السيوف قوس قوي ليس من النوع المستخدم في المملكة. فطرون الفأر مد يده ليمسك بإحداها، أتاه تحذير من الفتاة:

- احترس! ممنوع اللمس.

- شكرًا لتحذيرك يا.. يا عسلية.

جلسوا على الوسائد. ذهبت عسلية. أخذها فطرون الفأر فرصة، فحدثهما عن عسلية. هي ابنة جارية بيضاء وعبد أسود. فكان لونها بنيًا عسليًا. أحبها عبد شاب وهي لم تحبه. حدثت معارك بين العبيد والخدم وكل منهم يصر على أخذها لنفسه. ولتواجد جارية قديمة بيضاء اسمها عسلية، وللتفريق بين العسليتين، قيل عن هذه عسلية الغامقة. شاهدت عسلية الساموراي في إحدى زياراته للقصر. هي التي أحبته. وأوصلت حبها للساموراي، فكان الأمير سِلْوِي هو القوة التي جمعتهما. بالطبع لأن الساموراي غير مسلم، لم يكن باستطاعته الزواج منها. فاشتراها جارية، رغم اعتراض الشيخ صقالي. ونعرف كلنا أن الساموراي أعتقها، لكنهما يكتمان هذا الأمر، لتبقى معه كجارية، وبهذا يخفت اعتراض الشيخ عبد الرازق وصحبته. عسلية الغامقة تحب الساموراي كثيرًا وهو يحبها. والساموراي كاد يقتل العبد الشاب الذي أصر على مطاردتها، وأصابه التهور وأشهر خنجرًا ليقتل به الساموراي. تفاداه الساموراي بسهولة، وألقاه أرضًا وأشهر سيفه مهددًا لمجرد تخويف الشاب.

عادت عسلية الغامقة بمشروب حلو. جلست وقالت إن الساموراي يستحم وسيأتي سريعًا. سمع عن حضور الأمير العربي الذي هزم جيش المملكة وأسر أميرها، وأيضًا أسر صديقه الفارس حميدو شامة.

أتاهم الساموراي في ثوب يشبه الأول لكن لونه أبيض. انحنى تحية لهم فردوا التحية وهم جلوس متكئون. جلس أمامهم القرفصاء في جدية ومهابة. اضطروا هم أيضًا ليجلسوا نفس الجلسة. تكلم بعربية متوسطة الجودة، مرحبًا بهم فأجابوه باحترام كبير خاصة عبد الرحيم. فقد وجد فيه محاربًا مذهلًا رغم متوسطية جسده. نظر الساموراي نظرة احتقار لفطرون الفأر وقال له:

- إن لمست سيفًا من سيوفي، قطعت يدك. وإن لمست سيفين، قطعت رقبتك. أفهمت؟

لم يرد فطرون. اضطربت ملامحه. حاول الابتسام. سمع أمر الأمير:

- فطرون الفأر. قُم وغادر هذا البيت.

صعر فطرون الفأر رأسه في إباء رافضًا..

- أتيت معكم بأمر مولاي الملك عِلوِي. وسأبقى معكم.

صاح فيه الأمير عبد الرحيم الوسيم:

- إن لم تهب واقفًا وتخرج فورًا من البيت، سأحملك بالقوة للخارج وأذبحك ذبح الخرفان، ولن يغضب عليك لا الملك ولا وزيره المتغوِّل. هيّا قم يا حقير.

خرج فطرون الفأر غاضبًا. بان الارتياح على وجه الساموراي. قال الأمير إن الوقت ضيق، لذا سيركز في كلامه. بلغه تحيات القائد حميدو شامة، وناوله الخطاب. الساموراي فتح الظرف. وجد ورقتين. قرأ قلقًا ثم ابتسم ابتسامة مبللة بالأسى. قال للفتاة:

- عسلية. الضيافة الخاصة.

ابتسمت عسلية وقامت خارجة من الحجرة. قال الساموراي

لعبد الرحيم:

- أنت أكرمت صديقي حميدو شامة، وزوّجته من بناتكم. حسنًا إنه لن يعود لهذه المملكة الخربة التي تنهار. هنا مُتغوِّل وجَربال يكرهان حميدو ويكرهان صديقه الساموراي. اغتالوا صديقنا الأمير الفارس سِلْوِي. كنا ثلاثة فرسان عظماء بأخلاق فرسان حقيقية. فرسان قتال عظماء مثل الساموراي. اغتالوا سِلْوِي وكانوا على وشك قتل حميدو. الآن هم على وشك اغتيالي أنا. لا يهم. حياتي ليست ذات معنى الآن. حياتي يجب أن تنتهي كما تنتهي حياة محاربي الساموراي. لكن لي رغبة أخيرة قبل أن أغادر. رغبتي الأخيرة.. أن أنتقم ممَّن اغتال صديقي سِلْوِي.

الساموراي ينظر لأعلى في حزن شفيف. عاد ينظر لعبد الرحيم..

- لا يهمني أنك أمير. يهمني أنك صديق صديقي. أنك صديق حميدو شامة. لهذا فأنت صديقي وأنا على

استعداد لمؤازرتك في أي قتال.

أتت عسلية تحمل منضدة صغيرة قصيرة الأرجل، عليها قارورة تحوي القليل جدًا من الخمر وثلاث كؤوس. قالت:

- الساكي. خمر اليابان. لأجلكم. إنها آخر قارورة يحتفظ بها من الساكي. واضح أن الساموراي يعتز بكما للغاية.

عسلية صبت الساكي شرب كل واحد منهم كأسين. بيّن الأمير أن الوقت ضيق ويجب أن يستعدوا لسهرة الليلة. رحلوا بعد تحيات عديدة بانحناءات صارت معروفة لمَن لم يعرفها من قبل.

***

(6)

احتفالات موسم فيض النهر الرئيسي. ساحة الفروسية الرملية الشاسعة، والقريبة من منحنى النهر. من الصباح نصبوا نصبة خشبية عالية. تمت كسوتها بالأقمشة والستائر الملونة. في المنتصف مقعد مريح للملك ومقعد للملكة على يمينه. وعلى يساره مقعد الوزير المتغوِّل. وعلى الجانبين كبار العائلات الأربع. والحرس الملكي المسلح بالحراب وسيوفهم في أغمادها يحيط بالكل. لا أحد غير الحرس الملكي يتمنطق بسيف أو حتى بخنجر.

الشمس في العصاري. الكل منتظر حضور الملك وحاشيته. والرعية بالمئات على بُعد من المنصة، احتشدوا في صفين على جانبي المنصة التي نصبت، وأمام المنصة صفان من الحرس الملكي. في جانب من الساحة سور خشبي عالٍ. أمامه أشكال خشبية على هيئة جنود. حضر الملك والملكة وخلفها الوزير. جلسوا وفي المنتصف أعلى قليلًا من غيرهما مقعدان واسعان مريحان للملك والملكة. ثم الأميرات ومعهن عدد قليل من أهم نساء وفتيات حاشية الملك والملكة، أخذن جانبًا وحدهن على مقربة منهن عدد من الجواري والخصيان. مكان الأمير عبد الرحيم الوسيم وابن خالته شكّور على طرف الجالسين. لا يأبه بهما أحد. الأميرة ذات الرِّفعة وسط عدد من الأميرات مختلفي الأعمار والجمال. من بعيد شاهدت شكّور. هزت رأسها تحية

لشكّور فأجابها. ابتسم عبد الرحيم فقد شاهد مَن يحبها صديقه وابن خالته، ولمح ابتسامتها وتحيتها.

طبول تدوي من بعيد، تشكيلات رمزية من تنويعات الجيش آتية، من بعد مرورها في أهم شوارع المدينة، ليراها مَن لن يستطيعوا الحضور في ساحة الفروسية، قائد الجيوش جَربال يتقدم الجميع على جواده. فارس قوي وسيم أنيق. حدث أمر غريب مستهجن لم يحدث من قبل، لم يستكف الرعية بالتحيات الفاترة، موضحين عدم الحماسة، بل ألقي على فرسان الجيش ثلاثة أحجار، واحد أصاب بيضة فارس فلم تؤثر فيه سوى بخضّة بسيطة، والثاني سقط على رقبة حصان فجفل وسرعان ما تحكم فيه فارسه. أما الثالث، فقد أصاب وجه فارس فكاد يسقط من على صهوة جواده. فسحبه زملاؤه بعيدًا، وعادوا به للمعسكر. لم يتمكن البصاصون من القبض على الذين ألقوا الأحجار. كما لم يكونوا سراعًا بما يكفي للوصول عند شيخ شاب وقف على صندوق خشبي، وألقى كلمات على مَن التفوا حوله بادئًا بلعن الملك الظالم عِلوِي، وأكد أن الله لا يرضى عن ملك ظالم ولا عن مملكة ترضى بالفقر على رعاياها. الملك تم نصبه ملكًا ليدير شئون العباد لا ليمتلكهم. الله لا يرضى أن يكون له عبد غني ومقابله ألف عبد فقير. الشيخ الذي يمدح في ملك ظالم، اعرفوا فورًا أنه من شيوخ النفاق. شيوخ يعبدون الملك من دون الله. فالمساجد

ليست للمواعظ فقط، المساجد لتحرير قلب وعقل الإنسان من عبودية البشر لعبودية الله الواحد.

تشكيلات الجيش دخلت الساحة، فرسان ومشاة. خلفهم صفوف من فرسان الحرس الملكي. الكل مشهر سلاحه سواء كان رمحًا أو سيفًا أو قوسًا وسهمًا. الرعية حماسهم ضعيف لما يشاهدونه. التصفيق فاتر وزغاريد النساء قليلة لا تحمل الفرحة المعتادة. انتهى طابور العرض، وأخذ الجند المشاركون جانبًا من الساحة التي خلت من الزحام. وإذا بحصان يقتحم الساحة وعلى صهوته القائد جَربال. جَربال كان ممسكًا برمح ويقذفه على الشخوص الخشبية البعيدة، فيرشق الرمح في أحد الشخوص والرعية تصيح في انفعال وتصفق له وتزغرد. ويعود مرة أخرى بسيفه ليضرب شخوصًا خشبية، رؤوسها عبارة عن ثمرات من القرع العسلي. فيقطع الرقبة فتسقط أرضًا لتتناثر ويسيل منها ما يخال أنه دم. ثم عدد من الفرسان المهرة يؤدون بعض ما أداه جَربال. بعدهم الرماة يطلقون السهام على الشخوص. وإن طاش سهم فهو يرتطم بالسور الخشبي العالي، وبهذا لا يخشى أن يستمر السهم ويصيب أحد الرعية.

بعض المبارزات الصورية تبين مدى براعة الفرسان والجنود. حتى دخل الغروب، فإذا بالمشاعل والمصابيح تنير منصة الملك وجوانب من ساعة الاستعراضات. الطبول والأبواق تنطلق في نغمات مفرحة. مجموعة من الفرسان كل منهم يحمل شعلة النيران تتصاعد منها في

قوة. يؤدون حركات خطرة على خيولهم. المحتشدون مثلما أعجبوا بقوة جيشهم، وفروسية قائد الجيوش جَربال، فهم يفتقدون الساموراي الياباني، يتساءلون عن اختفائه في هذه المناسبة. الساموراي كان يبدع في حركات القتال الخاصة به. وأسلوبه لا يستطيع أي فارس غيره أن يؤديه. بالنسبة لحميدو شامة، الفارس المعروف، يعرف الجميع أنه أُسر مع الأمير راسم عند قبائل البدو الصحراوية. انتهى الحفل بعد أن انقضى جانب طويل من الليل. وبهذا انتهت احتفالات اليوم الأول.

وقبل أن يمتطي شكّور حصانه، إذا بفتاة تمر بجواره وتدس في يده ورقة مطوية. وضعها سريعًا في ثنايا حزامه.

عاد عبد الرحيم مع شكّور لقصر الضيافة. شكّور أخرج الورقة وقرأها. كانت من الأميرة ذات الرِّفعة، تبلغه أن ليلة الغد الكل سيغرق في اللهو في حانات المدينة وملاهيها، فهي ليلة مرح وفرح وانطلاق في أغلب ما هو مرفوض طوال أيام العام. ليلة الغد ليلة رفع الحرج والادعاء بالاحتشام والوقار. وأنا لن أذهب لأفعل هذه الأفاعيل. التلاقي معك أمتع. انتظر في مكانك، سيأتيك مرسالي.

بعد تناول العشاء عبد الرحيم وشكّور يتباحثان فيما رأياه، خاصة استعراض الملك بغنى وقوة المملكة. ثم استغرقا في النوم.

فرسان البدو بعد تناول العشاء في مبناهم، ينتظرون الجواري لقضاء ليلة المتعة الأخيرة، ليلة الضيافة الثالثة بما فيها من نكاح وشراب. جاءهم العبد الباسم وقال لهم:

- لن تأتي الجواري لكم هذه الليلة.

بان الأسى على وجوه فرسان البدو، وأساهم لا يُقدم ولا يؤخر. قالوا في غضب مكتوم، بأن ليلة الضيافة الثالثة مع الجواري، هي حقهم! ضحك العبد وقال لهم:

- اطمئنوا، ليلة الضيافة الثالثة، تأجلت، فالجواري مشغولات في احتفالات فيض النهر. ستنتهي تلك الاحتفالات غدًا ليلًا. ستحصلون على الليلة الثالثة خلال هذا الأسبوع، وهذا أفضل لكم، لتكونوا قد استرحتم من ليلتين متعبتين، واشتقتم كثيرًا للجواري، وفي نفس الوقت لا تضيع منكم فرصة المشاركة في احتفالات ليلة الفرحة والطمأنينة بفيض النهر الكبير، وهي ليلة متخمة بالحركات والبدعات بما ليس له حدود.

وفي بداية الليل، أتى فطرون لعبد الرحيم وشكّور. قال ما الملابس التي ستذهبان بها للاحتفال الليلي؟ لم يفهما قصده فشرح:

- هذه الليلة كل المملكة تكون على هيئة غير هيئتها الأصلية. الكل واجب عليه أن يتنكر.الملك والملكة والأمراء والأميرات، وكل علية القوم، أيضًا يتنكرون في ملابس تخفي حقيقتهم أو تكاد، وينزلون لعامة الرعية. يقتربون ويلتصقون بهم، يحاورونهم ويضاحكونهم

ليعايشوهم ويشعروا بهم، أحيانًا يشاركونهم لقيمات طعام بسيطة ويتناولون معهم بعض كؤوس الخمر. والرعية أيضًا متنكرة تغطي وجوهها خاصة، لكي تبين عدم رضاها عن الملك والحاشية، وتخرج غيظها منهم، وفي هذه الليلة المباحة، يستمع الملك وعلية القوم لآراء الرعية، بل رأيهم في الملك وعائلته وحاشيته. وربما رجل طويل اللسان، أو امرأة منفلتة الاحتشام، تسب الملك وغير الملك، بدون أن يعرف أي منهم أن مَن يسبونه هو الملك متنكرًا! بيني وبينكم.. ربما عرف البعض أن هذا المتخفي هو الملك، ومَن حوله هم حاشيته، فيلعنونهم مدعين أنهم لا يعرفونهم. والملك والحاشية يعرفون أنهم يعرفونهم! أهذه أحجية؟ لا بل هذا هو واقعنا الغريب. هيا.. استعدوا. فوجئ بأن شكّور اعتذر لمرضه، مع أن هيئته لا تشي بمرضه! عبد الرحيم رفض ارتداء ملابس تخفي هيئته التي هو فيها. قال إنه سيذهب بملابسه وغطرته البدويتان.

قالوا له لا داعي للحصان، فالزحام سيمنع الحصان من حرية الحركة. رفض عبد الرحيم أن يرافقه فطرون الفأر. ذهب لوسط المدينة وحده. فزحام المتوجهين إلى ساحة التلاهي، سيبينون له الطريق. يعلم أن اثنين من البصاصين يتبعانه من بعيد، وربما فطرون الفأر بعدهما.

الليل والناس يتجهون لساحة التلاهي، مجاميع وأفراد، ذكور وإناث، والكل يضع أقنعة قماشية على وجوههم، وبعضهم يرتدي غريب الثياب. أصوات مزامير

وطبول وزغاريد وصياح المحتشدين تتزايد. وأنوار المصابيح والمشاعل تنير الطرقات شارع الحانات، شارع طويل عريض على جانبيه العديد من الحانات. ساحة التلاهي حيث الزحام الأشد، والأنوار الساطعة من كثرة مصابيحها المتنوعة، ومشاعلها المعلقة في أعلى الجدران. تتصاعد قرعات الطبول ونغمات المزامير، مع صياح الزحام. منصات خشبية نُصبت هنا وهناك، وبضع خيام صغيرة. زحام المقنعين يزداد مع الحشود التي تتقاطر من كل صوب. رجال ونساء وصبية في مطلع الشباب وبنات فائرات. الراقصات المحترفات على المنصات في رقص بواح أقرب لحركات النكاح. ومع تأثير الخمر وزحام الفرح والمرح، يصعد الهواة ليشاركوا في الرقص كما يحلو لهم. من الصاعدين الراقصين، رجال منهم مَن يرقص برجولة خشنة، ومنهم مَن يرقص رقصًا يشابه رقص النساء، فهم النوع الثالث الجامع ما بين صنفي الرجولية والنسوانية. صياح السكارى يشجع كل مَن يرقص. رواد الخيام التي على أجناب الساحة، يرتادونها ليدخنوا الحشيش في نارجيل لا تنطفئ. وخيام مخصصة لمَن يرغب في متعة مع امرأة أو صبي. الكل حر طالما القناع على وجهه يحميه من أي حرج. لا أحد يعرف أحدًا، ولا أحد يريد معرفة الآخرين.

عبد الرحيم يلفت الأنظار بوجهه غير المقنع. مَن يلاحظون ذلك ينظرون له في دهشة. الأولاد البالغون حديثًا والبنات ذوات النهود التي بالكاد نبتت، يشاغبون

بعضهم ويتلاحمون وينفصلون سريعًا، في مشاكسات تجمع ما بين الطفولة والصبا والبلوغ. يتواعدون في هذه الليلة الليلاء، ليتقابلوا وينالوا من بعضهم ما كان صعبًا قبل تلك الليلة. يحتضن رجل امرأة ويغرقان في قبلة ساخنة، الجموع تصيح لهما صيحات فرح وتشجيع. وهناك مَن يتحسس أنثى كبيرة أو صغيرة وهي راضية، فيضحكون ويشيحون بوجوههم ليتركوهما فيما هما فيه. حتى مَن يحتضن فتى من خلفه، لا أحد يغضب طالما الفتى يرضى ويريد هذا. فتاة مع فتاة، امرأة مع امرأة، كلها أمور بشرية مكبوتة، ولا بأس عليها في هذه الفسحة القصيرة من كل العام. هذه ليلة مباح فيها ما هو ليس بمباح طوال السنة. ليلة الإباحة والأباحة. المرفوض فقط هو الغصب للآخرين والخشونة والعنف.

وسط زحام السكارى. دائمًا ما يلاحظ الناس عددًا من الجنود اليقظين يسيرون بينهم، ينظرون في تخويف وتخوين هنا وهناك. ورغم ذلك ترتفع صيحات اللعنات والسخريات من الملك، ثم تختفي قبل أن يصل الجنود لمَن لعنوا وسخروا من الملك.

من خلفه، احتضنته أنثى تضع على وجهها قناعًا من القماش مرسومًا عليه وجه حصان. أبعدها عبد الرحيم رافضًا الذهاب معها. أخرى قناعها وجه بقرة، تدعوه لبيت هادئ. تركته بعد أن لعنته واتهمته بأنه ليس له في النساء. لم يسلم من بعض الفتية والبالغين الذين

يرغبون أن يمتطيهم ذكور مثلهم. يبعدهم في ضيق وهم يضحكون. خاصة الرجل الطويل العريض قوي الجسد، الذي فجأة أتى من خلف عبد الرحيم وسار بجانبه خطوتين، ثم فجأة أمسك بعضو عبد الرحيم. فزع وضربه بظاهر يده في وجهه فتألم الرجل وابتعد سريعًا.

الرقص على المنصات يشتعل ويغلب عليه حركات المضاجعة والغنج بصراحة متناهية. والكل أخذتهم حالة بحبحة ونشوة، خاصة من أسرف في شرب الخمر. صاروا كلهم في مودة نفسية وجسدية لا أحد يغضب من أحد. حتى مَن يرفض تقرب أحد، لا يسبه ولا يدفعه. فيما عدا الغريب الذي بينهم.. الأمير عبد الرحيم الوسيم، الذي لم يتحمل كل هذه المشاغبات التي تضايقه، ثم كانت نهاية صبره، حين تحسس رجل مؤخرته! التفت إليه ولكمه لكمة قوية ارتج لها الرجل وصرخ مبتعدًا.

بعدها ابتعد عبد الرحيم عن زحام ساحة التلاهي. فوجد نفسه سائرًا وسط زحام أقل في شارع الحانات. يسير مبتعدًا عن أي رجل أو امرأة تقترب منه. محتارًا أي حانة يدخل؟ فإذا بفطرون الفأر وكأن الزحام انشق عن عفريت قدير. يضحك لعبد الرحيم ويقول له في بساطة:

- يجب أن تدخل وتشاهد ما يجرى في حانة الشجرة.

- ولماذا هذه الحانة؟

- ادخلها وفي يمينها ستجد مكانًا عاليًا قليلًا وشديد الازدحام. أعطِ النادل قطعة فضية. سيتصرف ويجلسك في مائدة ترى منها كل شيء. وحين تخرج منها ستشكرني.

- لا أثق بك..

- ادخل تلك الحانة، وستكون لي من الشاكرين. هي بعد أربعين أو خمسين خطوة حين تدلف على يسارك.

ذهب الأمير عبد الرحيم للحانة. دخلها. صعد المنصة المزدحمة بالرواد المتنكرين السكارى. ناول النادل القطعة الفضية فأبعد النادل رجلًا أتعبه السكر وأجلس عبد الرحيم. طلب عبد الرحيم كأس خمر جيدة. ينظر هنا وهناك. على يمينه منصة وراقصة ضخمة ترقص بغنج مبالغ فيه. وفرقتها ضعيفة. الرواد لا ينظرون إليها. بل ينظرون لمنصة في يسار الحانة. حيث زحام رواد واضح أنهم أغنياء أغبياء في حالة سكر بَيِّن. رجل قصير ضعيف يحمله رجل قوي ويقذفه لرجل قوي آخر. الرجل الضعيف يصرخ مستغيثًا لكن الكل حوله يضحك. خاصة رجل نحيف متهالك، يتخفى في قناع لامع عليه رسم لأسد. واضح أنه ذو حيثية، الرجل حوله رجال ضخام يحمونه. ذو قناع الأسد يضحك ضحكًا صاخبًا على ما يفعلونه بالرجل الضعيف. بعد أن تلاعبوا بالقصير الضعيف. تركوه يهرب منهم ليحتمي بالرجل ذي قناع الأسد. يطمئن قليلًا حتى التف من خلفه رجل وضرب الضعيف على قفاه ضربة قوية، فعاد الجميع

للضحك على الضعيف الذي هو مجرد مسخرة. وقف رجل من وسط القاعة وألقى خطبة ليس لها داعٍ..

- يعيش الملك عِلوِي السُمَيِّد. فبفضله تتمرغ مملكتنا في النعيم. وبحكمته نعيش أفضل سنوات عمرنا، وبحكمته يعم السلام. برشادة الملك الرشيد عِلوِي السُمَيِّد نعيش في وئام. عاش الملك عِلوِي السُمَيِّد.

صاح الجميع حتى الراقصة الضخمة:

- عاش عاش عاش.

الرجل ذو قناع الأسد يصيح معهم.. عاش عاش عاش. ثم أخذ يضحك بعصبية فأجلسه مَن بجواره. واستمر الحال كما هو. راقصة ثم صياح ثم ضحك الرجل ذا الحيثية. لم يتحمل عبد الرحيم ذاك الملل. خرج وسار وهو يتوقع مَن سيأتيه، وجاء مَن يتوقعه ضاحكًا. سأله فطرون الفأر:

- هاها. هل عرفت الرجل الضعيف المسخرة؟

- الوزير المتغوِّل.

- والشاب القوي الذي يهينه؟

- جَربال قائد الجيوش.

- والرجل ذو قناع الأسد؟

- إنه الملك عِلوِي السُمَيِّد.

- اسمع أيها الأمير البدوي. جَربال بصفته جندي يعلن وسط جنوده، أنه لا يطيقك لأنك هزمت جيشه في صحرائك، وقتلت فيهم وأسرت. صحيح أنه لا يهمه ذلك الأمر، لكنه يريد اكتساب شعبية بين الجنود. فالجيش

يحملك مسئولية قتل الجنود وإهانة جيش المملكة، وفي أول فرصة، سيقتلونك شر قتلة. وللعلم.. فهم يطالبون الملك بقتلك في أول فرصة، قتلك وقتل قبائلك أيضًا.

- فليكرهوني كما يشاءون، لندع الحب والكره للنساء.

فطرون الفأر يسير بجانب الأمير عبد الرحيم رغم ضيق عبد الرحيم منه. قال الأمير:

- لم أنت مُصر على السير معي؟

- بعدما تزور حانة الهوى سوا. ستشكرني مجددًا.

- حانة الهوى سوا؟!

- أنصحك، ادخل هذه الحانة.

- ولم هذه خاصة؟ أهي مكيدة منك؟

- هاها. أبدًا. هي حانة ملهى. أرى أنها أفضل الحانات خمرًا وبها أجمل الراقصات. ثم إنها آمنة.

- وهل أنت يعنيك هذا؟

- طبعًا. الأوامر أن أحافظ عليك يا أمير البدو.

سارا معًا وسط الزحام. حانة أنيقة بابها ملون وأعلاه رسوم راقصات جميلات وخلفهن ضاربو الدفوف والعازفون. على جانبي الباب سيدتان مغريتان تدعوان زحام الناس للدخول، مؤكدتان أن بالداخل كل ما يرغبون فيه. دخل عبد الرحيم وحده. اختفى فطرون الفأر. عبد الرحيم لاحظ أن الاثنين اللذين يتابعانه من بداية الليل، دخلا بعده بقليل.

الحانة واسعة. الإضاءة واضحة. طاولات عديدة على الأجناب، ركن محاط بحاجز خشبي أنيق، طاولته ومقاعده أجمل. واضح أنه مخصص لعلية القوم، أو مَن يدفعون بسخاء. فتيات الحانة يحُمن حول هذا الركن ويرسلن البسمات والتلويحات للجالسين داخله، ومَن بداخله لا يهتمون بهؤلاء الفتيات. فأجمل فتاتين يجالسانهم ويلاغيانهم.

الكل في الحانة مُقنّع فيما عدا عبد الرحيم وبضعة رجال. عدد من فتيات المتعة شبه عاريات يتنقلن من طاولة لأخرى، يمازحن الزبائن ويضاحكنهم، ويسمحن لهم بملامسة أجسادهن. راقصة نصف عارية، تغطي وجهها بقناع ملوّن، ترقص على منصة في وسط الحانة. على جانب من المنصة، تجلس فرقة عزف تؤدي أنغامها في لخبطة. أحدهم على مزمار واثنان يمسك كل منهما بدُفٍّ صغير أنيق. ثم مطرب متوسط القدرات. الراقصة منهمكة في الرقص وهي تتأوه متقبلة لمسات ثلاثة رجال مخمورين، وفي نفس الوقت تشاغب الناظرين الجالسين حول أجناب الحانة. اتخذ عبد الرحيم مكانًا شبه متطرف لكنه يكشف بقية الأماكن. أتى النادل فطلب عبد الرحيم كأس خمر. ابتعدت الراقصة وفرقتها. اعتلى المنصة ما احتار فيه عبد الرحيم.. أهو فتى أم فتاة؟! إنه فتى في ملابس فتاة. يتقصع تقصع امرأة تُريد ويتلوى. ويصعد إليه في المنصة مَن يعجبهم هذا الفتى الفتاة. يراقصونه ويتحسسونه وهم في

ضحك صاخب، الرواد كلهم في حالة نشوة عارمة. وكلما اقترب رجل من عبد الرحيم ليشاركهم ما هم فيه. ينظر إليه عبد الرحيم في تهديد فيبتعد. أتته مغرية فأبعدها. فصار مَن حوله يسخرون منه ومن زيّه البدوي. الملل ضرب عبد الرحيم فدفع ثمن الكأس ليتهيأ للمغادرة. منعه من الانسحاب صيحات الزحام منادين.. بطاطا. بطاطا. بطاطا. فبقي ليرى ما هي البطاطا التي يستحثها الناس للظهور. تظهر راقصة ذات قناع حريري محكم يخفي الوجه وترك العينين الواسعتين. الراقصة تكاد تكون عارية فيما عدا وجهها! جسدها في معظمه عارٍ وشعرها منساب، والمغطى منه مغطى بما هو شفّاف. العنق ومعظم الكتفين وأعلى الصدر عارٍ تمامًا. ثم يتدلى الثوب ناعمًا كاشفًا كل شيء فيما عدا حلمتي الثديين، ثم شريطين يغطيان موضعيها الأساسيين، أمامي وخلفي. الساقان عاريتان والثوب الشفاف يتلاعب معهما خلال الرقص. بطاطا تسرع للمنصة وتصعدها وتندفع بعدها فرقتها الخاصة. خمسة يعزفون المزمار ويدقون الدفوف ويغنون، جلسوا تحت المنصة. ترقص في رشاقة وعنفوان، وتفوح من رقصها شهوة الجسد الأنثوي الضاري. الحانة وكأن نار الرغبة شبت فيها. بطاطا اسم ليس على مُسمى. هي رشيقة وكل ما فيها ثري. زيادة لحمها لا تعيق انسيابيتها الجسدية. بياضها ناصع. شعرها أسود فاحم ناعم يتراقص معها ومع ثدييها ومع مؤخرتها، ويصاحبهم صوتها الغنج الذي

لا يبين منه أي معنى، فقط تأوهات وحروف لا يفهم منها سوى ألم المتعة.

عبد الرحيم يشاهد تلك الرقصة التي خلبته. من يوم وصوله مدينة القباب لم تستثره امرأة سوى الآن. الآن سخن جسده حتى نسي مَن هم حوله، ولم يعد في باله وفي وعيه وفي باطنه سوى الراقصة بطاطا. هبطت بطاطا من منصتها لترقص بين موائد الشاربين. لونها الأبيض الناصع، كسته مسحة من لون الورد الأحمر. خلال رقصها تضرب أكتاف الرجال بمؤخرتها. دخلت الركن الخاص بالأصدقاء. وتميل عليهم بجذعها فيصير وجهها المقنّع مقابلًا لوجوههم، تضحك فلا يرون سوى عينيها، والأغلب لا يهمهم وجهها، بل جسدها فيتمعنون في ثدييها. عيناها النجلاوان اصطدمتا بعيني عبد الرحيم، لحظة وأبعدت عينيها عنه، ولم تنظر ناحيته مرة أخرى. تعمدت البعد عن مائدته مع رقصها الذي يحوم حول كل الموائد الأخرى. عبد الرحيم ركبه الغيظ. هل تبتعد عنه لأنه بدوي؟! ساعة زمن ولم تتعب بطاطا ولم يمل المشاهدون رجالًا ونساءً، فرقتها تنوع في الألحان والغناء المصاحب. فقط العرق غطاها وبياض جسدها صار ورديًا تمامًا. وانتهت الرقصة وقد شرب الحضور أضعافًا من الخمور. اختفت بطاطا وفرقتها.

مطرب يعتلي المنصة. عبد الرحيم عقلًا وقلبًا مع بطاطا. أشار للنادل ولما أتاه قال له:

- أريد أن أرى بطاطا.

- لا.

- لا؟!

- تريد أيًا من فتيات الحانة، ممكن. بطاطا لا.

-لم لا؟

-هي تمنع أن يأتيها أحد في حجرتها التي ترتاح فيها وتبدل ملابسها.

-سأعطيك قطعة فضية.

-ولا ذهبية. لا أريد أن يضربني حارسها.

ابتعد النادل بعد أن أعطاه عبد الرحيم حق خمرته. فترة وقام عبد الرحيم واتجه إلى الباب الذي يأتي ويخرج منه الراقصون والراقصات. وما كاد يأخذ خطوتين بالداخل، حتى تقدم رجل قوي ليمنعه. دفعه عبد الرحيم دفعة قوية ألقته بعيدًا. وقبل أن يقوم الرجل ليتشاجر مع عبد الرحيم. ألقى عليه عبد الرحيم دينارًا ذهبيًا. ثوانٍ والرجل المطروح ما بين القيام والدينار الذهبي، وبين تبيان مدى قوة عبد الرحيم. سمع عبد الرحيم صوتًا ينادي:

-لودفيج. لودفيج.

إنه صوت بطاطا. فدفع باب الحجرة ودخل. الحجرة ضيقة. الثوب الذي رقصت به بطاطا ملقى على كنبة مبللًا تمامًا بالعرق. حاجز قماشي وخلفه صوت بطاطا ما زال ينادي لودفيج. باب الحجرة انفتح وهرول منه لودفيج وهو يحمل قارورة عطر، فكاد يصطدم بعبد

الرحيم. لودفيج مذهول من تواجد هذا المتنكر في ملابس عربية. صاح فيه:

-لم أنت هنا يا أنت؟

-..

-أجب وإلا..

-لن أتزحزح قبل مقابلة بطاطا.

-غبي وقليل الأدب.

-احترس وأنت تخاطبني وإلا..

وهنا أطلّت بطاطا من فوق الساتر القماشي. بدون قناع. يا لجمال وجهها الذي لا يقل فتنة عن جسدها. جبهة عريضة تغطيها خصلة من الشعر الأسود. عيناها الواسعتان النجلاوان. الأنف سيف والوجنتان بياض ناصع وأسنانها اللؤلئية.

ضحكت وهي تنظر لعبد الرحيم في دلال. قالت:

-دعه يا لودفيج. بدوي لا يعي ما يفعل.

التف لودفيج حول الساتر. ومن صوت المياه تبين لعبد الرحيم أن لودفيج هذا يساعد بطاطا في الاستحمام! لودفيج في العشرينيات من عمره. أشقر الوجه ذهبي الشعر. أزرق العينين، جميل الملامح. طويل عريض الكتفين والذراعين. ما يعيبه طبقة شحم لينة. ملابسه أنيقة. لا يرتدي عمامة، بل طاقية غامقة بحواف مستديرة. سروال ضيق يصل للركبتين، ومن الركبتين حتى الخف، ما يشبه الجورب. وقميص خفيف بأكمام فوقه صديرية بصف أزرار، تغطي الحزام الذي يتدلى

منه سيفه. رجل يتمتع بقوة وجمال. رغم كل ما يمتلكه من قوة وجمال، هو مجرد خادم؟! لكن كيف لها أن تسمح لخادم أن يراها عارية، بل ويقوم بصب المياه عليها، وربما تدليك جسدها؟ ما هذه الأنثى الغريبة؟! ينتهي صوت صب المياه. فترة وتدخل جارية وتلتف حول الساتر القماشي. تعود خارجة وهي تحمل طشت مياه مليئًا بمياه الاستحمام. بطاطا تخاطبه من خلف الساتر:

-أنت عربي بدوي حقيقي.

-صحيح.

-ما اسمك؟

-لماذا؟

-إذن، لا داعي.

-واسمك؟

-ألم تسمع الكل ينادينا.. بطاطا. بطاطا. بطاطا؟

-اسم يظلم جمالك.

-هاها. كان من ضمن زبائن الملهى رجل يعشق البطاطا، لما شاهدني أرقص وأذهلته بجمالي.. صاح: يا للبطاطا الساخنة! فكان اسمي بطاطا.

-هاها. وهو ليس اسمك الحقيقي.

-بدوي ذكي!

-وهل يفترض الغباء في البدو؟

-أبدًا. يفترض فيهم الخشونة. أليس كذلك؟

-حياتنا خشنة في صحرائنا الخشنة. وإلا نفشل في استمرارنا في الحياة. لا نستطيع أن نكون في طراوة ورخاوة أهل الممالك النهرية.

-هاها. ترد السخرية بسخرية أيها البدوي. والآن هلا تركت حجرتي قليلًا.

خرج الأمير عبد الرحيم الوسيم، لكنه لم يغلق الباب، واربه قليلًا وبقي بجواره. فترة سكون ثم أصوات استمتاع! تأوهات! وقت ليس بالقليل والتأوهات وضحت ولم يعد هناك من شك. تأوهات أنثوية وذكورية ولم يتحمل عبد الرحيم. دخل الحجرة. بضع خطوات سريعة وكان على جانب الساتر كاشفًا ما خلفه. العجب. بطاطا وخادمها التي كانت تناديه بـلودفيج مضطجعان على أريكة عريضة وهما عاريان غارقان في حضن متشنج وقبلة ملتهبة. ظهر بطاطا ناحية عبد الرحيم المذهول، ما كل هذه الجرأة الفاحشة من بطاطا ومن خادمها؟! بقي في مكانه يتابع وهو في ضيق من عدم احترامهما له من ناحية. ومن ناحية أخرى أنه متلهف على جسد بطاطا فيرى الخادم هو مَن يحتضنها ويقبل على مضاجعتها! تقلبت بطاطا على ظهرها وخادمها الأشقر يستعد ليعتليها، ثم كانت المفاجأة المذهلة. الخادم ليس له عضو ذكري! إنه خصي! مجرد خصي! فكيف سيضاجع بطاطا أو غير بطاطا؟! لكنه استلقى بين فخذيها وغرقا في القبل ثم الأشقر يداعب ثدييها ويلحسهما ويمصهما، وبيمناه يدلّك أخص موضع

في جسد بطاطا. بطاطا تتأوه شبقًا. الخادم يمارس النكاح بطريقته. استمتاعه به عصبية وغيظ. وعندما ارتفعت وتيرة غنج بطاطا، وهي تتلوى وتتشنج وتصرخ. أخذ الخصي في الصراخ صرخات غضب وغل. وصلت بطاطا لذروتها بآهة تنطلق من بركان دواخلها. آهة التألم الممتع. وتوقف عندها الخصي وهو يصرخ بكلمات غير مفهومة، واضح أنه يسب ويلعن بلغته.

استلقى لودفيج الخصي بجسده القوي بجوارها دقائق. العرق يشر من جسديهما. كل هذا وعبد الرحيم يقف مراقبًا مدهوشًا غير مصدق ما يراه. بطاطا ولودفيج لا يوليان له أي انتباه. تقدم عبد الرحيم ناحيتهما ليصفع هذا اللودفيج ولا يعرف ماذا يفعل مع بطاطا عديمة الإحساس، إذا ببطاطا وعشيقها الخصي ينخرطان في البكاء. توقف عبد الرحيم قبل أريكتهما بخطوتين. بكاؤهما يتصاعد حتى يصل حد النشيج ثم لطم الخدود والصراخ. بطاطا تصرخ باسم لم يتبينه. ولودفيج يصرخ بكلمتين غريبتين. تعبا. لودفيج يملس على شعر بطاطا ثم يربت كتفيها ليهدئها بكلمات شفقة وأن أزمتها ستزول قريبًا، بعض كلمات غريبة تتخلل كلماته العربية. بطاطا تبادله تمامًا ما فعل، تربت رأسه وكتفيه وصدره، تواسيه بكلمات رقيقة. تلعن من أخصوه. عار الخصي على من اقترفه ولا ذنب عليه. تؤكد له أنه سيلاقي أخته في وقت ما يقدره الله. عادا واستلقيا متقابلين وغرقا في حضن ساكن. هدأ

جسداهما تمامًا. قاما من الأريكة وكل منهم يمسح جسد الآخر بمنشفة مبللة، ثم بمنشفة جافة. ارتديا ملابسهما في هدوء. ولم ينظر أي منهما لبعد الرحيم وكأنه غير موجود! اتجها للخروج من الحجرة. حاول عبد الرحيم إيقاف بطاطا. فوقف لودفيج بينه وبينها. ولما هم عبد الرحيم بإبعاده بالقوة، صاحت فيه بطاطا آمرة:

-لا يجرؤ مخلوق على فعل خشن مع لودفيج. أفهمت يا بدوي؟

أجاب عبد الرحيم:

-لكن.. لكن ما فعلتيه أمامي الآن مع هذا الخصي، ألا تخجلين؟

-ألا تفعل النكاح أنت؟ ألا يفعل كل إنسان هذا؟

-ليس أمام الغير.

-ملعون كل غير يحاصرني. ملعون نفاق الناس، كل الناس. والآن.. ابتعد عن طريقي.

-أريد أن أراكِ.

-ستراني يا بدوي. لكن حين أريد أنا.

-كيف؟

-ليس من شأنك. أنا سأتصرف. ثم.. لا تتذاكى وتتبعني. أنا سأجدك.

عبد الرحيم في غيظ يسير في شارع الحانات المزدحم، هذه الأنثى أثارته جنسيًا وأخذته من شهوته أخذًا. ثم تفعل المضاجعة مع خصي! وأمامه بدون أي خجل؟! ولماذا كل هذا البكاء بعد هذه المضاجعة الغريبة

المشتعلة؟! يا لها من أنثى! بل يا لها من مملكة غريبة في أهلها غريبة في أفعالها كما هي غريبة في خيراتها! عاد للتفكير في بطاطا. حيرت تفكيره كما حيرت نفسيته.. ما حالها وما وضعها وماذا وراءها؟ لم يهتم بمجموعة أخرى من الجنود المسلحين يتابعون سكارى شارع الحانات. عبد الرحيم في حيرته هذه وجد فطرون الفأر يسير بجانبه ضاحكًا. بان على وجه الأمير عبد الرحيم القرف من فطرون، لكن فطرون لم يأبه بهذا. قال:

-ألم أنصحك بدخول حانة الهوى سوا؟ شاهدت تلك المرأة الجميلة بطاطا؟

-ابتعد عني.

-أبتعد عنك؟! كيف؟ أنا أنصحك نصائح ممتازة، وأنت تبعدني؟ لماذا أنت قاسٍ كل هذه القسوة يا أمير الصحراء؟

-قلت ابتعد عني. لكن.. ما بال هؤلاء الجنود القلقين؟

-حفظ النظام. والخشية من بعض الرافضين للتلاهي.

-اشرح أوضح.

-أتباع شيوخ الشدَّة والرفض. إن وجدوا فرصة لتدخلوا في هذه الليلة، وأفسدوها ولو بإراقة الدماء.

-والآن. ابتعد عني.

-أمرك. لكن..

-قلت ابتعد عني.

-سأسير خلفك.

خطوات عبد الرحيم سريعة. ابتعد عن لُب الزحام وفطرون الفأر خلفه. ابتعدا. أربعة جنود ينتظرون بحصانين. ركبا واتجها لقصر الضيافة. الأمير عبد الرحيم لا يجيب أسئلة فطرون. بعد فترة حين صمت فطرون، فجأة سأله الأمير عبد الرحيم:

-وأنت يا فأر، تعمل لحساب من؟

-هاها. سؤال ليس في أوانه. ستعلم قريبًا يا سمو الأمير.

الأمير عبد الرحيم في حجرته بقصر الضيافة. يتمدد في ملابس النوم. لم يهتم بفرسانه الذين رأى بعضهم في زحام ساحة التلاهي. ولم يهتم بغياب صديقه وابن خالته شكّور، الذي هو الآن في أحضان الأميرة ذات الرِّفعة. فقط يهتم بتلك الراقصة الرائعة بطاطا. لن يعود لمضارب قبيلته حتى ينال جسدها ويغوص في دواخلها. إنها امرأة. امرأة بالفعل بكل فتنتها وغرائب أفعالها من رقص مدهش ونكاح أغرب من الخيال. إنها امرأة نارية الأنوثة، وبطاطا ليس اسمها. هذا ظلم بشع. تُرى.. ما اسمها الأصلي؟

***

(7)

شكّور وذات الرِّفعة، اختلفت ليلتهما هذه عن بقية الليالي. ذات الرِّفعة تنسمت أبخرة الحشيش لوقت أطول مما كانت تفعل. ولما أتاها شكّور تجرعا من الخمر الكثير. ضحكا أكثر من كل مرة، فالليلة هي ليلة التلاهي. وبعد حكي ورغي وفرفشات، ناما معًا عاريين يتحسسان بعضهما ليقضيا وطرهما هكذا مثل الصبية والصبايا الخائفين من فض البكارة. لكن هذه المرة مقاومتهما ضعفت، خاصة ذات الرِّفعة. لم تعد تغلق نفسها لتساعد شكّور على التماسك. انفتحت هي فاندفع هو. فصعدت نفساهما للسقف واخترقتاه للأجواء العليا. ثم صرخا معًا صراخ النشوة الحياتية المسكرة المرّة. ولما هدءا. نظر شكّور إلى ذات الرِّفعة بنظرات خجل وخزي واعتذار. ابتسمت له وملست على شعره وقالت:

- إنه أنا. أنا لا أنت. ضعفت أنا أولًا فضعفت أنت ثانيًا. يا حبيبي ويا من صرت عشيقي. سطوة الجسد طاغية صارخة ونهاياتها باهظة. لم أكن أتمنى أن أضعف ونتضاجع، لكن جسدي صار له رأي آخر واستطاع فرضه علينا.

- لم أشعر بنفسي كيف كنت خارجك فصرت داخلك!

- ولا أنا. شكّور.. الجسد حين يجوع للنكاح جوعًا هائلًا، ينفجر. يااه يا لعذابات جسد امرأة محرومة!

لم ينم عبد الرحيم حتى عاد شكّور مرهقًا بآثار الخمر التي تجرعها، والنكاح الذي أنهكه، السعادة واضحة على

محياه. جلس على سريره في حالة انبساط ورضاء. لا يريد أن يضطجع. نظر لعبد الرحيم وقال له:

- لا توجد امرأة مثل ذات الرِّفعة.

- ..

- عبد الرحيم. عبد الرحيم الوسيم. أقول لا توجد امرأة مثل ذات الرِّفعة. لولا خشيتها على ابنها الأمير راسم. يااااه. يا لها من امرأة! امرأة تعرف كيف تسمع. تعرف كيف تحنو. كيف تحتضن الرجل. كيف تشعره بأنه الوحيد وليس هناك مثله. كل هذا ببساطة غير مفتعلة. يااااه يا لها من امرأة! عبد الرحيم.

- نم يا شكّور. غدًا نهارًا سيكون نهار التفاوض مع هذا الملك الهُزؤ وحاشيته المتهتكة. نم يا شكّور.

في الصباح أتاهما مقص المزين وهو في غاية التعب من ليلة أمس. زعق عليه الأمير عبد الرحيم. يجب أن يفيق فهو وشكّور ذاهبان لقصر الزمردة لملاقاة الملك وحاشيته للنقاش في الفدية والجزية السنوية. يجب أن يكونا في أجمل وأفضل حال.

خلال انشغال مقص المزين مع أميره عبد الرحيم. أتى مرسال من الملك عِلوِي السُمَيِّد. سلم الأمير عبد الرحيم رسالة. فضها شكّور. الملك يعتذر عن عدم استقبالهما هذا النهار. المقابلة ستكون غدًا لظروف طارئة في المملكة. وأن على الملك أن يذهب لمقاطعة بعيدة لأن واليها المقرب إليه توفي فجأة.

حضر فطرون الفأر. تناول معهما الإفطار رغم ضيق الأمير عبد الرحيم. خلال تناول الطعام وبعض العصائر، صرّح فطرون بأن الملك لم ينطلق لولاية بعيدة كما قال كتابه، الحقيقة أن الملك في وعكة من ليلة أمس. وسيبقى في جناحه حتى يسترد عافيته. يضحك فطرون الفأر ساخرًا. ولما قال له الأمير عبد الرحيم:

- أتسخر من ملكك يا حقير؟

لم تنتب فطرون أية توابع من حرج أو غيظ أو أي مشاعر. بل ضحك وقال في بساطة:

- مهمتي أن أطلعك على الحقيقة. وكل القصر يعرف أن الملك متعب من ليلة فجور أمس. وليس هو فقط، بل وزيره المتغوِّل. فمن كثرة الصفعات والركلات التي نالها على وجهه وقفاه ومؤخرته، فهو أيضًا سيبقى أكثر من يوم راقدًا في مسكنه. وغدًا على أكثره ستعرف مدينة القباب بما أقوله لك. وتعرف بما دار في حانة الشجرة. هل تعرف أن كل من كان في حانة الشجرة من الحرس الملكي؟

- خمنت هذا.

- وهل تعرف أنني أوصيت حارس الباب بأن يتركك تدخل؟

- لا.

- هذا ما كان. فسيدي الذي أعمل لديه وسألت عنه أمس. طلب مني ذلك. يريدك أن تعرف ما بداخلنا.

- ولماذا يريدني أن أعرف؟

- إن قابلته اسأله. ثم كل العاملين في قصر الزمردة، يعرفون أسرار الملك والحاشية. ويعرفون كل شيء، حتى المتسللين ليلًا.

اضطرب شكّور وضحك فطرون الفأر. قال الأمير عبد الرحيم سريعًا:

- والآن ماذا سنفعل في طول هذا النهار؟

- مطلوب مني أن أذهب معكم في الجبل الأخضر. جبل به غابات من الأشجار والنباتات. جبل رائع يليق بكل محب عاشق. هاها.

- إذن سنذهب إليه، بشرط.

- ماذا يا أمير؟

- أن يذهب معنا غيرك.

- هاها. أمرك يا أمير البدو.

بعد ساعة زمن، عبد الرحيم وشكّور وكل فرسانهما، ومعهم أربعة من فرسان حرس القصر. ذهبوا جميعًا ليروا هذا الجبل الأخضر الذي تبين لهم أنه جبل متوسط الارتفاع سهل الصعود إليه، قمته تكاد تكون مستوية، به من الجمال المتنوع الكثير. ومن أعلاه يرون نهر الولاية الثالثة. عادوا عصرًا ليستحموا ويتناولوا الغداء. ثم ملل وأي ملل. فرسان البدو يتمنون حضور العبد الباسم ومعه الجواري. شكّور ينتظر الليل ليذهب لذات الرِّفعة، فبعد أن أفاض فيها وأفاضت فيه، فلن تستطيع إلجام جسدها من بعد صهيله القوي وانطلاقه.

عبد الرحيم باقٍ لا يعرف ماذا يفعل، وكيف يسأل عن الراقصة بطاطا.

ليلًا على حصانه أسرع عبد الرحيم لحانة الهوى سوا. الشوارع هادئة. الحانة هادئة. لا زحام. النادل عرفه. ابتسم ساخرًا. تناول كأسين وأعطى النادل ثمن الكأسين مضاعفًا. لكن النادل لم يقل ما يريح عبد الرحيم. بطاطا تأتي في الأعياد والمناسبات، وأحيانًا بدون تحديد وبدون مناسبة، تظهر بطاطا في الملهى وترقص. ولا رجل من رواد الملهى استطاع نكاحها سواء بإغراء مال وإن كان ذهبًا، ولا أفلح من حاول إجبارها على منح جسدها، فتابعها الأشقر قوي، وهي أيضًا جبارة.

عاد عبد الرحيم خائبًا فوجد فرسانه أمام القصر جالسين يتسامرون ويغنون فانضم إليهم. الغائب منهم اثنان. شكّور العاشق. وعاقص المريض. ومرت تلك الليلة ثقيلة على عبد الرحيم. وفي الفجر أتى شكّور حاله مثل حاله أمس. فوجد عبد الرحيم حاله مثل حاله أمس. سأله عمّا به. اضطر عبد الرحيم أن يحكي عن الراقصة بطاطا، التي ربطته بجسدها وحشاها. فكرا كيف يجدانها. ثم بقيا ساكنين.

في الصباح الباكر، قلقهما تضخم بسبب تأجيل لقائهما بالملك للمفاوضة؟ تكلم شكّور، قال إن الأميرة ذات الرِّفعة هي أيضًا في غاية القلق. تخشى من الوزير المتغوِّل. فربما يدبر أمرًا وبيلًا. قالت إن الأميرة مرمرة أيضًا في قلق، فهما معًا لا تثقان في الملك عِلوِي

السُمَيِّد. وتكرهان جَربال قائد الجيوش، وتحتقران الوزير المتغوِّل الذي يتحكم في كل أسرار المملكة ويعلم كل خباياها، فجهاز البصاصين لديه كثيرون وخطيرون. أكدت أنهما ذهبا سويًا لجناح الملك عِلوِي فلم تجداه. وجدتا الملكة فوز، وحذرتاها من أي مؤامرة تعرض الأمير راسم للخطر. الملكة تدافع عن زوجها، وتتهم الأميرتين مرمرة وذات الرِّفعة بأنهما تظلمان زوجها عِلوِي وتقللان من شأنه. خلال الحوار الذي اشتد واحتد، أتت الأميرة نورة بنت عِلوِي وفوز. شاركت مرمرة وذات الرِّفعة القلق على الأمير راسم. دموعها هطلت مدرارًا خشية على خطيبها وزوجها المأمول. احتضنت الملكة فوز ابنتها الوحيدة وأقسمت بعدم وجود أي مؤامرة تضر بالأمير راسم، وإن أباها عِلوِي يحب الأمير راسم، ويعمل على عودته سالمًا. فهو خطيب وسيكون زوج ابنته الوحيدة، فكيف يفعل شيئًا يضر بالأمير؟ نورة قالت إنها ستراجع أباها الملك. وكان بكاء الأميرة نورة ما يجلب بعض الطمأنينة للأميرة ذات الرِّفعة والأميرة مرمرة.

في اليوم الذي يليه، جاءهم مرسال الملك يؤجل المقابلة ليوم ثانٍ. الحجّة أن الملك لم يعد من الولاية البعيدة. بعد أن ذهب المرسال، أتى فطرون الفأر يضحك ضحكته السمجة الغلسة، ثم اقترح مكانًا جميلًا ليمرحوا فيه طوال النهار. عبد الرحيم في ضيق وغضب من تأجيل اللقاء مع الملك، نهر فطرون الفأر وقال إنه

سيبقى اليوم داخل القصر. حاول فطرون أن يلح، فما كان من الأمير عبد الرحيم إلا أن سبه وسب أهله وطرده من القصر كله. ابتعد فطرون الفأر وهو يضحك.

عبد الرحيم وشكّور في حيرة ساخنة. ماذا وراء تأجيل اللقاء ليومين؟ لقد حذرنا حميدو شامة من الوزير المتغوِّل ومن خباثته. هل يدبرون لنا مكيدة؟ وكيف يجرؤون على ذلك والأمير راسم في حوزتنا أسير؟ أنهى عبد الرحيم الحوار بالتأكيد..

- هل يلعب الوزير المتغوِّل على أننا أيضًا أسرى لدى المملكة، مقابل أسيرنا الأمير راسم؟ لكن هناك فرق، فلن تتحمل عائلة الملك مقتل أميرها راسم، فيذهب العرش إلى غيرها. لا أظن أن يكون المتغوِّل بهذا الغباء. غدًا يجب أن نكون في قصر الزمردة. لن أسمح بالتأجيل أكثر من ذلك. وإن أصر الملك على التأجيل. سأهدده.

في هذه الليلة حكى عبد الرحيم لشكّور عن الراقصة بطاطا، عن رقصها المثير ومضاجعتها لخادمها المخصي. شكّور يتعجب مما يسمع، ولولا أنه يعلم صديقه وابن خالته عبد الرحيم، لما صدّق ما يُقال.

وفي الصباح التالي. امتطى الأمير عبد الرحيم الوسيم حصانه، وبجانبه شكّور وخلفهما فرسان البدو. الكل في أبهى صورة خاصة الأمير الوسيم. بعد فرسان البدو. فطرون الفأر مع أربعة من الحرس الملكي، فالأمير عبد الرحيم، سبّ فطرون الفأر أمام الجميع، فلم يعد يطيق فطرون الفأر، ولا ينسى له أنه خاطبه أكثر من

مرة بلقب أمير البدو في استهانة. ورغم كل تلك الإهانات التي قذف بها الأمير عبد الرحيم على أم رأس فطرون الفأر، فطرون الفأر يضحك للأمير ولم يحس بأي إهانة.

دخل الأمير وشكّور القصر. المقابلة في الجناح الملكي بحجة أنه متعب من مشوار العودة من الولاية البعيدة! بهو متوسط مذهب. صاح عبد يقوم مقام الحاجب:

- الأمير البدوي عبد الرحيم الوسيم والفارس شكّور.

الملك بدون تاجه وملابسه أبسط من ملابس الرسميات. يجلس على وسادة ويستند على أخرى. جسده يزداد نحولًا والغمامة التي تسبح على ملامحه تتكاثف بما تحمل من دلالات على متاعب دواخله. الوزير المتغوِّل على يمينه وبعده قائد جيوشه جَربال. عدد من العبيد والجنود متناثرين هنا وهناك. تقدم الأمير عبد الرحيم وبجانبه شكّور. ألقيا السلام وجلسا على وسادتين مهيأتين لهما. لم يترك الأمير عبد الرحيم الوقت يضيع. سأل غاضبًا عن تأجيل المفاوضة؟ الملك تبسم فتبسم المتغوِّل وجَربال. قال المتغوِّل:

- لا سبب. هي الظروف. إليك يا أمير البدو هذا الخطاب من صديقك الفارس عاقص. أسرع عبد وأخذ الرسالة وأعطاها للأمير عبد الرحيم الذي تناولها وناولها لشكّور. فضها شكّور وقرأ. عاقص يبشر الأمير بأنه كاد يشفى من مرض معدته. والطبيب قال له ثلاثة أيام

على الأكثر ويعود في صحة جيدة كما كان. قال الملك عِلوِي السُمَيِّد:

- بعد ثلاثة أيام سيكون عاقص قد أتاكما، ونبدأ في المفاوضة. وخلال هذه الأيام، مملكتنا ممتلئة بالأماكن الجميلة، وأيضًا بالجواري الجميلات. ستقضون أيامًا أخرى في متعة ليس مثلها متعة.

لم يتقبل الأمير عبد الرحيم هذا التأجيل. طالب بالتفاوض من الآن. قال المتغوِّل:

- في هذه الأيام سترى ما لم تره عين. وبناء عليه يمكنك طلب فدية وجزية عاليتين. هذا في مصلحتك. لتتأكد أن مولانا الملك عِلوِي رجل كريم. ومملكة الأنهار السبعة، خيرها كثير وذهبها يماثل في كثرته صحرائكم. اصبر.

شكّور تدخل وقال إن أهلهما سيقلقون على تأخرهما، وربما ساورتهم الهواجس، ونحن قلقان على سلامة الأمير راسم. فاقترح قائد الجيوش جَربال فكرة تريح الكل، قال:

- إذن، نرسل فارسًا من فرسانك إلى قبائلكم يطمئنهم. وسيأخذ معه الكثير من الخيرات.

أكمل الوزير المتغوِّل:

- وتكتبان لأهلكما رسائل ليكونوا أكثر اطمئنانًا، وأيضًا تحملان رسائل من الأميرة ذات الرِّفعة أم الأمير راسم، ومن الملك عِلوِي السُمَيِّد، ومن الأميرة نورة خطيبته. وبذلك يطمئن الجميع.

الملك عِلوِي أردف:

- وسنجهز لمرسالكم ثلاثة جمال. جمل يركبه وعليه هدايا من مملكتنا له شخصيًّا. وجمل مُحمَّل بالطعام والشراب بما يكفيه في رحلته الطويلة. وجمل به هدايا لعائلة الأمير عبد الرحيم الوسيم، ولعائلة السيد شكّور.

قال القائد جَربال:

- طالما عندكم الأمير راسم بن سِلْوِي السُمَيِّد. إنه غالٍ جدًّا علينا.

أكمل الملك عِلوِي ما قاله قائده:

- وتواجد راسم بخير، يطمئنني على أن العرش سيبقى في ذريتي وفي عائلتي. فلا تقلقا.

الأمير عبد الرحيم وشكّور صمتا. لكن جلبة تزداد في ممرات الجناح الملكي. القلق ارتسم على وجه الملك، وكأنه يتوقع الآتي.. صوت أنثوي قوي يأمر الحراس بالابتعاد. صاح العبد الذي يقوم مقام الحاجب:

- الأميرة ذات الرِّفعة والأميرة مرمرة.

دخلت امرأتان في ثقة وإمارة. شكّور ذهل. إحداهما هي الأميرة ذات الرِّفعة. أما الأمير عبد الرحيم الذي ضربه العجب، فكاد يصيح دهشة وفرحة وجنونًا. الأميرة الثانية هي الراقصة بطاطا!

الأميرتان وقفتا أمام الملك الذي زلزله الارتباك. وبان على وجهه الخوف. الأميرتان معًا تصيحان فيه وتتهمانه بأنه يتلاعب بحياة الأمير راسم، وأنه يؤجل المفاوضة حتى يربك البدو ويخيفهم ولا يهمه حياة الأمير راسم.

الملك يشير برأسه ناحية الأمير عبد الرحيم وشكّور، هذا حتى تتوقف الأميرتان عن تقريعه أمامهما. لم تفلح إشارته. فتكلم محاولًا طمأنتهما لكنهما مستمرتان في تقريعه. صاح الملك آمرًا أن يسمعانه:

- إنها الظروف يا أميرات. الظروف. سيكون ابننا الأمير راسم بيننا قريبًا. قريبًا جدًا. إنه ابن أخي وخطيب ابنتي وملك المملكة من بعدي. أرجو منكما الهدوء وتركي أعمل.

الأميرة ذات الرِّفعة صمتت وهي تنظر إلى الملك في غضب معلن. أما الأميرة مرمرة، فقد قالت في تهديد:

- لن ننسى اغتيال أخي الأمير سِلْوِي السُمَيِّد. ولن ننسى مقتل أختي الأميرة جوهرة. إياك ثم إياك يا عِلوِي أن تستهين بحياة الأمير راسم.

قالت قولتها هذه وأمسكت بذراع الأميرة ذات الرِّفعة وسحبتها وخرجتا في قوة لا تلين. أما شكّور في ذهوله. أما الأمير عبد الرحيم ففي عجب العجاب، لا يصدق أن تلك الأميرة القوية التي تهدد الملك، هي الراقصة بطاطا! لا. لا. أمر مستحيل. هل بطاطا الراقصة شبيهة لهذه الأميرة؟ لا. لا. مستحيل أن يكون الشبه بمثل هذا التطابق!

الملك عِلوِي السُمَيِّد في حرج من مسخرته من الأميرتين أمام الغريبين البدويين. طلب من العبيد الفاكهة والعصائر. فأتت صواني بلورية عليها الفاكهة، وأكواب مترعة بالعصائر. أكلوا وشربوا وتحاوروا وكأنه

لم تحدث مسخرة لملك. ثم استأذن الأمير عبد الرحيم وخرج مع شكّور. على صهوتي جواديهما لم يتكلما. ولما شاهدا فطرون الفأر يقترب منهما على جواده. استل الأمير عبد الرحيم سيفه وهدد فطرون الفأر:

- أقسم بالله إن رأيت وجهك هذا اليوم، لأقطعن رأسك.

فابتعد فطرون الفأر فورًا وهو خائف ولم يبتسم، فوجه الأمير عبد الرحيم يبين عزمه على تنفيذ تهديده. ثم أمر الأمير عبد الرحيم فرسان حرس الملك بالابتعاد، فهو وشكّور يعلمان الطريق. بمجرد أن كانا وحدهما. قال شكّور:

- أنا ذهلت من دخول حبيبتي الأميرة ذات الرِّفعة، أنت يا عبد الرحيم، بان على وجهك الذهول. فلماذا؟

- شكّور..

- نعم.

- أتعلم مَن التي كانت بجوار الأميرة ذات الرِّفعة؟

- لا.

- إنها الراقصة بطاطا.

في حجرتهما يتحاوران عن هذه المفاجأة. وعد شكّور صديقه عبد الرحيم بأنه سيسأل الأميرة ذات الرِّفعة عن الأميرة مرمرة، وهل هي بالفعل الراقصة بطاطا؟!

النوم هجر عبد الرحيم. لن ينام والأميرة مرمرة تأتي له في خياله وترقص رقصها الخلاب المغري، يتخيلها وهي تضربه بمؤخرتها في كتفيه، وتميل برأسها له

لتواجهه بجمال وجهها وحلاوة فمها ولؤلؤ أسنانها، وتعطي له الفرصة ليتمعن في تدييها. وهذا لم يحدث في الحانة، فقد كانت تتحاشاه. اضطر لترك الحجرة واللف والدوران في قصر الضيافة. في الدور العلوي وجد حجرات ذات شرفات رفضها من أول يوم أتى هنا. لكن يوجد باب جميل موصد، سأل عنه من قبل، فقالوا إنه يفضي لجناح خاص. جناح لا يُفتح إلا بأمر من الملك أو من أمراء العائلة المالكة. عاد عبد الرحيم لحجرته. يستعيد ما شاهده من عملية نكاح غير معقولة بين بطاطا وعبدها المخصي لودفيج.

قبل الفجر أتى شكّور بالخبر اليقين. بالفعل وهو في أحضان الأميرة سألها عن الأميرة مرمرة. وكيف أنها تشبه شبهًا تامًا راقصة اسمها بطاطا، وأن الأمير عبد الرحيم وقع في عشق تلك الراقصة. تبسمت الأميرة ذات الرِّفعة وقالت:

- إنها هي. وهذا العجب له ألف سبب. لكن لن أحكي أنا. الأميرة مرمرة أعجبت بالأمير عبد الرحيم من سماعها عنه. وحين كانت ترقص عرفت أن الجالس في الحانة بملابس بدوية، هو الأمير عبد الرحيم. تستريح مع الغرباء كثيرًا، وكأنهم ليسوا من ضمن ظالميها. تحب أن تسمع عن بلادهم. وتحكي معهم بانطلاق. والأمير عبد الرحيم، عليه أن يسمع حكايتها منها هي، لا منك أنت أو مني أنا. فحكايتها طويلة معقدة. شيقة مؤلمة. دموية غريبة.

إذن، إنها هي. ففر عبد الرحيم فاه غير مصدق مع أنه كان متأكدًا أنها هي. ثم ابتسم وكاد يرقص حين قال له شكّور إن الأميرة مرمرة والتي هي الراقصة بطاطا، معجبة به وستراه قريبًا.

صباحًا. شغل عبد الرحيم نفسه بالفارس الذي سيعود للقبائل حتى يطمئنها. كان الذي وقع عليه الاختيار هو الفارس عَجْرَد. فعجرد هو وشكّور مَن قطعا الصحراء بين مضارب قبائلهم والمملكة مرتين. عجرد غضب لأنه سيفارق المملكة قبل أن ينال ليلة الجواري المؤجلة، لكنه رضي عندما علم أنه سينال هدايا ثمينة خاصة به وحده.

ثلاثة جِمال قوية. امتطى عجرد أولها. وخلفه جملان مربوطان بجمله. انطلقت الجمال الشامخة الثلاثة حتى خرجت من قصر الضيافة. عبد الرحيم رفض أن يزور أي مكان مهما وصفوه بالجمال والغرابة. قال إنه سيستريح هذا اليوم. ذهب شكّور والفرسان ليجولوا في أنحاء المملكة.

في الليل تركه شكّور ليتسلل لعشيقته الأميرة ذات الرِّفعة. احتضنته ذات الرِّفعة وأجلسته وسمع منها..

- كل مَن في قصر الحرملك علم بحبي لك. وهم متأكدون أن تلك العلاقة لا يشوبها نكاح. يفهمون أن ذات الرِّفعة لن تسقط من رفعتها وتسلم جسدها بدون زواج، ولن تسلم جسدها لبدوي وهي أميرة. هاها. علموا بشيء وغابت عنهم أشياء. وكأن لذات الرِّفعة جسد

ملائكي وليس مثل غيره من أجساد البشر! كأن ذات الرَّفعة قوية من مجاميعه. يا لهم من سذج! بعد فقد سِلْوِي، صار سلواي هو تنسم عبير الحشيش. أستقوي بالحشيش لأتناسى قليلًا اغتيال زوجي، ثم وقوع ابني وحيدي راسم في الأسر.

- أحبك كما لم يحب رجل امرأة من قبل.

- أحبك كما لم تحب امرأة رجلًا لا من قبل ولا من بعد.

عاد شكّور فوجد أن عبد الرحيم لم ينم إلا لمامًا. تبعات العشق ظاهرة عليه، والتلهف على لقاء من ضربته بجمالها وغرائب أفعالها مستمر. وهكذا نهار اليوم التالي مثل سابقه. لكن الليلة لم تكن مثل سابقتها. جاء الأشقر لودفيج ليقابل عبد الرحيم. طلب منه الصعود للدور الثاني من القصر، وأن يبقى في أي حجرة يفضلها، فالأميرة مرمرة ربما تأتيه هذه الليلة، وإن لم تأتِ، ستأتي في ليلة الغد أو ليلة بعد الغد. لودفيج ترك الأمير مصدومًا، وقبل أن يفيق، كان لودفيج على حصانه وخلفه حارسان قد اختفوا.

يلف ويدور في الدور العلوي من القصر متلهفًا حائرًا غاضبًا، لِمَ لا تؤكد متى تأتي؟ لماذا تقول الليلة أو الليلة التالية، أو الليلة التي تليها؟ أتتلاعب بي؟ مفترض وأنا الأمير الذي عشقتني نساء كثيرات، مفروض أن أرفض ملاعيب تلك المرأة مهما كانت درجة فتنتها وجاذبيتها، مفروض أن ألقنها درسًا، فليس الأمير عبد الرحيم

الوسيم، مثل بقية الرجال الذين ترقص لهم في الحانات؟ لن أنتظرها وسأهبط لحجرتي، وإن جاءت لن أكترث وسأقول لها:

- الليلة لا أريد التلاقي. ربما ليلة الغد، أو الليلة التي بعد ليلة الغد.

هبط عبد الرحيم للدور السفلي. دخل حجرته. استلقى محاولًا النوم، فلن تتلاعب به امرأة سواء كانت بطاطا أو مرمرة. لن يركع مهما كانت جميلة مغرية غامضة. دقائق وقام من سريره وصعد لأعلى وانتظرها رغمًا عن كبريائه وعلو مكانته. وكلما سمع وقع حوافر حصان أو أكثر، يسرع للنافذة وينظر، فيجد أن أحد فرسانه، أو اثنين أو ثلاثة من فرسانه كانوا خارج القصر وعادوا. لم تأتِ الجميلة المغرية وأتى شكّور وصعد له. لم يخبره عبد الرحيم بما أبلغه به العبد الأشقر لودفيج. في حالته هذه، يشعر بالخجل من ضعفه الذي لا يليق به. يحس بالعار من حالته المزرية وخضوعه لمن عشقها، فيكون مطيعًا لمن تفرض موعد حضورها عليه.

***

(8)

الليلة التالية جاءت المرأة التي تجمع داخلها امرأتين متناقضتين، لا تليق كل منهما بالأخرى. جاءت الأميرة مرمرة. عبد الرحيم في حجرة لم يخترها، هي ما صادفته. ألوان جدرانها وأثاثها ما بين البني والأصفر، ربما ارتاح للونها المقارب من لون رمال صحرائه. يتحرك عبد الرحيم من جدار لجدار مثل سبع محبوس. جلس على وسادة عالية. مال بجذعه وأسند رأسه على كفيه، وكوعيه مرشوقين في أعلى فخذه. صوت نفسه يلومه لضعفه المزري، وصوت قلبه يدافع، فيكفي أن المرأة المنشودة أرسلت له وقالت إنه أعجبها، فلم اللوم يا نفس؟ صوت وقع أقدام حصانين. لقد حدث هذا سواء من حصانين أو حصان واحد أو أكثر من مرة، ولم تكن هي. إنها أصوات كاذبة. بقي عبد الرحيم كما هو. انفتح الباب فرفع الأمير عبد الرحيم رأسه ليجد الخصي لودفيج الأشقر يقف مبتسمًا. هب عبد الرحيم واقفًا وهو يسمع لودفيج الأشقر يقول له:

- أميرتي آتية.

خرج لودفيج وخلفه عبد الرحيم. الجميلة تصعد الدرج في تأنٍّ ودلال وتعالٍ، رداؤها كالبحر الرائق أزرق يتموج مع حركتها. شعرها الأسود الغزير كعادته حر منساب. قلب عبد الرحيم عواصف تضربه وتهز كيانه. لقد أتت مَن بهرته وشغلته وحيرته. ولما وصلت الجميلة

المغرية لنهاية الدرج، كان عبد الرحيم يقف ينظر في وجهها نظرة عبد لسيدته. وقفت أمامه وقالت:

- مساك الله بالخير يا أمير الصحراء.

- مساكِ الله بالخير يا أميرة مملكة الأنهار السبعة.

- أفضل أن تناديني بمرمرة.

- وأنا اسمي عبد الرحيم.

- الوسيم.

- وأنت.. مرمرة الرائعة.

ابتسمت مرمرة والتفتت إلى لودفيج الأشقر الذي جاءها وقال:

- هل تبقين في حجرة ما، دقائق قليلة حتى نرتب الجناح؟

هزت رأسها وقالت لعبد الرحيم:

- أي حجرة كنت فيها؟

أشار لها فتقدمت وهو خلفها ودلفا للحجرة البنيّة. سارت الجميلة الرائعة هنا وهناك وعبد الرحيم الوسيم واقف في انبهار غير مصدق أن كل هذا الجمال الأنثوي متجسد أمامه. نظرت إليه..

- أنجلس على السرير قليلًا؟

- نعم.

جلسا. عطرها فوّاح. ينظر لوجهها. لعنقها، ثم خجل من التمعن في ثدييها وأعلاهما ظاهر. ابتسمت وقالت له:

- يا عبد الرحيم. واضح أنك فارس شديد البأس. وشخصية قوية هائلة. أليس كذلك؟

- ربما.

- هاها. وأنك مغرم بالنساء. ولا تقُل ربما.

- ربما.

- هاها هاها. أتابع كل حركاتك من لحظة وصولك إلى مملكتنا.

- كيف؟

- فطرون الفأر.

- ماذا؟

- فطرون الفأر. الذي هددته بالقتل.

- كنت أظنه تابعًا للوزير المتغوِّل.

- هو كما تقول. لكنه يعمل تحت إمرتي أكثر من تبعيته للوزير المتغوِّل. فطرون كان من أهم مساعدي الوزير المتغوِّل، ولما تبين للمتغول أن فطرون ذكي خبيث وبصاص هائل، ذا مقدرة وطموح، غضب عليه وقلل من مكانته، خشية أن ينافسه ويسرق منه منصبه كوزير للبصاصين.

- غريبة.

- المال يا عبد الرحيم. الفضّة. الذهب. أنا أعطي فطرون الفأر أكثر مما يناله من المتغوِّل. لهذا يبلغني بكل ما يتجسس عليه، وأنا أقول له الجانب الذي يبلغ به المتغوِّل.

- ذكاؤكِ خطير.

- المال أخطر.

- وجمالكِ أخطر من مالك.

- هذا صحيح. بدون تواضع جمالي عندي أهم من مالي وأهم بكثير من ذكائي. وشهوة الرجال في جسدي ولهفتهم عليه. الأربعة أستعين بهم لأدافع عن نفسي ضد..

- ضد من؟

- ضد تجبّر وتكبّر الرجال. ضد أنانيتهم وقسوتهم.

- غريبة.

- نحن في دنيا الرجال فيها طغاة على النساء. لذلك على النساء أن يستغللن كل إمكاناتهن، ليردعن الرجال ويكسرن غرورهم وجبروتهم، لكن هذه حكاية تستأهل جلسات وجلسات.

- مستعد أن أسمعك يا أميرة، يا مرمرة.

- أولًا تحكي أنت عن صحرائك كيف هي وكيف تكيفتم معها، وعن بدوك كبشر وطموحاتهم. ما وضع المرأة في خيامكم؟ بعدها تسمعني أنا. فإن تحملت آرائي سأحكي لك عما بنفسي وعما في عقلي، وإن ترفعت كرجل غبي، فلن أبوح لك بمكنون نفسي.

دخل لودفيج الأشقر وقال:

- الجناح الملكي مستعد لكما.

قامت الحلوة مرمرة وخرجت من الحجرة البنية وخلفها عبد الرحيم. صوت من بعيد يعلن محذرًا:

- الأميرة مرمرة. والأمير عبد الرحيم الوسيم.

سارت الأميرة مرمرة في ممر واسع طويل. والأمير عبد الرحيم خلفها وبجانبه لودفيج الأشقر. عبد الرحيم أفاق لما هو فيه. لا يليق به أن يسير خلفها، فهي أميرة وهو أمير. وهو رجل وهي سيدة. فأسرع وسار بجانبها. عند باب الجناح الملكي عبدان يقفان وقد أحنيا رأسيهما لما اقتربت الأميرة منهما، قال أحدهما:

- شرفت قصر الضيافة يا أميرة المملكة.

ابتسمت لهما الأميرة ودخلت، وخلفها الأمير عبد الرحيم ثم لودفيج الأشقر. بهو متوسط الاتساع. في مواجهتهما شرفة عريضة. وسائد عديدة متناثرة. أطباق الفاكهة. تقدمت الأميرة وخلفها الأمير ناحية الشرفة. وقفا خلف سور الشرفة. حديقة واسعة غناء تظهر منها جوانب بسيطة، وهي التي تنيرها مصابيح، أغلب الحديقة في ظلام الليل. لكن رائحة الفاكهة الطازجة وأريج الورد متصاعدة إليهما.

سريران صغيران لينان قريبان من بعضهما، علوهما لا يزيد على ذراع. جلست الأميرة على السرير الأيمن وتركت جسدها يتمدد فوقه. فكان نصفها العلوي يعلو وكأنها بين الجلوس والاضطجاع. فعل الأمير عبد الرحيم مثلها على السرير الأيسر. وضع لودفيج الأشقر بينهما منضدة عليها أطباق بلور مُحمّلة بالفاكهة والشراب. استأذن لودفيج فأذنت له الأميرة بالانصراف. سأل الأمير سؤالًا يحيره:

- هذا الأشقر له مكانة عندكِ عالية! لماذا؟ ولماذا هو الذي يحتوي جسدك؟

ابتسمت الأميرة ابتسامة رضاء..

- هو عبد عندي. ولم يكن عبدًا في الأصل. لودفيج من أرومة عظيمة. خطفه وخصاه المتوحشون. لودفيج معي من صغرنا. تعودت عليه وصار جسدي لا يضطرب من اقتراب جسده. ثم أنا عرضت عليه أن أحرره من العبودية أكثر من مرّة.

- هل يرفض الحرية؟

- عتقه من وجهة نظره لن يكون حرية، بل عبودية مذلة أكثر.

- كيف؟

- أصبح مخصيًّا وغريبًا عن وطنه وإن نال حريته ونال أموالًا، ويستطيع حينها أن يعود لبلاده، فكيف يواجه أهله وهو مخصي؟! وإن تحرر وبقي معي خادمًا حرًّا. سيكون خادمًا برغبته، وهذا ابتلاء. لكن أن يكون عبدًا رغم أنفه، فهو في هذه الحالة مضطر وليس مخيرًا. بالإضافة إلى أنه يحبني حبًّا جمًّا، ويجد ترطيبًا لقطع عضوه في أحضاني.

الأمير البدوي في حيرة. نظرت إليه الأميرة مرمرة باسمة..

- اسمعني! أنا الآن لست أميرة وأنت لست أميرًا. أنا مرمرة وأنت..

- عبد الرحيم.

تناولا بعض حبّات من الفاكهة، ثم كل منهما أخذ كأسًا من الشراب. حديث بسيط يتجول بهما هنا وهناك. أعجبها أن عبد الرحيم لم يتمعن في جسدها. صمتت مرمرة وهي تنظر للأفق المظلم. انحدرت دمعتان على خديها. لاحظهما عبد الرحيم فصمت احترامًا لصمتها. قالت مرمرة في جدية:

- اعذرني يا عبد الرحيم. فأنا لست كما يظنني مَن يعرفونني معرفة سطحية بسيطة. أعماق نفسي أعمق من البحور، وأشد حرقة من أعماق البراكين.

مدت يدها وأمسكت بيده.

- والآن.. تسمع حكايتي، أم تُرى تفكر فيما يفكر فيه الذكور أولًا وأخيرًا؟

عبد الرحيم في حيرة. لكن حيرته لم تأخذ سوى ثانية. قال:

- حكايتك. فما هو بداخلك من مشاعر أهم عندي.

ابتسمت مرمرة راضية وقالت:

- أنت رجل ذكي أريب. أعرف أنك متلهف على جسدي، فأنا أحس بالرجال وأشم رائحة رغبتهم الذكورية لينالوا جسدي. وأنت رغم شهوتك وتلهفك على جسدي، اخترت الصبر والاستماع. إن كنت قد اخترت الجسد، لم أكن سأعطيك مطلبك. بل كنت سأعطيك شجارًا باللسان وباليد.

تنهدت مرمرة فكأن لهبًا هبّ من جوفها. ثم توالت دمعاتها. أحس بها عبد الرحيم. إنها مأساة إنسانية ليس

كما ظن أنها إنسانة منطلقة ترقص وتستمتع، ويعلو صوتها على أخيها الملك في شجاعة. إنها امرأة في بلاء مؤلم. عبد الرحيم ينظر إليها وهي تنظر بعيدًا. قال:

- صدقيني أنا متشوق لأعرفكِ أنت، بكل ما فيك. فاحكي، احكي كما يأخذك الحكي، فأنا مستمع جيد. خاصة للناس الذين ليسوا كعامة الناس. الناس الذين يحملون نفسًا هي تساؤلات محيرة، ولا يعجبني الناس المعتادين على رتابة الأمور، ناس القطيع.

- إذن اسمع حكايتي. حكايتي التي بدأت وأنا طفلة. طفلة أميرة في قصر ملكي فاخر. كنت مدللة، دلالًا لا يمكن وصفه. إلا أن الحزن غشاني بعد موت والدي الذي لم أشبع منه. ثم مرض أمي التي أصبحت قعيدة مسكينة. أمي وأختي التي تكبرني بسنوات هما أقرب وأحب الناس عندي. وإن كان الحزن عندي بدأ بوفاة أبي ومرض أمي، فإن مأساتي بدأت بعد مقتل أختي الأميرة جوهرة. جوهرة الأميرة التي أحبت وأحبها كزبرة السائس. آآآآه.

***

(9)

قصر الزمردة فخم عديد الحجرات والإيوانات. والعائلة المالكة تعيش فيه في زخم من الرفاهية والخيرات. وُلِدت الأميرة مرمرة فكانت آخر من أنجبهم والداها. وعلى رأي أمها.. آخر العنقود سكر معقود. نالت الدلال المُصفى من أبيها الملك نفعي وأمها الملكة، وكأنها هي الملك والملكة معًا، ولها أن تلقي بأوامرها وعلى الملك والملكة والمملكة كلها أن تنفذ أوامرها. مرمرة الطفلة هي البهجة وهي تجري في ممرات وإيوانات القصر. أكثر ما يعجب مرمرة ويعجب من حولها، يحدث في حفلات حريم القصر، ومجموعات من النساء تضرب الدفوف والعيدان وتعزف على الناي. والرقص المتنوع يملأ الجو بهجة. الأخت الأولى الأميرة جوهرة، التي تكبر مرمرة بسنوات أربع، أي ما زالت طفلة هي الأخرى، جوهرة في هذه الحفلات تشارك في العزف على الناي، وعزفها لا يقل جمالًا عن الجارية المتخصصة في العزف. أما الطفلة الصغيرة مرمرة، فهي تسرع فتتوسط المساحة المخصصة للراقصات وترقص بين الجواري المحترفات، وتقلدهن فتجلب الضحك والعجب من قدرتها على الرقص.

صدمة مقتل أبيها الملك نفعي، صعبة على كل أولاده، خاصة البنتين الصغيرتين، وعلى الأخص أصغرهم الطفلة مرمرة. مرمرة وضح أن الصدمة رجّتها من دواخلها. فعادت جوهرة تتساءل في حيرة مؤلمة.. لم

كل هذا القتل؟ لم مملكتنا غارقة في الدماء؟ وانتقل التساؤل المؤلم لمرمرة. أمهما أصلًا لم تكن صحتها جيدة من بعد إنجابها لابنتها الأولى. فأتوا بمرضعة، سيدة قوية ذات سمنة واضحة لترضع وتعتني بالوليدة. وبعد إنجاب مرمرة، صحة الأم ضعفت أكثر. لم تستطع إرضاع مرمرة أيضًا، فأتوا لها بالمرضعة التي أرضعت جوهرة من قبل. الأم أصبحت قعيدة بعد مقتل زوجها الملك. ماتت الأم ومرمرة مازالت طفلة. أختها جوهرة شاركت في الاهتمام بأختها الصغرى قدر استطاعتها، فالأميرة جوهرة طفلة هي الأخرى وإن كانت تكبر مرمرة بسنوات قليلة. وبسبب موت الأم، بقيت المرضعة في القصر حتى بعد فطامها لمرمرة. فالأميرتان تحبانها كما تحبهما هي. مع المرضعة، تم تخصيص عبد مخصي صغير لكل منهما. الغرض هو الدفاع عن الأميرتين تحت أي ظروف داخل قصر الحرملك، والحرص عليهما من شقاوة الطفولة من عدْوٍ ووثبٍ وخلافه. بعد بضعة أيام أبعدت جوهرة عبدها الصغير في إصرار. مرمرة اختارت خصيًا أشقر قويًا. أعجبت بشقرته وقوة جسده. الخصي الأشقر يكبرها بعامين. اختارته لشقرته التي تبين أنه أجنبي عن المملكة. الخصي الأشقر أحب الأميرة مرمرة من بداية ضمّه لها. أحبها حبًا جمًا. وإن كانت شهرته باسم الأشقر، فهي تناديه باسمه الذي يحبه هو.. لودفيج.

الأميرة جوهرة، من بداية طفولتها وهي شعلة نشاط وتفجر مواهب وانطلاقات حرة في الحياة. تسبق عمرها بسنوات. هي نسيج وحدها. مندهشة من كل شيء وتريد أن تعلم كل شيء وتجرب كل شيء. تحب وتحترم عائلتها خاصة والديها، لكنها عصية على النصح الذي يُفرض عليها. جوهرة هي التي أثرت تمامًا على أختها الصغرى مرمرة. فبعد مقتل أبيهما وموت أمهما، لم تترك أختها الصغرى في صدمتها التي لخبطت نفسها. أخذتها لتعيش معها في حجرتها. وحجرتها بها مكتبة فيها عشرات الكتب. جوهرة عودت مرمرة على القراءة وحب الفنون، وسماع عزف الناي عندما تعزف عليه جوهرة. أخذت مرمرة معها هنا وهناك. أخذتها جوهرة معها لبيت الخط، لتتابعا جمال الخط العربي وتصويره وكأنه رسوم فائقة الجمال. أخذتها لأماكن النجارة والتبليط وحتى معسكر الجنود.

الأختان الصديقتان انطلقتا تستمتعان بوقتهما، وإن لم تنسَ لا هذه ولا تلك فقدان والديهما. البنتان أحبتا كل مَن حولهما، وأسبغتا عطفًا على الجميع. لذا فكل مَن في القصر يحبانهما ويدللانهما. حديقة القصر الخلفية والمخصصة للعائلة المالكة فقط، حديقة شاسعة لعبتا فيها وعرفتا كل خباياها. وكما تدربت جوهرة على ركوب الخيول، فهكذا فعلت مرمرة. وفي حظيرة الخيول، بدأت المأساة التي قصفت عُمر الأميرة جوهرة

بطريقة وحشية مفزعة، وأمرضت نفس مرمرة ولم تجعلها أنثى سوية.

في حظيرة الخيول، يعمل عبد الراضي السائس، وهو خبير في عمله ويرأس كل عمال الحظيرة الملكية التي تسع ألف حصان مخصصة للعائلة المالكة والحرس الملكي ومائة حمار لزوم النقل. عبد الراضي أتى بابنه الصغير كزبرة ليعمل معه ويعلمه كل ما يخص الخيول. الأميرة جوهرة وصلت لعمر ثلاثة عشر. كزبرة يكبرها بعامين فقط. وهو الذي شارك والده في تدريب جوهرة على ركوب الخيل، وهو الذي كان يصاحبها في التريض في الحديقة، هي على حصان وهو على حصان. جلسا سويًا تحت أشجار الفاكهة وتناولا ثمارها الطازجة معًا. وتسابقا ولعبا معًا. كزبرة ذكي طيب. يعلم أنه مجرد مساعد السائس الكبير. ويدرك أن الفتاة التي معه، هي أميرة وابنة ملك وملكة وأخت أمراء. وأبوه أعاد له هذا الكلام أكثر من مرة ليحترس، لذا كزبرة لم يرفع التكلف بينه وبين الأميرة لدرجة أن يتساوى معها في لعبهما. هي لا يهمها كونها أميرة وهو سائس ابن سائس. تشجع كزبرة على مشاركتها ركوبهما الخيل واللعب بالمساواة. استجاب لها قليلًا. سعدت به أكثر لما وجدته ذكيًا، ويقرأ ما تعطيه من كتب، ثم يناقشها نقاش طفلين لكتب ثقيلة عليهما معًا. في سنة الأحداث المأساوية، وصلت جوهرة لعمر الرابعة عشر. وكزبرة في السادسة عشر. شاركهما ببساطة حب عميق نما مع الأيام وأخذهما في

حالة وجدانية صافية. حبهما طفولي في جوانب منه، عميق مثل حب البالغين وقد دخلا بالفعل في سن البلوغ. الأميرة الطفلة مرمرة هي مَن تتابع وتحس بقصة الحب التي تجري كثيرًا أمامها. أما عبد الراضي فلم يحس بقصة حب ابنه والأميرة، لم يتخيل أن هذا سيحدث، فابنه كزبرة عاقل رزين، ولن يضع نفسه في جنون مثل هذا الجنون، معرضًا نفسه وأباه للعقاب الشديد.

منذ عام مضى، والملك عِلوِي يدفع جوهرة دفعًا لتتقبل محاولات لوز للتقرب منها. يشرح لها ضرورة تنفيذ اتفاق الزيجات المشتركة بين عائلتيهما، السمايدة والنوارنة. العائق أن الأميرة الصغيرة جوهرة تحتقر لوز لتكبّره وغروره، وهذا عذر واضح يعلمه الجميع بما فيهم الملك عِلوِي، والعائق الثاني أنها تحب السائس كزبرة، وهذا مالا يعرفه أحد سوى أختها الصغرى مرمرة.

لم تستجب جوهرة لمحاولات تقرب لوز منها، ولم تلن لمحاولات أخيها الملك فترضى لطلبه لها بالموافقة على لوز. ضاق بها وأمر بصفته أخاها الأكبر والملك، بأن تتزوج لوز ويكون زفافهما خلال هذا العام. وحجّته أن مصلحة المملكة تستدعي زواجها من شباب عائلة النوارنة. بكت جوهرة فلم يرحم أخوها عِلوِي دموعها. الأميرة التي لم تتعد الرابعة عشر من عمرها، لم تجد أبًا يحميها، ولم تجد أمًا تدافع عنها. وأخوها الأمير سِلْوِي حاول حث أخيه الملك ليشفق على أختهما، لكن الملك

رفض الإصغاء، حجّته أن جوهرة وصلت لسن الزواج، فلم العطلة؟ وهو يعلم أن أخاه الأمير سِلْوِي لن يجابهه، فسِلْوِي أخذ عهدًا على نفسه بعدم الاصطدام بأخيه عِلوِي. سِلْوِي احتضن أخته جوهرة وقال إنه لن يستطيع الصدام مع أخيهما الملك، وإنه شخصيًا لا يحب ولا يحترم لوز، لكن كل ما يستطيعه الآن، تأجيل الزفاف للعام القادم، بحجة أنه في هذا العام تكوني قد تقبلتِ المُقدّر عليك، وربما رأيك في زوج المستقبل يتغير للأفضل.

المرضعة السمينة، التي ساهمت في تربية الأميرتين، وتصاحبهما أحيانًا في التريض بالحديقة، أحست بما في باطن أميرتها جوهرة، فحذرتها من مغبة ملاصقتها لكزبرة، وتريضها على صهوة حصانها وبجوارها كزبرة على صهوة حصانه، فلم يعودا طفلين صغيرين. لم تستمع الأميرة لها، فاختفت المرضعة من القصر، خشيت إن انكشفت تلك العلاقة، أن يعاقبوها على أنها أخفت ما تعرفه.

أفلتت جوهرة من زفافها من لوز هذا العام، لكن العام القادم سيأتي ولن يتأخر. فاندفعت في علاقتها بحبيبها السائس كزبرة، وصارت تدفعه دفعًا ليقابلها في حجرة نائية ضيقة بأطراف الحديقة الملكية، تجاورها نخلة عتيقة غير مثمرة. جوهرة نظفت الحجرة وفرشتها بنفسها، بدون أن يعلم أحد سوى أختها مرمرة، فهذا سرها هي وحبيبها كزبرة. أصلحت الباب الصغير والكوة

العالية التي تكاد أن تكون ثقبًا. وأهم ما في تلك الحجرة سرير صغير بسيط يستوعبها مع حبيبها كزبرة. أطلقت على الحجرة اسم عش الحب. عيب الحجرة الذي ليس له حل، الحرارة العالية، خاصة أن الصيف في أشد أوقاته قيظًا. فكانت الحرارة سببًا لها ثم له أن يخففا ثيابهما. في السنة المتاحة لها، قررت جوهرة أن تستمتع بتلك السنة قبل رحيلها لقصر لوز المتكبر الذي لا تطيقه، وهو يعلم أنها لا تطيقه، لكنه مصر على الزواج منها، فهي مجرد وسيلة له لاحتواء العرش.

قبل كل لقاء، جوهرة تملأ الحجرة بالخيرات من اللحوم والفاكهة والعصائر والنبيذ. سمحت جوهرة لأختها الصغيرة مرمرة أن تساعدها، لكن رفضت أن تسمح لها بأن تحضر أي لقاء يجمع بينها وبين حبيبها السائس، لكنها لم تقدر قدرة الصغيرة على التسلل تشوقًا لتعلم وتفهم ما بين أختها الكبيرة والسائس، فشاهدت مرمرة أكثر من لقاء جنسي طفولي بين أختها وعشيقها على سريرهما الصغير، واندهشت من أفاعيلهما خاصة لحظات قمة النشوة والرعشات والتقلصات التي تنتابهما، وتألمت حين تراهما يبكيان حسرة على الظروف التي تمنع دوام تلاقيهما. ولم تفهم الصغيرة غير ما تراه.. تلامس جسدين أنثى وذكر والرعشات والتقلصات والآهات ثم البكاء.

في ليلة لم تتحمل الأميرة ما بها من شوق ولهفة، وغيظًا مما ينتظرها مع لوز الوقح، فدفعت كزبرة دفعًا

ليجامعها ويفض بكارتها. بعد أن استراحا وتبسمت ومسحت دماء عذريتها في رضا، وألقت بنفسها على ظهرها ممسكة بيد حبيبها المذهول مما فعل. هي تنظر لسقف الحجرة الواطئ فرحة، وهو أبعد وجهه ناظرًا للباب القصير باكيًا من هول ما فعله. رفع بصرة للكوة الضيقة وكأنه يريد الهرب من حبيبته التي فضّها، ومن خجله من ضعف نفسه. الأميرة تهدئ كزبرة السائس، وتؤكد له إن كان ما تم خطأ، فهي التي تتحمل الخطأ لا هو. وهو يبكي لائمًا نفسه على ضعفه وإقباله على جسدها ليفضها. يحتضنان بعضهما ويبكيان هذا الحب الذي لا محالة موءود.

كزبرة يعلم أن الأمور لن تمر بخير. لم يخشَ على نفسه، كان خائفًا على والده كبير السن. في ليلة وهما جالسان يتناولان العشاء في حظيرة الخيول، وفي حرج وخوف شديدين، أبلغ كزبرة أباه بما بينه وبين الأميرة جوهرة، لكنه لم يصارحه بأنه فض بكارتها. في البداية لم يفهم أبوه ما قاله، هذا خارج توقعه، خارج تصوره. ثم مع نظرات ابنه المنكسرة فهم ما تم بينه وبين الأميرة، فارتعب رعبًا. مال عبد الراضي على جانبه وأغمي عليه. عندما أفاق قرر أن عليه هو وابنه ترك العمل وهجر القصر في يوم الغد. كزبرة يطلب لنفسه أسبوعًا حتى يقنع الأميرة جوهرة. عبد الراضي بكى له مستعطفًا ليهجر القصر معه. كزبرة ليطمئن قلب أبيه، أقسم إنه سيهجر العمل والقصر في غضون ثلاثة أيام.

ترك الأب العمل والحجة أنه كبر في السن وصار لا يستطيع العمل. عبد الراضي ترك مدينة القباب كلها، وسافر بعيدًا ليبقى عند ابنة له متزوجة هناك، على أن يلحق به ابنه كزبرة خلال أيام.

الذي تولى مسئولية الحظيرة بعد عبد الراضي، لم يكن يستريح لكزبرة، يحسده على صداقته للأميرة جوهرة، ويزداد حسدًا وحقدًا حين يجد كزبرة وقد ارتدى ملابس أنيقة وقت راحته، يعلم أن الأميرة جوهرة أهدته هذه الملابس. هذا الحاقد هو مَن أبلغ عبدًا من العبيد وحذّره إن لم يبلغ الملك بهذا العار الذي سيضر سيرة عائلة السُمَيِّد. وأن كزبرة الآن في أحضانه الأميرة جوهرة في حجرة نائية حقيرة.

إنه القدر والمكتوب. قدر ومكتوب قررا ألا فكاك من فجيعة ستدك القصر وتزلزله. من بداية النهار المشئوم كان سِلْوِي خارج المدينة في مهمة من مهامه العديدة، لتهدئة قطاعات من الرعية.

الملك عِلوِي هاج هياجًا شديدًا. كيف لأخته الأميرة أن تعشق وهي ما زالت طفلة؟ كيف لها أن تعشق بدون أوامره؟ وتعشق سائسًا حقيرًا؟ يا للفجيعة ويا للعار اللذان سيضربان سمعة عائلة السمايدة. سأل وتأكد أن ما سمعه قد سمعه فعلًا. سأل أين هما الآن؟ فقال:

-قولوا لمن جاءنا بالنبأ. إن كان كاذبًا فقطع الرقبة نهايته. وإن كان صحيحًا سأهبه عطايا، لكن إن كان صادقًا وخبر هذه الفضيحة تسرّب خارج القصر، فقطع

رقبته أهون ما سيلاقيه. أما تلك الطفلة المدللة وسائسها القذر، فسأعطيهما عقابًا شديدًا، وبعدها آمر بقطع رأسي السائس الحقير وأبيه الأحقر.

في هدوء ذهب عدد من العبيد يحملون الملاط الجاهز، والكثير من الطوب المجهز للبناء. تسللوا لمكان الحجرة. الحبيبان قضيا وطرهما معًا وبكيا معًا وأكلا وشربا وناما، ناما وداخل كل منهما سعادة بحبيبه وحسرة أن هذه اللقاءات ستنتهي قريبًا. وليقللا من قسوة الحزن في قلبيهما الأخضرين. أكثرا من جرعات النبيذ، عله يساعدهما على الاستمتاع أكثر ويخمد نار الحزن ولو قليلًا.

العبيد أغلقوا باب عش الحب من الخارج، ثم بنوا خلفه مباشرة بابًا طوبيًا إضافيًا. الكوة سدوها بحجر ثم كسوا كل الكوخ بما فيه الباب والكوة بالملاط. السقف صعدوا على جوانبه ووضعوا الملاط عليه في هدوء. عاد العبيد للملك يبلغانه بتنفيذ المطلوب. الملك مطمئن أن الأميرة والسائس معهما طعام وشراب بالزيادة. إذن فليرعبها بهذا العقاب ثلاثة أيام لا تنقص ولا تزيد، ثم يفرج عنها ويكون عنادها قد انكسر، وتتبع نصيحة أبيها الملك.. ألا تكسر هيبة العائلة بالتواضع الزائد مع الرعية، فالهيبة هي الحاجز الدفاعي الأساسي عن الملك وعائلته.

كزبرة استيقظ وبه تعب وضيق صدر. أيقظ حبيبته الأميرة. حاولا الخروج، لكن الباب لا ينفتح! فزعا

ورئتاهما تحشرج لا يعلمان لماذا؟ وعلما عندما رأيا الكوة مسدودة. انشغلا أولًا في محاولات كسر الباب ونجح كزبرة في كسره. فوجئا بالباب الطوبي الجديد! إذن، لقد وقعوا في فخ رهيب. العرق بللهما تمامًا وزاد اختناقهما أكثر وأكثر.

الحرس الملكي يحيطون بالحجرة ويقفون بالمرصاد لأي أحد يحاول فك حصار مَن فيها. أوامر الملك أن تبقى الحجرة مغلقة لثلاثة أيام متواليات. في العصر الأميرة مرمرة قلقة، لا تعلم لماذا تأخرت عليها أختها. ذهبت لعش الحب. رأت ما رأت وفهمت أن أختها سجينة بالداخل. فاندفعت ناحية ما تعرف أنه الباب. منعها الحرس وأخذوها بعيدًا رغمًا عن أنفها وصراخها الحاد، وقولها أختي لم تتناول إفطارها. هي جوعانة حرام عليكم. منعوها من الخروج لحديقة القصر. طوال اليوم ثم اليوم الثاني والثالث، ومرمرة طفلة تبكي وتحاول الوصول لعش الحب لتطلق سراح أختها، فيمنعونها ويطردونها هي وعبدها الصبي الأشقر لداخل القصر ليبكيا معًا.

الأميرة الطفلة لا تستطيع مقابلة أخيها الملك. انتظرت مستيقظة لبعد منتصف الليل. أسرعت لجناح أخيها الملك. تسللت ثم اقتحمت حجرة نومه وأيقظته. بكت عنده مبينة خشيتها من جوع أختها وطول مدّة حبسها، التي يمكن أن تموت بسببها. حاول أخوها طمأنتها بأن أختها ستخرج من محبسها مثلما دخلت،

ولما استمرت مرمرة في البكاء والترجي، نهرها في غلظة، مؤكدًا أن ما يفعله بجوهرة، في صالح جوهرة، فلا تنسَ أو تتناسى بعد ذلك وصية أبيهم بالحفاظ على هيبة العائلة. أما الملكة فوز، فقد نظرت للطفلة في تعالٍ وضيق. تكرهها وتكره أختها التي فضلت سائسًا حقيرًا على أخيها لوز وأهم شاب في عائلة النوارنة!

في اليوم الثالث صباحًا ذهب الملك بنفسه ومعه العبيد ليكسروا الباب ويخرجانهما من المحبس. لم يأتِ بأحد من الحاشية، فالأمر أمر عائلي فاضح. الملك في ملابس راحته البسيطة يقف بجانب النخلة العتيقة ويراقب. رأسه عارٍ وشعره مهوش ينسدل حول وجهه. العبيد يكسرون الملاط من ناحية البابين، بدأت رائحة العفن تضربهم. ارتعبوا وما توقعوه حدث. أكملوا الكسر ورائحة العفن تزداد. أوقعوا البابين. جثة الأميرة جوهرة وجثة السائس كزبرة راقدان بجوار الباب عاريان يحتضنان بعضهما. الذي أمر بإحاطة الحجرة بالملاط لم يفكر أنه بهذا يمنع عنهما الهواء! فماتا خنقًا. ومن الحرارة الزائدة تآكل لحمهما وتعفن سريعًا. ابتعد العبيد في رعب، وقبل أن يتقدم الملك ليرى بنفسه وقلبه يخفق رعبًا أن تكون الأميرة قد ماتت. لم ينتبه الجميع إلى أن الأميرة الصغيرة مرمرة متواجدة. تسللت من بين سيقان الحرس والعبيد وأخذت خطوات سريعة، فكانت أول مَن وصل ووقف على بعد خطوة واحدة من الجثتين. الجثتان العاريتان يحتضنان بعضهما وهما في

حالة بشعة. العفن وجحوظ ما تبقى من العينين والفكان المفتوحان في رعب. صُدِمت الطفلة فصرخت فزعًا من منظر القتيلين. أخذت في الصراخ ولطم خديها في تشنج مرعب ثم سقطت مغمى عليها.

قصر الزمردة في صدمة فزع وبحر حزن. الكل أحب الأميرة جوهرة ولم يتخيل أن تكون نهايتها تلك النهاية البشعة. أما مرمرة فبقيت مغمى عليها يومًا كاملًا. لما أفاقت لم تستطع الكلام ورفضت الطعام. تريد عبدها الصبي الأشقر بجوارها، رغم أن الأميرة ذات الرِّفعة متواجدة معها. العبد الأشقر الذي يكبرها بعامين، تشعر به صديقًا ومشاركًا لآلامها. ويعطيها راحة ما غامضة. تواجدت ذات الرِّفعة وأشقرها بجوارها أيامًا وليالي، لكن الكوابيس تتسلل إليها وتضربها ليلًا والتشنجات تهلكها نهارًا. وأحيانًا ينتابها كابوس أصعب من غيره. تسقط من سريرها وتضرب برأسها ويديها وقدميها في السجادة التي تحتها، حتى يلحقوا بها ويعيدوها بعد أن يسقوها جرعات مياه.

لم ينفع معها لا طبيب ولا مشعوذ. جعلوها تنام لساعات تحت القبة الزمردية. تحسن لا يتعدى ساعة زمن ثم لا شيء. عندما عاد أخوها سِلْوِي في وقت متأخر من الليل. سمع بالكارثة. أسرع لحجرة مرمرة المضاءة. انحنى عليها وهي مستلقية في فراشها. هاله حالتها فاحتضنها مشفقًا. أحست به. رفعت يديها واحتضنته من عنقه مولولة، ونطقت صائحة:

-سِلْوِي سِلْوِي. قتلوا أختي. عِلوِي قتل جوهرة. أنا أكره عِلوِي. أكرهه.

أغمي عليها أيضًا، ثم أفاقت لتشكو مرارًا لسِلْوِي ظلم عِلوِي وقتله لجوهرة. جسدها هزيل وعيناها جاحظتان، والصفار تغلب على لون وجهها الأبيض. سِلْوِي يقبل رأسها ويحتضنها ويترجاها أن تتناول عنقودًا من العنب، وافقت بصعوبة، أول حبّة عنب مرّرت فمها وابتلعتها في صعوبة. وعادت بعدها لتأكل بعض حبّات أخرى من يد أخيها، ثم القليل من حساء الدجاج.

بخطوات سريعة غاضبة اتجه الأمير سِلْوِي لجناح الملك عِلوِي. أيقظوا الملك الذي ذهب لحجرة جانبية ينتظره فيها أخوه سِلْوِي. عِلوِي شاهد سِلْوِي متنمرًا. حاول شرح موقفه. سِلْوِي الذي فقد أخته بهذه الطريقة البشعة. هجم على عِلوِي وأسقطه أرضًا وأخذ في ضربه بقبضتي يديه وهو يسبّه سبابًا ثقيلًا..

-يا قاتل أختك. يا قاتل ابنة أمك وأبيك.

حارسان تقدما لينقذا مليكهما. لكنهما خشيا من الأمير سِلْوِي، ففي غضبته هذه يمكنه قتلهما بسهولة. عِلوِي وهو يتلقى السباب والضربات، يذكّر سِلْوِي بنصيحة أبيهما عدم الإساءة لسمعة العائلة، حتى لا تتجرأ عليهم الرعية. سِلْوِي لا يأبه بكلمات عِلوِي. جثم على صدر عِلوِي، ونفث عن نفسه وقال ما لم يقله علنًا من قبل..

-أبونا الملك نفعي السُمَيِّد، رفض أن يكون جلوسك على العرش يا عِلوِي لغبائك وحقارتك. وأنا تعاليت

وسموت عن مجابهتك يا جبان.

الملكة فوز استيقظت على صرخات زوجها. أسرعت ودخلت عليهما وشاهدت ضرب سِلْوِي لزوجها. قلبها متوجع، توجعه ليس للموقف المهين الذي فيه زوجها. قلبها متوجع لأنه فقد الأخ الشجاع الوسيم الذي عشقه، وكان من نصيبه هذا الجبان التافه الملقى على ظهره يتلقى الصفعات واللعنات.

ولم ينسَ عِلوِي لأخيه سِلْوِي تلك الفعلة. وبعد ابتعاد أخيه أشار لزوجته فوز بأن تبتعد. بقي جالسًا أرضًا حيث ألقاه أخوه. عنقه متدلٍّ لأسفل. من صغره وقلبه مشحون بالغيرة والحسد تجاه أخيه. والآن سِلْوِي يسقطه أرضًا ويضربه ويعيره بأنه كان الأحق بالعرش!

نظر لسقف الحجرة مخاطبًا نفسه:

- قلب سِلْوِي لم يغفر جلوسي على عرش أبي. وربما يومًا ما، سينتزع مني العرش. وهذا سهل بالنسبة له. فالجيش يحبه والرعية تحبه. إذن حديث وزيري المتغوِّل بأن سِلْوِي سيعمل يومًا على خلعي من العرش، حديث صحيح. نصحني هذا الذكي أن أسبق أخي وأعمل على التخلص منه. فعلًا المتغوِّل الخبيث على حق.

مرمرة أنقذوها من بلوتين، الخرس والموت جوعًا، بقيت كوابيسها وتشنجاتها. ذات الرَّفعة عادت لحجرتها مع زوجها، وبقي العبد الصغير الأشقر ينام على الأرض بجوار سرير الأميرة مرمرة. بدأت مرمرة تسير وهي

نائمة. أكثر من مرة يأتون بها من ممرات القصر وهي تسير فيه عارية تسح دموعها وتهلوس باسم أختها جوهرة. وليلة رفضت العودة مع جواريها لمخدعها، الأشقر على مقربة يبكي. أتوا لها بأخيها سِلْوِي فألقت بنفسها في حضنه تصرخ وتتشنج. حملها ووضعها في سريرها وغطاها وبقي بجوارها حتى نامت. بعدها سقطت في حالة خَبَلان حيرت كل مَن حولها. حالة غريبة في نفسها. حلقت شعرها مثل الأولاد، وطلبت ملابس الأولاد وارتدتها. ثم بعد أيام قالت إن اسمها مرمر وليس مرمرة. تقول لأخيها سِلْوِي:

-لو كانت جوهرة رجلًا وأحبت جارية، لما أمر الملك عِلوِي بقتله. الرجال يفعلون ما يشاءون. والفتيات يُقتلن. أنا لم أعد فتاة. أنا فتى واسمي الأمير مرمر.

الأمير سِلْوِي أمر بتركها وتنفيذ طلباتها. يكفي ما تكابده من آلام. فلتكن مرمر لوقت ما، وستعود وحدها لتكون مرمرة. أيام وأتاها الملك عِلوِي زائرًا رغم علمه باتهامها له بقتل أختها. رفضت مرمر أن يصافحها. وحين احتضنها أبعدته وسارعت واختبأت تحت السرير. الملك يناديها مرمرة. وهي تصرخ فيه من تحت السرير:

-أنا مرمر.

بقي الملك عِلوِي على بعد منها لتطمئن، أقسم إنه لم يكن يقصد قتلها، أراد فقط أن يخيفها. فوجئ بمرمر بصوت يريد أن يكون صوت ولد، تصرخ فيه:

-بل أنت قتلتها. أنت لست أخي أنت قاتل أختي.

كل يوم تنتاب مرمرة نوبات بكاء، تحتضن عبدها الصبي لودفيج. تحتضنه وتبكي ويبكي معها. هي تبكي على مقتل شقيقتها التي قُتِلت هذه القتلة البشعة، هو يبكي على حاله.. يتذكر إخصاءه وكيف أنه لولا قوة جسده لمات من بشاعة ما فعلوه فيه. يبكي معها بحرقة فتستريح مرمرة وتنام ويستريح هو وينام بجوارها. صار العبد لودفيج هو القريب الحبيب لمرمرة، ولم يخشَ عليها أحد، فلودفيج مخصي وليس له في النساء من مأرب.

ذهبت مرمرة لتزور عش الحب. الملك من قبل أمر بهدم الحجرة. وجدت الأنقاض التي هُدمت ثم أحرق ما بداخلها من سرير وصندوق وغيرهما. النار لحقت قليلًا بالنخلة العتيقة وكثفت عليها لونها الأصفر، خاصة شواشيها. ذات الرَّفعة تنصحها نصح أم وصديقة لها. حاولت أن تهدئها قليلًا لا كثيرًا.

مرمرة تقرأ كتبها التي أثرت فيها أكثر. تعمقت في القراءة، أصرت على نوعية كتب الفكر وعلم الكلام، لم تستطع الاستيعاب حتى في وجود معلم يشرح لها، فتحولت لقراءة الكتب الخفيفة. طلبت إحضار معلمي أختها. سمعتهم وفهمت الكثير مما كانوا يشرحونه لأختها. أحبت الأشعار وحفظت منها الكثير. وثبت لتعرف معارف مَن هم أكبر منها. ساعدها عقلها الذكي وإرادتها الحديدية.

بعد عام كامل، قرأت فيه الكثير. وثقت في نفسها وقد طال شعرها، ألقت ملابس الذكور وعادت لملابس الفتيات، عادت فتاة تعتز بنفسها وقررت أنها مثل أختها القتيلة في الوعي والمعرفة والطيبة، «الفرق أني أنا أقوى منها، ولن أسمح بأن يقتلني أحد مثلما قتلوها، سأرفض بل سأكسر أي أمر ذكوري يفرض عليّ، حتى لو كان أمرًا من الملك عِلوِي نفسه». قررت مرمرة أنها ستحب مثلما أحبت أختها جوهرة، لكن لن يكون أحبابها من العامة. وستعيش حياتها الخاصة بالإضافة لحياة أختها الأميرة المغتالة. ستكون فتاة وستفعل ما تريد، ولن تكون فتاة تختفي بحبها كما يريدون. سايرتها الأميرة ذات الرِّفعة، على أن حماسة مرمرة ستنطفئ مع الأيام. لكنها لم تستطع منعها من السير عارية في ممرات القصر، أحيانًا وحدها وأحيانًا ومعها عبدها لودفيج وهو عارٍ إلا من إزار يغطي عورته المبتورة. تستمتع مرمرة بالسير عارية. تركوها تفعل هذا ما دام يقلل من فورانها وثوراتها، فقصر الحرملك ليس به من رجال كاملي الذكورة سوى أخويها عِلوِي وسِلْوِي.

صباح يوم فاجأت العاملين في حظيرة الخيول. ارتعب العاملون فهم يعرفون أن وشاية المساعد تسببت في مقتل الأميرة جوهرة. سألت مرمرة عنه. قالوا لها إن أخاها الأمير سِلْوِي طرده.

لم تتحسن حالة الأميرة مرمرة، رغم صحبة الأميرة ذات الرِّفعة ونصائحها. فنصائح ذات الرِّفعة لم تفدها

كثيرًا، ولا حنان وشفقة أخيها سِلْوِي نجحا في ترطيب اضطراباتها الداخلية. نفسها المعطوبة تزداد تشابكها وتصلبها ودخان نارها لا تهمد ولا تقل. خشيتها من تلاقي أحضان الرجال والنساء تتزايد، فوصلت لحد أن تكون رعبًا كابتًا لما بدأ جسدها في طلبه. كرهها العميق لتجبُّر الرجال على النساء. ترفض هذا التجبُّر والتحكم تمامًا. خاصة بعد أن قرأت بعض الكتب التفسيرية للدين، فوجدتها تهين النساء، بل بعضها يُشبِّه النساء بالحيوانات! ثم قرأت لشيخ رافض لهذه التفسيرات المتحجرة المظلمة وأكد أنها ليست من الدين، إنها تفكير مَن لا يملكون التفكير. فتيقنت مرمرة أنها على حق في رفضها هذا التجبر الرجالي، وأقسمت إنها لن تترك رجلًا يتحكم فيها.

طالبت مرمرة بأن تزور الإمارة السادسة حيث مصب الأنهار على البحر. ومثلما فعلوا مع الأميرة جوهرة فعلوا معها. أرسلوا معها الجواري والعبيد وعددًا كافيًا من الحرس الملكي. اهتم بها تجار النوارنة أصحاب أغلب المراكب ومخازن البضائع، والذين صار كبيرهم هو التاجر الكبير الخطير لوز. بهرت بمصبات الأنهار وبالبحر ومراكبه متعددة الأشكال والأحجام. صعدت لمركب وقفت على حافته وخلفها عبد قوي، يتوقعون من الأميرة مرمرة كل أمر غريب. فربما تعود إليها فكرة الانتحار، فتلقي بنفسها في المياه الزرقاء لتنتهي من مصاعبها. مرمرة تعلم تفكير مَن حولها. تتركهم يخشون

عليها ويعطونها كل هذا الاهتمام. لكنها لم تعد تفكر هذا التفكير الانتحاري، الآن هي مصرّة أن تحيا حياتين، حياة لها شخصيًا وحياة لأختها التي قُتِلت صغيرة وحُرمت من حقها في الحياة.

نظرت للأفق البعيد الغامض. تمنت أمنيات أختها المقتولة.. أن تتمكن من زيارة بلدان أخرى، خاصة تلك التي فيها أمطار وجبال ثلجية. متشوقة لمعرفة المزيد من البلدان والمزيد من البشر الشقر مثل لودفيج، لكن ليسوا خصيانًا.

حاولت مرمرة تعلم عزف الناي كما كانت تعزفه أختها بمهارة. طلبت فأتوا لها بجارية تعزف الناي. يئست الجارية من الأميرة مرمرة، كما يئست مرمرة من إجادة العزف. قالت لها الأميرة ذات الرِّفعة:

-العزف موهبة، وأنت لا تمتلكين هذه الموهبة كما كانت أختك تمتلكها. ابحثي عن فن آخر تجيدينه. هل لك حب لأمر ما؟

-أحب الرقص حبًا جمًا منذ طفولتي.

-إذن، ارقصي.

وطوال هذا العام، وقد شبت مرمرة طولًا ولم تعد طفلة خالصة، ولوز يلح في الزواج من الأميرة مرمرة، بدلًا من الأميرة المقتولة جوهرة، ويؤكد أنه بعلمه الغزير سيساعد مرمرة لتشفى من صدمتها، وأكد أنه على مقدرة باستخدام قبة الزمردة والأحجار الكريمة في تحسين متاعبها الداخلية. لوز كل همه الوصول إلى

العرش. الملك ضميره يؤلمه مما فعله في أخته جوهرة، ولا يريد أن يؤذي أخته الوحيدة الباقية، ويكفي ما هي فيه. رفض طلب لوز. وسبب هام يخشاه الملك عِلوِي إن وافق على ظلم أخته مرمرة، غضب أخيه الأمير سِلْوِي، فربما يتهور سِلْوِي عليه ويحدث ما لا تحمد عقباه.

بعدما أفلتت مرمرة من زواج قسري، ومر عام آخر عليها، تحولت مرمرة من طفلة لصبية وضحت معالمها الأنثوية. صبية جميلة طازجة تنافس جميلات داخل القصر، وجميلات خارجه. ارتدت الذهب والجواهر، خاصة الزمرد. عرفت روعة جمالها من أعين الجواري ومدحهن لها. من عيون شباب ورجال العائلات الكبرى في الاحتفالات الخاصة بهم. كل هذا الجمال الواضح معلوم لها ومعلوم للجميع، أما تشوهاتها الداخلية المؤلمة، فلا يعلم مدى أذاها غيرها، القريبون منها، يدركون جانبًا من أشواك في دواخلها، لا مجمل آلامها التي لا تطاق، وإن كان أقربهم لآلامها هو العبد الأشقر الصغير لودفيج الذي شب رشيقًا جميلًا يصيب الفتيات بالحسرة أن هذا الفتى الفتّان تم إخصاؤه!

الأخ الذي يحس بأخته ومدى معاناتها هو الأمير سِلْوِي. ذات الرِّفعة بينت لسِلْوِي خشيتها من أمر يتزايد في نفس مرمرة، صارت مرمرة تكره العلاقة التي بين جسدي المرأة والرجل. تتكلم مع أي شاب وأي رجل، لكن إن أحست منه، أو أحست في نفسها، ميلًا جسديًّا، تصاب باشمئزاز وترتد مسرعة. تقول لذات الرِّفعة

أحاسيسها بصراحة.. أن المضاجعة بين الرجل والمرأة تبدأ بنزيف دماء المرأة وتنتهي بموتها.

الأميرة ذات الرِّفعة تقوم بدورين مع الأميرة مرمرة، فهي أم لها وصديقة في نفس الوقت. تحس بعمق آلام مرمرة الداخلية التي تلوث حياتها وتعذبها. وبناء على صداقتها هذه، أخذت تنصح مرمرة لتخفف من اندفاعاتها وتشنجاتها التي تأتيها وهي تحادث غيرها، فتثور وترغي وتزبد بدون سبب معقول. ذات الرِّفعة لتقرب زوجها الأمير سِلْوِي، من فهم أخته مرمرة، دعته ليحضر رقصة من رقصات الأميرة مرمرة، التي تؤديها في الخفاء، ولا يكون الحضور سوى صديقتها الأميرة ذات الرِّفعة وعبدها الأشقر. أتى الأمير سِلْوِي. ومن خلف ستار أطل على بهو متوسط مُنير. على جانب منه جوقة من الجواري العازفات على الناي والضاربات على الدفوف وآلة القانون الوترية. تعزف الجوقة فإذا بأخته الأميرة مرمرة والتي لم تتعدَّ الخامسة عشر من عمرها، إذا بها تدخل وسط البهو وهي في ملابس حريرية شفافة تبين جسدها في غموض. ولا يبان بوضوح سوى شعرها ورأسها وعنقها وذراعيها. إذا بهذه الفتاة ترقص رقصًا مذهلًا. تتناغم من موسيقى الجوقة التي تفهم حركاتها فقد عزفت لها مرارًا وتكرارًا. مرمرة مستمرة في الرقص بدون توقف. العرق بللها وهي تسرع هنا وهناك في أجناب البهو. وأطرافها ورأسها وعنقها وبطنها وعجيزتها، كل منها يرقص رقصته والكل في تناغم

جسد واحد مع موسيقى جوقة واحدة. تنحني فجأة للأمام فيكون جذعها مستقيمًا مساويًا للأرض وشعرها يسقط شلالًا أسود مموجًا. وترفع جذعها وهي تلقي بشعرها للخلف فيظهر بطنها وصدرها المشدودان ووجهها المتألم في لذّه وكأنها امرأة خلال مضاجعة ساخنة. وترقص فاصلًا رقيقًا كموج نهر هادئ، ثم تقذف بجذعها للخلف وتدور حول نفسها وشعرها طاحونة أطرافه يلامس أرض البهو المكسو ببساط رقيق. وتستمر مرمرة حتى تسقط أرضًا منهكة ثم ترتمي على ظهرها فاقدة الوعي.

الأمير سِلْوِي خلف الستار يبكي. ولما وصل لجناحه ودخل حجرته، أتته زوجته ذات الرِّفعة. قالت له إن مرمرة لا تمر ليلتان إلا وتطلب الجوقة وترقص. تقول إن هذا الرقص يريحها قليلًا وكأنه أفيون ينسيها ما بها. ذات الرِّفعة لمحت دموع زوجها. مالت عليه تمسح دمعاته الحزينة على أخته، قال جملة واحدة:

-يا لعذابك يا مرمرة!

ذهب إليها ليلًا. وجدها مستلقية على سريرها، وخلف ظهرها وسادة لترفع عليها جذعها. تقرأ في كتاب. وعلى منضدة بجانبها، قارورة نبيذ وكأس. شاهدته يدخل عليها فابتسمت له حبًا وتقديرًا. قبلها في جبينها وجلس بجانبها. وضعت الكتاب جانبًا. لم يقل لها إنه شاهدها ترقص هذه الرقصة المؤلمة. تناول كأسها وأفرغها في فمه. ضحكت مرمرة له راضية به مستريحة معه. صعد

سِلْوِي لسريرها وجلس قبالتها مستندًا هو الآخر على وسادة. بدأ كلامه معها عما فعلته بالشيخ الذي قابلته في طرقة من طرقات قصر الزمردة، وكانت مرمرة في رداء مكشوف. فلما أبعد الشيخ وجهه عنها وتخطاها قائلًا: «أستغفر الله». التفَّت مرمرة وركلته في مؤخرته، فأسرع الشيخ هاربًا. تلك الحادثة انتشرت في قصر الزمردة وقصر الحرملك. اشتكى الشيخ للملك فضحك الملك من فعلة أخته الشابة. يحكي سلوي ويضحك وتضحك مرمرة راضية عن نفسها وعما فعلته. ثم دخل في كلام جد. قال إنه قلق عليها. وإنها نضجت ويجب أن تتزوج. قال لها إنه يعلم أنها كرهت عائلة النوارنة، رغم أن هذه العائلة هي عائلة أمهم، لا يهم. عليكِ أن تتزوجي من أي عائلة أخرى. مرمرة تركت أخاها يقول كل ما عنده. استمعت له حتى عندما تدخل في حياتها ونصحها بألا تتطرف في تصرفاتها وتسير وسط ردهات القصر شبه عارية، وتمتنع عن ركوب حصانها عارية تمامًا وتتجول عليه ليلًا في الحديقة. ثم قال:

-يجب أن تتزوجي. لن تبقي بدون زواج يا مرمرة.

بان الضيق على ملامح مرمرة. وضعت الكتاب جانبًا. أخذت رشفة نبيذ ومسحت دمعات تدفقت من محجريها وسالت فوق الخدين. قالت لأخيها:

-بداية، زوجتك ذات الرَّفعة ذات عون لي لا أجحده ولا أنساه. أما أنت يا سِلْوِي. أنت يا أخي، أنت أغلى وأحب إنسان لدي. أرى فيك والدنا الملك نفعي. أحس

بتدليله لي واهتمامه بي وأنت معي. ومع زوجتك ذات الرَّفعة أحس بتدليل أمي لي. لكن ليس من شأنك أن تخطط لحياتي. رغم كل حبي واحترامي لك يا أخي الكبير، لن أرضخ لك ولا لأي رجل في الدنيا. فلا تحاول مرة أخرى أن تحدد لي كيف أعيش حتى لا أخسرك أخًا وصديقًا، وتخسرني أختًا وصديقة.

***

(10)

وفي هذه السنوات، رعية المملكة بدأت تمل من الملك الضعيف، الذي لا يستطيع وقف الفساد المتنامي سواء كان من عائلته الملكية عائلة السُمَيِّد، أو من بقية العائلات الثلاث المنافسة، الجرابلة والحوافظ، وخاصة عائلة النوارنة، الذين تسيدوا التجارة بسطوتهم، وسطوة انتسابهم للعائلة الملكية، عائلة السمايدة. وما زاد الطين بلّة، أن أغلب كبار التجار وأصحاب الأراضي الزراعية الشاسعة، قلدوا من فوقهم من العائلات الثلاث، وتجبروا هم الآخرون وقسوا على العامة الغلابة. العائلات الأربع، مع كبار العائلات الغنية، اشتروا ضمائر بعض الشيوخ، لتكون مهمة هؤلاء الشيوخ، هي إقناع العامة بالصبر وحثهم على الرضاء ببلاءات الدنيا، فتُكتب لهم الجنة في الحياة الأبدية بعد الحساب. وفي نفس الوقت إرهاب الناس من الوقوف ضد خليفة المسلمين الملك عِلوِي، هذا بالاستعانة بتفسيرات ملفقة لآيات قرآنية كريمة، ونشر الأحاديث الضعيفة للرسول العظيم، ويرضون ويتحملون ما قيل لهم إنه قضاء وقدر.

في هذه السنوات المترعة بالأحداث وما قبلها. عِلوِي وفوز أنجبا نورة. الملكة فوز أصرت على اسم نورة، تيمنًا بجدة عائلتها النوارنة، وفي نفس الوقت لها سبب خفي.. العقل الذكوري القديم وقت نشأة المملكة، حرم نورة من تولي العرش لأنها أنثى! الآن عادت نورة في عصر مختلف أقل تعنتًا ذكوريًا، ويجب أن تتولى نورة

العرش. وأنجبت الأميرة ذات الرِّفعة من سِلْوِي فتى واحدًا هو راسم. ثم تأتي الأيام المتدفقة بألاعيبها الساخرة، فترث نورة جمال أمها وطموحها، مع متوسطية عقل أبيها وضعف الشخصية، وهذا ما أوقع الحزن في قلب أمها الملكة فوز. وتقع نورة في حب راسم. وراسم ابن عمها سِلْوِي نسخة من عمه عِلوِي، متوسط الجسد متواضع الفهم، لكنه معبأ بطموح أن يكون فارسًا مهابًا مثل أبيه سِلْوِي، ثم يتزوج من ابنة عمه نورة ويجلس على العرش ملكًا ذا حضور راسخ. نورة وراسم يمتلكان الطموح ويفتقدان القدرات. الملك عِلوِي مال لابن أخيه راسم، لأنه يشبهه هو في معالم الوجه، ولا يشبه أباه الذي أنجبه! أحب راسم وأحب أن يتزوج راسم من ابنته نورة، وبهذا يستميل أخاه سلوي ويقلل من غضبه لضياع العرش منه، ويتناسى ما حدث لأختيه بسبب غلطات علوي.

عِلوِي في البداية لم يكن يحس بآلام أخته الصغيرة مرمرة. ثم بدأ يغزوه لوم صعب يومًا بعد يوم. أيجبر أخته على الزواج ممن لا تميل إليه، كما تزوج هو ممن لا تميل إليه؟ إن تم هذا، فستبقى أخته طوال حياتها في كآبة، كما هو يعيش في كآبة لزواجه ممن لا تحبه. جانب آخر.. نفسه تريد أن يصد الندم الذي يحاصره ويزداد في حصاره. لوم يؤكد له أنه قتل أخته، الملك يدافع عن نفسه بنفسه الفاجرة المتحايلة لتبقيه صامدًا ضد ضميره. لسان يسائله:

- لماذا فعلت ما فعلت؟

ونفس تتحايل وتجيب:

- لقد فعلت ما فعلت حماية لأختي. ولم أحسب أني منعت الهواء عنها. لم أكن أقصد. وإن كان علي لوم، فعليها لومان. هي فضحت العائلة وتركت نفسها لسائس حقير. أيعقل هذا الأمر؟ أتعقل هذه الداهية؟ أسائس يبات في أحضان أميرة؟! في أحضان بنت ملك وأخت ملك؟!

عِلوِي رغم أنفه، مع مرور الأيام تضعف نفسه المراوغة تجاه ضميره المستمر في المهاجمة، المستمر في فضح جريمته وتسببه في مقتل جوهرة وإمراض مرمرة، وعليه صارت الكوابيس تأتيه وإن كانت أخف وطأة من كوابيس أخته مرمرة. منظر أخته العارية المتعفنة تكبس عليه في أحلامه ليلًا، تأتيه مخنوقة ميتة. تقوم من رقدتها وهي ممسكة بيد جثة حبيبها كزبرة الملقاة أرضًا، تسحب الجثة بصعوبة وتقترب منه. تلومه بنظراتها وبدموعها وبدون أي كلمة. وفي النهار، كلما أمكنه أن ينفرد بنفسه، لا تتركه أخته القتيلة، تتسلل إليه وهي تسحب جثة كزبرة الملقاة أرضًا، وتلومه بنظراتها ودموعها. فيتألم عِلوِي ويعتذر لها طالبًا الصفح منها. مَن يراه خلسة، يظن أن الملك الذي تتحرك شفتاه، أنه يكلم نفسه. بعد هذه الزيارات الكابوسية، الضمير المتألم يزداد رسوخًا، ونفسه المراوغة للحصار يزداد الضغط عليها، لكن النفس مصرة على المراوغة

وعدم الاعتراف بالذنب، وتحرضه على العودة للمكابرة وتعيده ليجابه ضميره بأن أخته هي مَن أخطأت وسلمت جسدها بدون زواج، ولمن؟ لسائس حقير! الأمر الذي يتنامى باضطراد في بال الملك عِلوِي، هو سؤال صار أخطر سؤال: هل سيأتي يوم وينتقم منه أخوه الأمير سِلْوِي وأخته مرمرة؟ سِلْوِي الجيش يحبه والحرس الملكي يحبه، والرعية مغرمة به. وسِلْوِي غضبه بغضبين. غضبه لتسبب عِلوِي في مقتل أختهما الكبرى وإمراض الصغرى، والغضب الثاني أن عِلوِي استولى على العرش، رغم إقرار والدهما بأن العرش من حق سِلْوِي. سلوي يعلم حبي لابنه ونيتي أن أزوجه من ابنتي، فإن لم يشفع ابنه وابنتي لي، فكيف سيكون انتقام سلوي مني؟

الأميرة مرمرة بجمالها الملفت، رفضت أكثر من شاب رشحه لها أخوها الملك. ورفضت التفاهم في هذا الأمر مع الأميرة ذات الرِّفعة. لم يعد قصر الحرملك الرائع وحديقته الواسعة الغناء، لم يعودا يكفيانها للتريض وانفراج نفسها المكتومة. بدأت في التريض في المدينة مع عبدها الأشقر لودفيج، وخلفها جنديان من الحرس الملكي. تختار الأماكن الراقية خفيفة الزحام. تحيي كل مَن يحييها من الرعية ولا تتعالى. ومنعًا للملل، وتحت إلحاح الأميرة ذات الرِّفعة، وافقت على حضور حفلات بعض مناسبات القصر والعائلات الأربع الكبرى. في الغالب تجلس مع الأميرة ذات الرِّفعة، وإن انشغلت عنها

ذات الرِّفعة، تبقى وحدها ولا تحاول الانضمام لأي سيدة أو فتاة أخرى. بالنسبة للشباب، لا تعطي أي فرصة لأي شاب من العائلات الأربع، أن يتقرب منها أكثر من اللازم، خاصة عائلة النوارنة. لكن في المناسبات التي ينضم لها عائلات أغنى التجار في المملكة. تخفف من جمودها وتختلط مع بنات وسيدات العائلات الغنية. ولا تتجهم إن حادثها شاب من الشباب. السبب أنها في مركز أكبر من شباب العائلات الغنية، فهي أميرة من بيت السمايدة، وهم أقل مرتبة ولن يحاول أحد التعالي عليها بصفته رجلًا. وهنا اتخذها فرصة شاب بتجاربه العديدة يفهم كيف يعامل النساء. يعرف أن كلًّا منهن لها مدخل خاص بها. سأل وعرف جانبًا هامًّا من مأساتها، عرف رفضها التام لاستعلاء الرجال على النساء. تقرب منها وأبدى كل احترام، وفي حديثه بيّن تقديره لأمه وأخته تقديرًا عظيمًا. ارتاحت له الأميرة مرمرة، خاصة أنه يمتلك وسامة وذوقًا رفيعين، بالإضافة إلى اسمه الموسيقي.. نسيم. هامت حبًّا بنسيم. ومن وقتها وهي ترفض أن يتبعها حارسان حين تخرج للمدينة للتريض. قالت يكفيها حماية عبدها الأشقر بجسده القوي المتين، وسيفه في جرابه وحربة في يده. ولم تكن الأميرة مرمرة من الغباء، بحيث لا تعلم أن بصاصي الوزير المتغوِّل يتبعونها، ولن يتركوها تذهب لأي مكان إلا وكتبوا للمتغول وشرحوا بإسهاب، والمتغوِّل سيبلغ أخاها الملك.

حكت الأميرة مرمرة للأميرة ذات الرِّفعة، عما يتنامى بينها وبين نسيم. اطمأنت ذات الرِّفعة أن الشاب ابن العائلة الغنية قد عرض على مرمرة أن يخطبها استعدادًا للزواج، وأن مرمرة هي التي تبطئ في الرد حتى تتأكد أن نسيم حين يتزوجها، لن يحاول السيطرة عليها، وإلا ستتلقى نكسة في آمالها ستزيد من عذاباتها، وستضطر أن تطيح بنسيم وبأهله. ذات الرِّفعة أبلغت زوجها الأمير سِلْوِي السُميِّد، ففرح ودعا الله أن تتزوج مرمرة فتخفت كوابيسها وتشنجاتها، وتهدأ دواخلها ولو قليلًا.

نسيم عرفها بعائلته وسعدت العائلة بها، خاصة الأم والأخت التي تدخل مرحلة البلوغ. تزورهم مرمرة في قصرهم. الأب المشغول في أعماله ويغيب عن القصر كثيرًا، أوصى بألا ينفرد نسيم بمرمرة، يخشى من اندفاع الشباب، وهذه الفتاة أميرة وليست فتاة عادية. الأم والأخت دائمًا يحيطان بنسيم ومرمرة. أما لودفيج، فهو مع عبيد وجواري وخدم القصر.

مرمرة ونسيم طالت بهما الأيام لم ينفردا ببعضهما، في شوق جسدي ولهفة. بمساعدة أخته، احتالا حتى انفردا يومًا ببعضهما. ولأن الفرصة جاءت بعد لأي. تسرع نسيم وألقى بنفسه على مرمرة. لم يدرِ أنه بهذا الاندفاع يشعل مخاوف مرمرة الدفينة. احتضنها وتحسسها بسخونة شبابه. مرمرة تحتاج الملامسة، وبخاصة من نسيم. لكن ليس بهذا الاندفاع الذي سمح لشبح الرفض أن يأتيها. عيناه في عينيها فتزلزلت رغبة.

قبّلها وكشف ثديًا من ثدييها وتمعن فيه وتحسسه، فتأوهت وتمنت أن يفعل بالثاني ما فعله بالأول. تمنت هذا رغم دمدمة رفض ترجّها. ولما فعل وفعل أيضًا بفخذيها فصار جسدها نهر عسل ولبن دافئًا يترقرق، وجسده بدنًا دافئًا مثيرًا. وإذا بهلاوسها الداخلية تتمكن منها وتنتفض وتثور، فتململت براكينها واشتعلت أكثر من اشتعال رغبة جسدها في متعته. مرمرة تحاول كتم براكين الرفض، فتشارك بإيجابية عصبية في قبلات نسيم، وتركز بالها في ابتهاج الجسد بجولات كفّي وأصابع نسيم على ثدييها وبطنها وفخذيها. تغمس نفسها في اشتعالات قبلات نسيم. تفشل في محاولاتها. شبح الآلام الملازم والملاصق لحياتها، الشبح الرافض للمتعة، يهاجمها ببشاعته.. براكين الرفض النارية الحارقة تزداد دمدمة مهددة المتعة اللذيذة في خلاياها. صارت بين بين. بين قتال شرس يتفاقم داخلها. لذة تشتاق لها، وتتمنى أن تستكمل، وبين شبح غامض أنفاسه أبخرة براكين حمراء. تناجي نفسها وهي بين أحضان مَن تحبه ويحبها.. ما لبراكين جوفها البشعة وما لها! ما لبراكين أمراض جوفها تتجبّر عليها، مانعة إياها أن تستمتع بما تستمتع به كل نساء الأرض؟ ليلة واحدة استمتعت باللقاء الكامل، ليلة واحدة مع الشاعر الغريب. فلم لا تتكرر تلك المرة مع نسيم؟! ما للعواصف وما لها وهي مقبلة على أمل مستقر مريح؟! مرمرة بين ضعفها اللذيذ مع نسيم، وارتباكها من سطوة عذاباتها المستمرة،

تنهار مرمرة الأنثى وتستسلم لشبحها القبيح الرافض لمتعتها. هزمت شبحها وهي في أحضان الشاعر الغريب، لِمَ مع نسيم هي الأضعف؟ تتشنج متألمة وتصرخ وهي تدفع نسيم جانبًا. تنهض وتعدّل من وضع ملابسها باكية. احمرَّ وجهها وكأن دم لذتها المغدورة سكب عليه. نسيم وهو مستلقٍ أرضًا يراقبها مذهولًا. أسرعت مرمرة هاربة. لم تكن تهرب من نسيم، بل تهرب من شبحها الذي أقعى بمؤخرته على نسيم فأخفاه وصار ينظر لها في كره وشماتة.

مساءً أتاها نسيم وبيّن تفهمه لها، أن بها شيئًا ما يخيفها من اقتراب رجل منها اقترابًا ذكوريًا. طمأنها أنه لن يحاول مرة أخرى أن يلمس أي جانب من جسدها سوى كفيها. ضحكت من سذاجته وهو الذكي. لا تستطيع أن تقول له: بل قاوم معي ذاك الشبح الكريه الذي يحارب نفسي ويسجن جسدي. لا تيأس وحاول مرة ثانية وثالثة، فقد نجح معي الإفرنجي من قبل.

ولما أرسل أبو نسيم للملك عِلوِي ليقابله، ويطلب منه يد أخته مرمرة لابنه نسيم. لم يجبه الملك عِلوِي. يريد الموافقة حبًا في أخته، ويخشى من متاعب تأتيه من زوجته فوز وعائلتها النوارنة، فالاتفاق الضمني أن يتزوج أمراء وأميرات السمايدة من شباب وشابات النوارنة، ولوز توءم فوز لم يكف عن محاولاته في الزواج من مرمرة. طلب الملك تأجيل الرد. لم يأبه لغضب سِلْوِي ولا لثورة مرمرة التي اقتحمت جناحه،

ورفعت صوتها عليه تتهمه بكرهها وتعمده ظلمها، وأقسمت إنها لن تتركه يتحكم في حياتها كما يريد، حتى وإن كان هو الملك وأخوها الأكبر معًا. وإن يئست منه ومن موافقته على خطبتها لنسيم، فسوف تنهي حياتها لتتخلص منه ومن ظلمه. تهديد الأميرة بالانتحار. أقلق عِلوِي وتسبب في زيادة آلام نفسه المتعبة أصلًا بجرائم تسبب فيها من قبل، فقرر الموافقة بعد أيام فهذا في صالح أخته مرمرة. وفي نفس الليلة تلقى هيجان زوجته فوز. في حجرتيهما هجمت عليه تخنقه بملابسه وتلعنه، وتطالبه بالعودة عن قرار تزويج مرمرة من الشاب الذي طلبها. عاندها عِلوِي ورد سبابها بسبابه. وكانت ليلة صعبة على كليهما. في الصباح التالي، كل منهما علامات الضرب واضحة على صفحة وجهه. وحين ترى ابنتهما ما حل بوالديها، تبكي وتلوم أمها أكثر من لومها لأبيها. وما لم تعلمه فوز، أن ابنتها صارت الأذن التي تسمع شكاوى أبيها من أمها، ومن عمتها مرمرة ومن زوجة عمها ذات الرِّفعة. ابنتها نورة صارت القلب الذي يشكو له علوي فتحس به وتحتضنه وتقلل من حسرته.

تقبل نسيم تأجيل الرد على خطبته لمرمرة. أكد لمرمرة أنه مستمر في حبها والنضال حتى يوافق أخوها الملك. أكد أنه متمسك بها للنهاية. ومع كل انفراد بها، يشرح لها أمور المال والأعمال. وأفشى لها سرًا من أسرار أبيه. إنه ينوي أن يشتري أرضًا واسعة على جانب

من جوانب المدينة، وفكرته أن المدينة ستتمدد من تلك الناحية، وسيتحول تراب هذه الأرض لذهب، هذا بعد عام على الأكثر. وأنها فرصة لها أن تشتري هي الأخرى قطعة كبيرة من هذه الأرض، لتكون أغنى من بقية أمراء المملكة. سعدت مرمرة وقالت لنفسها:لم لا؟ سآخذ أنا الأخرى مساحة؟

ذهبت لأخيها الملك في جناحه الخاص. فوجئ بها ودب فيه القلق أن تهاجمه كعادتها. جلست صامتة. شربا القهوة معًا، تكلمت. لم تهاجمه، طلبت منه بأسلوب أوامر وعليه هو الملك أن ينفذها لها! الملك عِلوِي يستمع مبتسمًا. إحساسه بالذنب تجاه أختيه مرمرة وجوهرة، جعله يوافق على طلب مرمرة. بعدها سألته: متى ستجيب والد نسيم في طلبه؟ قال: سريعًا.

أسبوع مر، وفي لقاء بسيط يجمع العائلتين تمت خطبة نسيم ومرمرة. خاتم الخطبة الذي أهداه نسيم لمرمرة، ذهبي يحوي ماسة مشعة. هذا بخلاف عقد ذهبي مرصع بتشكيلة جواهر، وقرط رائع. الملكة فوز اضطرت لحضور حفل الخطبة ولم تبتسم ليلتها أبدًا، تدعي الوقار لتخفي حنقها وحقدها. وكلما زادت ابتسامة زوجها الملك، زاد عبوسها. وكلما اتضحت الصداقة التي بين مرمرة وبين ذات الرِّفعة، والتي بين مرمرة وسلوي، زاد غيظها. حضر الحفل شقيق الملكة لوز. حضر مرغمًا وابتسم وضحك متظاهرًا بالرضاء. ينتقل بين الحضور بجسده الذي تضخم، مبينًا للجميع

أنه ليس غاضبًا أن تتم خطبة مَن كان يلحف في الزواج منها. يضاحك أخته فوز ليدفعها لتمثيل الرضا والحبور، بدون فائدة. وحين التفوا حول المائدة العامرة بكل ما لذ وطاب من طعام وشراب، كان الملك عِلوِي أقلهم تناولًا للطعام والشراب.

خلال أيام امتلك التاجر الأريب الأرض الشاسعة بأقل سعر يتخيله أي من منافسيه. وامتلكت الأميرة مرمرة نصف تلك المساحة. بدأ أبو نسيم في التخطيط لحي كامل متكامل. جعل قلب تلك الأراضي حيث ربوة متوسطة الارتفاع، خطط أن تكون منطقة الفسحة واللهو، ليس في المنطقة فقط، بل رويدًا رويدًا ستأخذ الزائرين واللاهين عن قلب المدينة القديم. فهنا ستكون المقاهي والحانات والدكاكين الكبيرة. المشترون من كبار التجار ثم متوسطيهم.

مثلما ستغتني عائلة نسيم أكثر، ستغتني الأميرة مرمرة أكثر. فهي كأميرة من الدرجة الأولى، لها مخصصات سنوية تجعلها تعيش منعمة مكرمة. أما بعد بيع تلك الأراضي التي خُصصت لها، فستكون من أغنى أغنياء العائلة المالكة، أغنى من الملكة نفسها.

***

لم تعد الأميرة مرمرة في سريرها الملاصق لسرير الأمير البدوي عبد الرحيم الوسيم، الأمير ترك سريره واستلقى بجوار الأميرة مرمرة واضعًا يده على يدها المستلقية على بطنها. الراحة بادية على ملامح وجه

الأميرة مرمرة، وجسدها لم يتشنج حين اقترب منها الأمير البدوي، وكأنها ترتاح لكل مَن هو أجنبي. تستكمل حكايتها، والأمير البدوي ساعدها لتسترخي وتقاوم شبحها الكريه الرافض لمتعتها. عبد الرحيم يستمع لها ولم يحاول أن يزيد التصاقًا بجسدها. ينتظر الوقت المناسب، ثم إن حكايتها بقدر ما هي مأساوية، بقدر ما هي شيقة.

ولم يكن نسيم شابًا لاهيًا. أعجب بالفعل بالأميرة مرمرة وأشفق عليها، ثم تطور الإعجاب والشفقة ليترسخا حبًّا، وتشوقًا للغوص في أغوارها الغامضة، أغوارها الجميلة رغم انتفاضاتها الخشنة. أبعد عن ذهنه حسابات المنافسات التجارية، وأنه بزواجه من أميرة سيكون قريبًا من العائلة المالكة. ويتصاعد هو وتتصاعد عائلته، لتقترب من مكانة العائلات الأربع التي تتحكم في منافع ومكاسب مملكة الأنهار السبعة. هذه الأفكار النفعية أبعدها عنه. تجسد في عقله وقلبه أنه محب لمرمرة، مخلص في نية زواجه منها.

نسيم في استغراقه في حب الأميرة، لم ينسَ عشيقته الجارية الجميلة. اشترتها عائلته وأحبتها لخصالها الطيبة، ولحزنها الشفيف الذي يجلب الشفقة والرحمة. اعتزازها بنفسها وبتاريخ عائلتها ووطنها كله. بالإضافة لما حدث بعد ذلك، حيث أحبت نسيم حبًّا هائلًا، فجعلوها في منزلة طيبة في العائلة. عرفوا منها كيف وهي الحرة من عائلة كريمة وبلدتها متحضرة

مزدهرة، كيف صارت جارية. قبائل بربرية مقاتلة سافكة للدماء هاجمت بلدها عنوة. كر وفر واضطرابات وسفك دماء على الحدود. أبوها حاكم لمدينة كبيرة غنية متينة الأسوار، أمها حامل بمولودها الثالث. لها أخ أكبر منها. كانت مدينتهم الحصينة تظن أن القبائل المهاجمة، بعيدة عنها. أبوها له شقيقة أكبر منه متزوجة في مدينة قريبة. وصلهم أن تلك الشقيقة مريضة مرض موت، وتريد رؤية أخيها. أعد عددًا من الحرس احتياطًا. وأخذها هي وابنه معه لتراهم شقيقته المريضة. ترك الأم الحامل. السفرية سريعة مجرد أيام قليلة. كوكبة جنود على صهوات خيولهم، يتقدمهم الأب فهو القائد. الفتاة الصغيرة وأخوها كل منهما يركب خلف جندي من الجنود. وهم يعبرون غابتهم الكثيفة، فوجئوا بقبائل البرابرة وقد أوقعتهم في كمين، رشقوهم أولًا بالسهام فقتلوا عددًا من الجنود، وأصابوا الأب القائد. الأب رغم الإصابة شَهَرَ سيفه وكان شجاعًا هو وجنوده في صد هجوم البرابرة. قتلوا الكثير من المهاجمين، لكن الكمين كان محكمًا والمهاجمين أعدادهم كبيرة، انتصروا في النهاية وقتلوا الأب وأغلب جنوده وأصابوا البعض وأسروا اثنين. والهجوم في أوله، الجنديان اللذان أخذا الطفلين خلفهما. أنزلاهما وأمراهما بالإسراع بين أشجار الغابة بعيدًا. بعد انتهاء المعركة، البرابرة طاردوها هي وأخيها وأمسكوا بهما. تم بيعهما لتاجر رقيق، فهبط هذا بهما وبغيرهما شمالًا حتى البحر، حيث باعهما بمبالغ

كبيرة لتاجر رقيق شرقي. فالشرقيون يعشقون الشقر. انتهى بهما المطاف في مملكة الأنهار السبعة. انفصلت عن أخيها ولم تعلم عنه أي خبر حتى الآن.

منذ طفولتها وقبل أن تبلغ مبلغ النساء، كل مَن اشتراها ضاجعها من خلفها، وقبل أن تستكمل العاشرة من عمرها فضها مالكها من أمامها. وباعها لآخر ومن الآخر لآخر حتى وصلت لعائلة بشعة وكانت في الخامسة عشر من عمرها. حبلت وأنجبت ذكرًا. بعد فطامه أخذوه منها، لم يرحموا لا بكائها ولا بكاء طفلها. وهي بيعت لعائلة لا تريد ذرية من الجواري. أتوا لها بعجوز شريرة. وضعت سائلًا دافئًا في منفاخ جلدي يخرج منه أنبوب معدني. أمسكوا بها وفتحوا فخذيها وهي تصرخ وتولول. وأدخلوا فيها الأنبوب، وضغطت الشريرة على المنفاخ، ليندفع السائل في رحمها. شعرت بالغثيان أيامًا، ومن وقتها لم تعد قادرة على الإنجاب. اطمأنت العائلة لعقمها، وأغرقوها في نكاحات متوالية مع ذكورهم كلهم. ولما أتعبتهم بكاءً وسؤالًا عن ابنها وعن أخيها، باعوها لعائلة نسيم. وهنا كان مستقرها. سألوها عن اسمها، فاختارت هي اسمها الحقيقي، وهو اسم موطنها.. بافاريا، اعتزازًا بوطنها الأساسي في بلاد الجرمان.

نسيم عشقه لبافاريا مختلف عن حبه لمرمرة. مرمرة يحبها فعلًا، يأمل أن يعيش معها بقية حياته. يفكر فيها نهارًا وليلًا بأشواق ساخنة، ليست أشواقًا جسدية

وشفقة إنسانية مثلما يحس تجاه الجارية المستكينة بافاريا. هي مجرد جارية اشترتها عائلته، وأهداها أبوه له فارتاح لمسحة الطيبة على ملامح وجهها الجميل، والاستكانة التي تغمر جسدها الرائع. وهي لما وجدت منه اقترابًا حانيًا وشفقة وتوددًا طيبًا، عشقته وصار نسيم كل حياتها. بافاريا حلمها قبل أن تموت. العودة لبلدها البارد الممطر، إلى أنهاره وجباله. كنائسه وقلاعه الحصينة. تشتاق لشهور الشتاء التي تمطر فيها السحب نتفًا من الثلج. تتمنى قبل موتها المرور على الغابة الجميلة، والبكاء في المكان الذي اغتالوا فيه أباها واختطفوها هي وأخاها. ليس حلمها أن تبقى مع نسيم بقية حياتها.

***

الوزير المتغوِّل لم يكن بعيدًا عما تفعله الأميرة مرمرة. البصاصون التابعون له، يراقبون مرمرة في كل حركاتها وسكناتها، رقصها المقنع يعرفه من البدايات. حتى داخل قصر الحرملك. ما تفعله مرمرة مع عبدها الأشقر من جنس ناقص غريب، وعلاقتها بالشاعر الإفرنجي التي وصلت للنكاح الكامل. ولم يشأ أن يكشف رقصها في الحانة متخفية باسم بطاطا.

وصلت الخبايا لنسيم فَصُدِم وبكى ثلاث ليالٍ غيرة وضيقًا، جادل نفسه بحدّة ولعن قلبه المصر على عشقه رغم ما سمعته أذناه من مؤلمات. في الليلة الرابعة مال للمسامحة فعذرها وتقبل ما جرى بينها وبين الإفرنجي،

يحبها حبًّا عميقًا، ويحس بآلامها الذاتية التي تعذبها. متأكد أنه تأكد أنها بالفعل طيبة ولا تضمر شرًّا لأي أحد، وأمر أهم من كل غيرة.. أنها تحبه. عذر وسامح وتقبل أن جسدها غزاه آخر قبله، بعد المسامحة استطاع النوم في ليلته الرابعة.

***

الملك عِلوِي سعيد بتقارب مرمرة ونسيم. يتمنى أن تتزوج أخته ذات النفس المُتعَبة المُتعِبة. ما زالت حادثة مقتل أختها الأميرة جوهرة، تؤذيها وتدفعها لأفعال طائشة منها ما هو مخجل ومنها ما هو عار، والملك لا يستطيع إيقافها بالقوة، فقلبه يحمل وزر مقتل جوهرة، حتى لو لم يكن يقصد قتلها. أمر الملك عِلوِي وزيره المتغوِّل بعدم اعتراض طريق مرمرة، ويتركهما ليستكملا مشروع زواجهما. الملك لم يبلغ زوجته، لكن المتغوِّل هو مَن أبلغ فوز التي بدورها أبلغت لوز. فمصلحتهما المشتركة أن يتزوج لوز من مرمرة. فأسرع لوز بمقابلة الوزير المتغوِّل مقابلة سرية. وأكد له أنه حتى لو عاد الأمير راسم من الأسر وجلس على العرش، فراسم غبي وسهل إسقاطه عنه ليجلس هو. وحينما يصل لوز إلى العرش ويتربع عليه، فسيبقى المتغوِّل في مراكزه.. وزيرًا ورئيسًا للبصاصين بالإضافة إلى ضيعة زراعية هدية. وفوق كل هذه الوعود، لوز أعطى للوزير المتغوِّل كيسين من الذهب البندقي، والطلب.. أن يعمل على إفشال تلك الزيجة. زيجة الأميرة مرمرة بالشاب

الغني نسيم. لم يكن الوزير المتغوِّل في حاجة للكيسين الذهب، لكنه أخذهما على كل حال. المتغوِّل لا يثق في وعود لوز، لكنه يعمل منذ فترة على نسف عرش الملك عِلوِي، فنسف عرش الملك يريح نفسيه المتغوِّل، فالمتغوِّل فطرته فعل الشر وبدون مقابل. خاصة مع من هم على درجة واضحة من الغنى أو الوسامة أو الاثنين معًا. حاقد على السمايدة، على الملك خاصة وكل الأمراء. وإن نجح في إبعاد السمايدة عن العرش، وذهب العرش لعائلة النوارنة وصار لوز ملكًا مثلًا، فسيعمل المتغوِّل على نسف عرش لوز والنوارنة وليذهب العرش لأي عائلة، حتى لو كانت تلك العائلة هي عائلة السمايدة التي يتلاعب بها الآن! المتغوِّل الخبيث مع خباثة لوز خططا ونفذا ما يضر وربما ما يقتل.

المتغوِّل ولوز لم يستكفيا بكشف بعض خبايا مرمرة لنسيم. قررا كشف نسيم أمام مرمرة. أيام حتى وجدوا خادمة حديثة في القصر، ضعيفة أمام إغواء المال. الخادمة وافقت أن تلقي برسالة بالقرب من باب جناح الأميرة مرمرة. بعد إلقاء الرسالة، تهرب الخادمة من العمل. تهرب حتى عن مدينة القباب. فقد نالت من بصّاص المتغوِّل كيسًا ذهبيًا يغنيها لسنوات.

الأميرة مرمرة الصدمة التي وقعت على أم رأسها، أخذت منها يومين لا تعرف ماذا تعمل؟ في عذاب وضياع بعدما بدأت تتصالح مع الحياة ومع نفسها، بحبها لنسيم وحب نسيم لها. يا للرجال الخونة! الخيانة

في دمائهم. يعشق جارية؟ إن كان يضاجع كل ليلة جارية مختلفة، لما همني. لكن أن تكون جارية بعينها؟! إنه الحب إذن. كيف يفضل علي جارية حتى لو كانت جميلة؟ فأنا جميلة وجمالي مشهود به. هل لأن جاريته شقراء، والشقراوات نادرات في بلادنا؟! لكن أنا الأميرة ابنة ملك وأخت ملك وثروتي هائلة وهي جارية مملوكة؟ لا مفر من مواجهة نسيم الخائن.

عصر اليوم التالي. الأميرة ولودفيج هبطا من على ظهري حصانيهما. دخلا من الباب الخلفي. ابتعد الحراس مفسحين لهما. تعرف الطريق حسبما شرحت الرسالة. أسرعا للمبنى الأنيق. الباب مفتوح. فسحة واسعة وأبواب جانبية. الحجرة المهيأة للقاء الغرام. تقف جارية عجوز قوية عند الباب. حاولت منعهما، فاشتبك معها لودفيج فأمسكت بشعره وسقطت به أرضًا، وتحملت لكماته في جنبيها وهي تصرخ لتنبه مَن بالداخل. مرمرة في سرعة دفعت الباب وشاهدت ما لا يمكن أن تتخيله. حبيبها خطيبها نسيم عارٍ تمامًا بين فخذي الجارية العارية. نسيم ينظر ناحية الباب ولم يستوعب بعد تواجد الأميرة مرمرة وهي تنظر إليه في ذهول. نسيم وجاريته فزعا. ينتصب نسيم على ركبتيه. عيناه جاحظتان وقضيبه المنتصب يسترخي سريعًا. الجارية سحبت ملاءة لتخفي جسدها حتى عنقها، والملاءة لم تساعدها لتخفي رأسها بشعرها الأشقر المهوش. أعطت ظهرها ناحية مرمرة. صرخ نسيم:

ماذا؟ كيف؟ لِمَ؟ ثم وثب من السرير ناحية مسند خشبي وتناول عباءة حريرية ولف بها جسده. وقف حيث هو والذهول لم يفارقه. ثوانٍ والخجل يختلط بذهوله. تتقدم الأميرة مرمرة ناحيته. يتلاشى الخجل ليستبد به الخوف العميق. لسانه عجز عن الكلام والأميرة تقف على بعد خطوة منه ناظرة إليه في قرف. خلعت مرمرة خاتم الخطبة والقلادة والقرط وألقتهما أرضًا. الجارية تحت الملاءة تبكي وجسدها يرتعش. تتوقع كل أنواع العقاب التي ستقررها الأميرة على أم رأسها. زادت في الارتعاش والبكاء. الأميرة نظرت إليها ولم تتكلم. تعبيرات وجهها قالت كل شيء. إنه خليط من الصدمة والاحتقار. دخل لودفيج وآثار خربشات الجارية الحارسة على رقبته. ينظر إلى نسيم في لوم واحتقار. وكأنه يقول له: كيف تكون مرمرة في حوزتك، فتنظر لأنثى أخرى. اقتربت مرمرة من الجارية. سحبت الملاءة. بان رأسها كله وظهرها الرائع حتى أعلى مؤخرتها. وجه الجارية يتجه للناحية الأخرى. باكية مرعوبة. زعقت فيها مرمرة لتنظر إليها، وفي نفس الوقت رفعت يمناها لتصفعها. لما نظرت إليها الجارية، ظهرت ملامحها واتضح في عينيها الزرقاوين كم الأسى والخوف. عينا الجارية تحمل أحزانًا تماثل أحزان مرمرة. الفرق أن هاتين العينين زرقاوين ولكن عيني مرمرة سوداوين. أنزلت مرمرة يدها وبدلًا من الصفع، انحنت بجذعها لتقبل رأس الجارية وتربِّت كتفها في

حنان، لتخفف من رعبها. لودفيج يقترب مشدوهًا. يقترب متمعنًا في وجه الجارية العارية. لا يهمه كونها عارية. تأكد فنادى بكلمة واحدة:

- بافاريا.

التفتت إليه بافاريا. وجهاهما في صدمة عدم تصديق. ثم تمعن كل منهما في الآخر. ثم تصديق لما هما يشاهدانه. صاحت بافاريا:

- لودفيج! أخي!

هبّت بافاريا واقفة على سريرها ولودفيج يسرع إليها. تقفز من السرير لم يهمها عريها، فيتلقفها لودفيج بين ذراعيه. هي تصرخ: لودفيج، وهو يصرخ: بافاريا. تبكي ويبكي وهو يحتضنها بطوله الفارع تكون قدماها فوق الأرض. يدور بها ولا يأبهان بنسيم ومرمرة اللذين يتابعانهما في دهشة.

مرمرة رغم مأساتها ابتسمت لفرحة صديقها المقرب لودفيج. نسيم خجله من موقفه الوضيع وخشيته من آثاره عليه وعلى عائلته يزلزله. انسحبت مرمرة وعادت للقصر وحدها. في نفس الليلة، حكت لذات الرِّفعة خيانة نسيم حبيبها، وكيف أن عشيقة نسيم هي أخت لودفيج.

وفي نفس بهو الرقص الخاص بالأميرة مرمرة، كانت مرمرة ترقص رقصة الذبيحة. تطلق من داخلها الآلام والانكسار والتشاؤم واليأس. الأميرة ذات الرِّفعة معها بعد الرقصة. هي التي حممتها بنفسها لتزيل العرق الذي

أغرق جسد مرمرة. وهي التي جاءتها جارية تبلغها برجاء لودفيج المبتلى بمأساة عائلته، أن تسمح له الأميرة مرمرة بأن يبيت في قصر نسيم. سمحت له ذات الرِّفعة باسم مرمرة. ثم أخذت مرمرة لحجرة ضيقة أغلق عليهما بابها. وسط الحجرة صحن من الفخار معبأ بفحم مشتعل وعلى النار قطعة حشيش سميكة. جلستا على وسادتين تستنشقان دخان الحشيش حتى انسطلت مرمرة تمامًا. أخذتها ذات الرِّفعة لتنام نومًا عميقًا فلا تأتيها الكوابيس.

عند الفجر وقد زال تأثير الحشيش، جاءتها الكوابيس. أختها القتيلة تطير ناحيتها ويطير معها حبيبها كزبرة حتى يصطدما بمرمرة التي تستمر في الصراخ. لم يأتها لودفيج ليوقظها من الكابوس ويهدئها فتنام. مع استمرار صراخها أتتها جارية لتوقظها وتأتي لها بكوب ماء. لم تسترح إلا بوصول الأميرة ذات الرِّفعة لها. جالستها وتناولتا قهوة ثقيلة. تهدأ الأميرة مرمرة. دموعها هادئة فاعترفت لصديقتها..

- رغم خيانته لي، فأنا أحبه. هو قصري الذي أرتاح فيه ويغطيني هو بالسكينة. وأنا أعلم أنه يحبني أنا. أنا وليس الجارية العشيقة. وليس عيبًا أن يعشق جارية، فأختي جوهرة عشقت سائسًا. لكني لا أستطيع أن أتقبل ما فعله. لا أستطيع.

الصباح الباكر التالي، الوزير المتغوِّل أبلغ الملك عِلوِي أن الأميرة مرمرة كبست على خطيبها نسيم وهو يعانق

عشيقته الجارية، وأنها أنهت خطبتها به. ثار الملك عِلوِي على وزيره المتغوِّل. يتهمه بالتقصير. كيف عرفت الأميرة مرمرة بما يجري؟ يقسم له المتغوِّل إنه لا يعرف كيف؟ يلقي الشبهة على العاملين في قصر أبي نسيم. أكيد عبد أو جارية أو خادم، هو مَن أبلغ الأميرة مرمرة بالخفايا. بعد ساعة كانت ثلة من جنود الحرس الملكي تدخل قصر أبي نسيم، تمسك بهما، أبو نسيم في كامل ملابسه القيمة، كان يستعد للذهاب إلى قصر الزمردة، يطلب العفو من الملك لابنه الخاطئ. نسيم بملابس النوم. يتم القبض عليهما. جندي يلقي بعمامة أبي نسيم أرضًا، فتظهر صلعته. الحرس الملكي يقودانهما على أرجلهما وهما مكبلان بسلاسل حديدية بين خيول الحرس الملكي. هكذا حتى قصر الزمردة. في عرض مهين لهما. في بهو جانبي من القصر. الملك عِلوِي يجلس ويقف على يمينه الوزير المتغوِّل. يدخل جنديان يسحبان نسيم وأباه. أمام الملك عِلوِي يخر أبو نسيم ونسيم ساجدين. أبو نسيم يبكي ويعترف بجريمة ابنه، ويرجو العفو لهما. الملك عِلوِي غاضب أشد الغضب. لعن أبا نسيم ونسيم، متهمًا إياهما بالخيانة وقلة الأدب. وهنا دخلت الأميرة مرمرة ومعها الأميرة ذات الرِّفعة. نظرت مرمرة لنسيم خاصة. نسيم في حالة إذلال مهانًا أيما إهانة. ورغم المذلة التي هو فيها، كم هو جميل! غريبة.. تشتاق لجسده وجمال ملامح وجهه. تشتاق لقبلة منه.

تشتاق لسهرة كاملة معه. أن يعيش معها في جناحها، أو تعيش هي في قصره. إنها تحبه رغم ما فعله.

الملك نظر للأميرتين مرحبًا، كم يسعد حين تأتيانه هادئتين محترمتين له. عاد لينظر ناحية الأب وابنه الساجدين. يعدهما بالجلد والسجن والتضييق على أعمالهما في كل المملكة. أما الأراضي التي نالها أبو نسيم بواسطة الأميرة مرمرة، فتسحب منه كلها وتعطى للأميرة مرمرة، تعويضًا عما بدر من نسيم. أبو نسيم يبكي بكاءً أعمق من بكاء ابنه نسيم. نسيم نظر نظرة سريعة في عيني مرمرة. ارتج جسد مرمرة من نظرة نسيم.. نظرة حب ورجاء واستجداء. ثم ينظر نسيم لوجه الملك، فيجده وجهًا ضعيفًا شاحبًا، ويرى عينيه خابيتين. أحنى نسيم رأسه واستجدى الملك أن يعفو عن أبيه فلا ذنب له.

قالت مرمرة:

- مولاي الملك. تفضل عليهما ومر بفك قيودهما.

أشار الملك برأسه موافقًا، تقدم الجنديان وفكا قيودهما. قالت الأميرة:

- انهضا.

وقفا وبكاءهما مستمر. اقتربت منهما الأميرة مرمرة. تنظر لنسيم في ألم، النظرة ليست نظرة كراهية. نظرة حسرة. حسرة مختلطة بالغضب والحب. التفتت ناحية أخيها الملك. وقالت له:

- أخي الملك عِلوِي. الأراضي التي نالها نسيم وأبوه بعد أن استغلا خطبتي، تؤول إليّ كما أمرت يا مولاي. لكن أرجو عفوك عنهما. بشرط.

قال الملك:

- اشرطي كما تشائين.

- على نسيم أن يعتق عشيقته الجارية ويتزوجها.

خرجت مرمرة مسرعة قبل أن يروا دموعًا تسيل على خديها. تسرع في خطواتها وهي تزوم وتضرب بقبضتيها على فخذيها.. كيف هان عليها قلبها، فتأمر أن يتزوج حبيبها من عشيقته؟! كيف تصاب بالخبل فتفعل هذا؟! تتوقف عن السير السريع وتغطي بكفيها وجهها وتبكي بكاءً مرًّا. فقدت حبيبًا كاد أن يكون زوجًا. فقدت مَن ظنت ثم تيقنت أنه الدواء الشافي لمتاعبها، والعلاج العافي من انهياراتها الداخلية. تعود للخطو السريع المرتبك متسائلة: هل ظنها كان واهيًا، ويقينها كان مجرد أمنيات تراودها، وأحلام ظهيرة كانت تحلم بها؟ هل انهار قصر الراحة المبتغى، وعليها أن تعود لآلامها من جديد؟ قلبها المتألم به نبع يتدفق بحب نسيم رغم الجرح العميق.

لم تستطع النوم. ولودفيج أكيد في قصر نسيم مع أخته. فطلبت تجهيز قاعة الرقص، رقصت وبكت حتى انهارت ولما حاولوا رفعها وأخذها لمخدعها، طالبتهم بتركها حيث هي. ستنام هنا. وفي الصباح لم تطلب إفطارًا، لم تطلب شايًا ولا قهوة. تجرعت كئوسًا من

الخمر على معدة خاوية. ذهبت تتطوح لمكان الكوخ، ما أطلق عليه سابقًا عش الحب. الذي أحبت فيه أختها جوهرة وتلاقت فيه مع حبيبها، ثم تم قتلها فيه وقتل حبيبها. طلل النخلة العتيقة غير المثمرة شاهد على المأساة. بكت. جلست تواصل البكاء. فترة تبكي. من بعيد تراقبها ذات الرِّفعة. طلبت جاريتين فحملتاها معًا وعادتا بها لحجرة التحشيش، فلما انسطلت. ساعدتها ذات الرِّفعة لتسير لمخدعها ونامت مسترخية.

أيام شبه مخبولة. أيام صعبة تُذكرها بأيامها الأولى، بعد مقتل أختها الأميرة جوهرة، ومقتل أخيها سِلْوِي. إنها سلسلة أحزان وإن اختلفت منابعها. قلبها يؤكد لها أن نسيم يحبها، وعقلها كذلك يؤكد أن نسيم هو الزوج والرجل والمرطب الأساسي لجروحها وقروحها. لكن وما أقسى لكن.. ماذا تفعل مع شياطينها الباطنة؟ تستهزئ بها وتؤكد أن نسيم مثله مثل غيره، قاسٍ غليظ الحس غرضه جسدها، وإن ادعى غير ذلك. صراعات في جوفها أيأستها وأحبطتها وألقتها في بئر ضياع كئيبة.

أيام ونسيت التفاؤل وتصر على تناسي نسيم وتقاوم شوقها له. عادت لحياتها اللاهية، عادت وهي تأمل أن تجد رجلًا صريحًا ناعمًا مثل الإفرنجي بايرون. أول مَن استطاع ترويض رفض جسدها للتلاقي الجنسي الكامل. تقاوم حسرتها أن نسيم هو الذي لم يفعل ما فعله بايرون الشاعر. بايرون الغريب الذي فعلها وضاجعها بنجاح ثم رحل تاركًا ذكرى سكرية في نفسها وجسدها.

الشاعر الغريب كان ومازال، أول وآخر من دخلها فأمتعها المتعة التي تسعد النساء، وتُستكمل أنوثتهن بها، وبدونها تكون الأنثى ناقصة التكوين، تكون عرجاء وإن كانت سليمة الساقين. عمياء وإن كانت مبصرة. تكون امرأة هلامية طالما لم ينل الجسد حقه. فمتى يكون ما يجب أن يكون؟ متى يأتي مَن تتمناه ويبقى معها وتبقى معه نفسين في جسدين معًا. متى يأتي مَن تنتظره؟ فقدت مَن تيقنت سابقًا أنه المطلوب المرغوب.. نسيم. لكنها لم تعرف أن الأميرة ذات الرِّفعة، ذهبت لقصر أبي نسيم وقابلت نسيم وأباه وأمه وأخته. وأكدت لهم أن الأميرة مرمرة تحب وتعشق نسيم. وعليه ألا ينفذ أمرها بالزواج من الجارية بافاريا، يكفيه أن يحررها. ولما أبدوا قلقهم من غضب الأميرة مرمرة إن لم ينفذوا شرطها، أكدت الأميرة ذات الرِّفعة أن هذا لن يحدث، وأنها تتحمل المسئولية. وهنا أمر والد نسيم بأن يستدعوا الجارية بافاريا التي أصبحت حرة. أتت الأميرة ذات الرِّفعة أعجبت بجمالها، وعذرت نسيم في عشقه لها. وإن كان وجه الفتاة منطفئًا، وهالتان بنيتان حول عينيها. ولا تضع أيًّا من أدوات الزينة، وملابسها وإن كانت غالية، فهي مهملة. والد نسيم سأل بافاريا:

- قولي لنا في حضور الأميرة ذات الرِّفعة، قولي لنا ما هي أمنية حياتك التي تتشوقين لتحقيقها؟

- أن أعود لبلادي وأحتضن أمي.

- هل لكِ أمنية تحققينها هنا؟

- لا.

- ولا الزواج من ابني نسيم؟

- أنا لا أصلح لمولاي نسيم. هو من عليّة القوم وما أنا سوى جارية أعتقت.

- ولماذا نحن نمنعكِ من الرحيل لبلدك؟

- تخشون من غضب الأميرة مرمرة التي حكمت بزواج نسيم مني.

التفت أبو نسيم للأميرة ذات الرِّفعة وقال:

- هل تدافعين عنا إن تركنا بافاريا ترحل؟

- بالطبع. وستوافق مرمرة على ذلك، حتى إن طلب عبدها لودفيج الرحيل مع أخته. وأنت يا نسيم، هل تنتظر مرمرة حتى تفيق مما كان وتعودا لبعضكما؟

- بالطبع.

الأرض التي صارت من حقها، لم تتاجر بها. أمرت أبا نسيم بأن يرسل التخطيط الذي وضع للأرض. جاءها المُخطط بتقسيم الأراضي. ذهبت ومعها لودفيج وعامل تابع لشئون المملكة، مختص بتحديد الأراضي. ومرت على عدّة مناطق فقيرة. وزعت كل الأراضي على الفقراء. خاصة اليتامى والأرامل والمرضى. الناس صدقوا ما يحدث بصعوبة. يدعون لها ويهتفون لها وللملك عِلوي. النساء والفتيات أمطرن مرمرة بالأحضان والقبلات باكيات، فبكت معهن لفرحتهن. ومنذ هذا اليوم اشتهرت باسم الأميرة مرمرة الطيبة.

***

(11)

الأميرة ذات الرَّفعة والفجر أعلن بشائره. حبيبها مَن يخفف عنها كتمة الصدر ويرجو لها الصبر ولو مؤقتًا، ذهب بعد جلسات ود وأحضان ساخنة انتهت بنكاح ما كانت ترغب فيه، لكنه الجسد وحُكمه، الجسد وجبروته الفارض نفسه على النفس كلها. مع حبيبها شكّور الذي صار عشيقها، أخذت معه حمّامًا في مغطس مياه ورد بارد، تحممه ويحممها، يضحكها فتضحك بالفعل وفعل الحزن رابض من تحت أحراشها الباطنية. ودّعها وعاد لقصر الضيافة وتركها تشعر بالفقد. بفقد زوجها المقتول وفقد ابنها المأسور، ثم بفقده هو، فقد شكّور الذي كان في أحضانها جافة ومبللة.

حقيقة لم يبعد عنها حبيبها إلا منذ أقل من ساعة، وأقل من ساعة بالنسبة لذات الرَّفعة، زمن طويل وهي في حالتها الآنية. قلبها موجوع خوفًا على ابنها الأسير الغائب، مهما طمأنها حبيبها البدوي شكّور على أنه بخير. الأميرة ذات الرَّفعة، الأنثى المهضومة تتأسى على نفسها منذ ساعة رحيل حبيبها عشيقها. سيرحل إن لم يكن بعد غد، فبعد بعد غد. حتمًا سيرحل عنها حبيبها البدوي لصحرائه، ويتركها وحيدة موحشة. فهل يصبر قلبها ويصطبر جسدها على فراقه، شكّور هو المخدر الذي يطمئنها على غياب ابنها راسم. شكّور هو مَن ينسيها مؤقتًا مأساة موت زوجها الحبيب، الفارس الشهم الأمير سِلْوِي؟

ملل وضيق صدر وعدم رغبة في النوم. فتحت نافذة تنظر للخارج علّ فسحة المنظر تفسح شيئًا ما عن ضيق صدرها. الهواء ستائر تتحرك وقطرات مطر قليلة تهبط على استحياء. موسم الأمطار يهل. ذهبت للمنضدة التي عليها الغلاف الصغير الغريب. وصل لقصر الحرملك بغموض. الخطاب موجه لها. يومان والغلاف مركون على منضدة في عدم اهتمام منها. الآن انتبهت إليه. غلاف أصفر أنيق وسطر مكتوب بخط جميل.. إلى الأميرة أم الأمير راسم للأهمية. سارت خطوات ووقفت وسط الحجرة وتحت مصباح منير. فتحته.. ورقة ناصعة بها أسطر قليلة. أسطر قليلة لا غير. أسطر قليلة كانت كفيلة بقلب كيانها..

أميرتي ذات الرِّفعة. أنا ممبار مَن كان مساعدًا لقائد الجيوش المتآمر الخائن جَربال. أنا مَن يتهمونه ظلمًا بأنه شارك في اغتيال زوجك النبيل سِلْوِي. بل أنا الهارب من انتقام جَربال الذي قتل النبيل سِلْوِي بسيفه، قتله وهو جريح. يجب أن تستمعي لي، لتسمعي تفاصيل مؤلمة عن مؤامرة اغتيال زوجك الأمير البطل سِلْوِي السُمَيِّد. أثق فيك كما كنت أثق في زوجك النبيل. أرسلي رجلًا من طرفك يسأل عني صاحب مطعم الممبار المتواجد في السوق. راعي السرية فإن علموا بمكاني لقتلوني فورًا وقتل صاحب المطعم وكل مَن حوله.

هكذا! هكذا ارتج جسد ذات الرِّفعة. لم تستطع أخذ خطوات للجلوس على مقعد أو سرير أو حتى على وسادة. أقعت أرضًا ومال جذعها للأمام تعصر ملامح وجهها ألمًا، والخطاب ينعصر بين أصابع كفها اليمنى. لحظات لا تستطيع أن تتنفس. ثم عودة جسدها لينتصب ثم يميل للخلف وينفتح فمها لأقسى اتساع وتصرخ صرخة كل المكلومات. صرخة كل الأرامل المنكوبات. صرخة كل حبيبة فقدت حبيبها مغدورًا مقتولًا. تمددت على جانبها حتى أتى على صرختها جواريها وحملنها على السرير. أفقنها بالمياه. أفاقت لتنخرط في بكاء ينتفض له جسدها. بقيت معها أقرب الجواري والمخصصين لها. استجمعت نفسها وصرفتهن من حولها فيما عدا جاريتين هما الأقرب منها. طلبت منهما أمرًا فنفذتا فورًا.

الأميرة ذات الرِّفعة تعيد قراءة الخطاب وتبكي. تترك ذراعيها الممسكتين بالخطاب تهبطان لأسفل، وبيدها اليسرى تضرب في جانب رأسها ثم تمسح دموعها. الخطاب خطير. ممبار مختفٍ منذ سنوات، منذ عاد الجيش مهزومًا في موقعة جبل الصد. يبحثون عن ممبار بحرقة متهمينه بأنه شارك رعية الهوجة في اغتيال الأمير سِلْوِي. يجب على الأميرة مرمرة أن تستمع معها لتفاصيل مؤامرة اغتيال الأمير سِلْوِي.

جندي من حراس بوابة قصر الحرملك موثوق فيه، وفوق الثقة سيحصل على قطعتين ذهبيتين. أسرع

على حصانه وقطرات المطر مستمرة. وصل للمقصود، أردفه خلف حصانه وأسرع به لقصر الضيافة. كانت الأميرة ذات الرِّفعة قد سبقته على حصانها.

الفجر راح والنهار بشائره تشاكس بقايا ظلام الليل المنقضي. ذات الرِّفعة تسرع في ردهات القصر. تخرج للحديقة الخلفية وتتجه إلى حظيرة الخيول. تأمر بإعداد حصان قوي. تمتطيه وتسرع به خارج القصر، غطاء رأسها الليل يبتل من المطر الخفيف. والنهار يتغلب على الظلام وصار عينا للوضوح. قصر الضيافة ليس بعيدًا.

في هذا الوقت والأميرة ذات الرِّفعة مضطربة غاية في التوتر. كان الأمر مختلفًا مع الأميرة مرمرة والأمير عبد الرحيم الوسيم. في الشرفة العريضة، وعبد الرحيم ترك سريره واستلقى بجوار مرمرة، ليحتضنها في تأثر من عمق مأساتها التي ترويها. فجرهما لم يأتِ بعد. نامت فنام هو أيضًا. بعد ساعة فقط مرت عليهما وهما في غفلة النعاس. استيقظا فتناولا بعض الفاكهة وكوبين من القهوة. ولم يسألا عن أحد. لا مرمرة سألت عن أن أخاها الملك سيغضب من نومها في جناح يجمعها مع البدوي. ولا عبد الرحيم سأل في ابن خالته شكّور، ولا في الفرسان الذين أتوا معه لهذه المملكة. حتى قلقه على مرور الأيام بدون اتفاق مع الملك وبطانته، لا يعنيه الآن! كل ما يعنيه أن يستمع لبقية حكاية الأميرة مرمرة، لتقترب هي منه، فنيل تلك الأنثى الأميرة لن

يكون بالهجوم الصريح ولا بالتلويح الساذج. فليستمع ويتركها تلين وتلين وهي تحكي، ومن ثم يكون جسدها من نصيبه، ثم بعد ذلك الري الجسدي، فليكن ما يكون. وكان ما يريده بمبادرة منها هي. حكيها واستماعه الرقيق، وأنه ترفق بها أراحها. ثم ما كانت تحسه بدواخلها.. إنها ما زالت تتلهف على الحياة في البلاد الغريبة، رغم مقولة الشاعر بايرون لها إن البشر هم البشر، والظلم في كل مكان.

استمتع عبد الرحيم بجسدها أيما استمتاع، فهي لم تتذوق الجِماع التام في حياتها سوى ليلة نادرة منذ شهور طالت. وإن كانت من قبل تلك الليلة تشتاق للنكاح الكامل المتكامل، فإنها بعد تلك الليلة صار اشتياقها لهيبًا، فقد ذاقت، والتي تتذوق هذه المتعة تصير كالمجنونة إن افتقدتها، فمتعة الجسد بالجسد مثل ماضغ الأفيون، لا يستطيع عنه بعدًا. تلك الليلة التي جمعت جسدها المحروم بجسد المتوقد عبد الرحيم، كانت ليلة ملتهبة فجرّت فيها تنور نيران الرغبة تفجيرًا. بعد الوصال الذي تكرر فطال. سالت قطرات دموع على خدي مرمرة، ليست دموع ندم أو دموع حزن، ولا هي دموع مناكفات شبحها القبيح، الذي فشل في تعكير صفو مضاجعتها مع الأمير البدوي. إنها دموع فرح مختلطة بالكثير من الأسى.. فمثلما سافر أول رجل في حياتها، فسيسافر الثاني. مثلما تفتقد الشاعر الغريب الأمير بايرون رجل البلاد البحرية، مثلما ستفتقد الأمير

الغريب البدوي عبد الرحيم الوسيم رجل القبائل الصحراوية. ويل لها.. تعشق الغرباء، والغرباء دائمًا على سفر. وكأن الفقد مكتوبها، وسفر الأحباب قدرها.

الأميرة مرمرة سعيدة بأنها حكت بانطلاق وصراحة أغلب تاريخها منذ صغرها وحتى الآن، لكنها تغاضت عن حكايتها مع الأمير الإفرنجي. الشاعر بايرون. لم؟ لا تعلم. إذن، بقي من تاريخها المكتوم داخلها بواقي تضايقها. سعادتها أنها قضت وطرها مع مَن يستحق جسدها، سعادة كبيرة. لها أن تستجمع شجاعتها وتحكي له عن الذي سبقه لها. فلتحكِ لأمير الصحراء والفصول الحارة، حكايتها مع أمير البحار والشتاءات المثلجة.

مرمرة لا ترى في عبد الرحيم ما رأته في الإفرنجي بايرون، لم تحس ما أحسته مع بايرون. مختلفان تمامًا. يجمعهما أنهما أميران وأنهما غريبان، وأنهما يفهمان في النساء ويعرفان كيف يطيران بهن فوق السحب. سيسافر هذا أيضًا، وهذه الليلة يتيمة معه، كما كانت ليلتها اليتيمة مع الشاعر الإنجليزي. سيسافر هذا أيضًا ربما بعد يومين.. ثلاثة.. أربعة، سيسافر حتمًا ولن يبقى إلا إذا قتلته مكيدة من مكائد المتغوِّل. إنه الوحيد الذي يمكن أن تحكي له تجربتها مع الأمير بايرون الإنجليزي، خجلت أن تحكي لذات الهمة، فلتحكي للبدوي الغريب. لتحكي لتعيش اللذات مرة أخرى فتستعيدها وتتنسم عبقها. فلتحكي له عن عشقها للإفرنجي الذي أعجب بها واحتضنها ليلة، ليلة واحدة فقط وارتحل! عن الذي نقلها

من العذرية للنسوية بحق، بعدما بقيت حقيقة عذراء، رغم أصابع لودفيج الخالية من الحياة، الأصابع عديمة القذف.

احتضنت الأمير البدوي. قالت وعيناها تقولان بوضوح أعمق وأشمل:

- لم يضاجعني قبلك سوى واحد فقط. أمير مثلك وغريب عن مملكتنا مثلك. هلا سمعتني أحكي عنه وعني؟ هل تصبر مرة أخرى وتدخل في بواطني وتعرفني أكثر؟ لك بعد سفرك أن تحكي عني كما يحلو لك. لكن لا تظلمني فأنا ظلمتُ كثيرًا. كثيرًا جدًّا. وقلت لنفسي كثيرًا، كثيرًا جدًّا: كان من الأفضل أن يطلقوا عليّ اسم مظلومة. فهذا الاسم مطابق لحياتي..

أنا لا أرقص بانتظام في ملهى الهوى سوا، إلا في ليلة التلاهي، فالكل ينتظرني كما أنا أنتظر تلك الليلة. أنقطع كثيرًا عن الملهى، أكتفي بالرقص في قاعة قصر الحرملك. في ليالٍ يكون مزاجي أن أرقص في ملهى الهوى سوا. هكذا وبدون إعداد. آخذ لودفيج فيكون على ظهر حصانه المجاور لحصاني. نذهب متنكرين. أدخل الملهى من بابه الخلفي. يحتفي بي مالكه ويجهز لي العازفين بأسلوب رقصي، فأنا أهم راقصة عنده. ويفرح لأنني لا أطالبه بمال مقابل رقصي. يعد لي حجرة نظيفة مريحة خاصة لي أبدل فيها ملابسي وأستريح فيها مع عبدي الأشقر. غبت شهورًا عن ملهى الهوى سوا، وفي ليلة ذهبت. فكانت ليلة مشهودة. وأنا

في طريقي للملهى.. كان القمر يقارب حالة البدر. يصعد من جانب السماء أبيض مُذهبًا. تفاءلت به. نظرت له كثيرًا وتركت الحصان يسير بي. ابتسم لودفيج لمراقبتي القمر وكأني طفلة.

رقصت. أرتدي رداء رقص يكاد يعريني أكثر من أي ليلة أخرى. مخمل أسود مرصع بترتر فضي يعكس أضواء مصابيح الملهى فتكون نجومًا متلألئة. وفي أذني قرط لؤلؤتين من اللؤلؤ الأسود النادر، ويتدلى بين نهدي عقد زبرجد. وأنا أرقص وعلى وجهي قناعي الأسود المعروف. الرواد يهتفون لي ويحيونني باسم بطاطا، وشهوتهم الذكورية تسخن في أجسادهم، ولا يجرؤ أحد على لمسي، فأنا غير قابلة للمس، ومَن يجرؤ يجد عبدي الأشقر فوقه يوسعه ضربًا. حدث هذا مرات ومرات حتى أيقن الجميع أن المشاهدة فقط هي الأسلم. وأنا في بداية الرقص، إذا برجل أشقر جذاب يقف ويلوح بكأسه لأركان الملهى ولي ثم يُلقي خطبة قصيرة بلغة غريبة. علّ ما قاله هو شعر. جلس الجذاب الذي يحتل مائدة وحده في ركن علية القوم المعهود. أركز عيني عليه خلال تحركاتي الراقصة في المكان. إنه رجل أشقر ولا يقل شقرة عن لودفيج. إنه فاتن أنيق جذّاب. ملابسه مثل ملابس أغنياء رجالنا. يبدو أنه يعشق اللون البني. فتشكيلات بنيّة مع لمسات من الأخضر الزمردي تغمر كل ملابسه. عمامة صغيرة بنية ذهبية زمردية. رداء مخملي بني مذهب وفي نهاية

كميه يعود اللون الزمردي، ولم أرَ بقية ملبسه حتى قام واقفًا، نفس درجات البني والأخضر الزمردي. وجهه وضّاء، جبهته عالية، عيناه بحران زرقاوان. حليق اللحية، ذو شارب خفيف. وجهه يشع ألقًا. وأنا أرقص أتمعن في عيني الأشقر الناعستين الآسرتين. تركيزي في الرقص حول مائدته. وهو يتابعني باهتمام أسعدني. قام رافعًا كأسه وحكى بعض كلمات أجبرتني أن أهدئ من رقصي فهدأ عزف العازفين. قال بعربية ذات لكنة أجنبية:

وإذا كنت نائمًا.. وإذا حلمت في نومك..

وإذا ما ذهبت، في حلمك، إلى السماء، تقطف زهرة جميلة وغريبة

وإذا ما وجدت الزهرة في يدك بعد استيقاظك فماذا تقول؟

يا ألله. إنه شاعر. اقتربت منه وأنا أرقص بمزاج أعمق وألذ. انحنى جذعي يتثنى في دلال فرح فصار ثدياي موجتين حانيتين وبينهما عقد الزبرجد يتلوى. رفع الأشقر يمناه يشير لي بأن أنزع قناعي. هززت رأسي لا. فوقف ورفع كأسه لي وأنشد لي بعربيته الغريبة:

تتراقص في جمال مثل ليل

سموات تتلألأ فيها النجوم ولا غيوم

وأحسن ما في الظلام وما في الإشراق

يلتقي كلّهُ في طلعتها وفي عينيها

ضحكت سعيدة بكلماته الشعرية. أكملت رقصتي وانسحبت. لودفيج كان يراقب وأحس بأن في أموري أمورًا ستتغير. لم ينطق. تابعني في حجرتنا. حممني كالعادة، لكني لم أجامعه جماعه الناقص. وجدني متعجلة فقال:

- الأشقر الغريب؟

- نعم.

ارتديت ملابسي وخرجنا من الباب الخلفي. طلبت من لودفيج أن يبقى بعيدًا ويراقب الباب. ويأتيني حين أخرج. ثم دخلت الملهى من الباب الأمامي معي حقيبة خفيفة من الجلد اللامع. راقصة أخرى ترقص ومغني يغني. لم يتخيل أي من وراد الملهى أن التي دخلت حالًا هي بطاطا! توجهت فورًا لمائدة الشاعر. سحبت مقعدًا وجلست فرحب بي وطلب كأسًا إضافيّة. صبّ فيها وناولني إيّاها. سألني عن اسمي.. لم أجبه بالقول، فتحت حقيبتي وأخرجت القناع وعرضته عليه بدون أن يرى بقية رواد الملهى. شهق وفرح، قال:

- بطاطا؟!

وضعت أصبعي رأسيًا أمام شفتي ليتوقف عن إعلان اسمي. ضحك. وقبل أن يتكلم أنشدته مما كنت أقرأه وأحفظه وأنا صغيرة..

سمعت صوتًا هاتفًا في السحـر

نـادى من الغـيب غفـاة البشـر

هبوا املأوا كأس المنى قبل أن
تملأ كأس العــمر كف القـدر

قال:

- عمر الخيام.

قلت له:

- ما اسمك أيها الشاعر؟

- أنا الشاعر. أهذا يكفيكِ؟ لا! إذن أنا لورد. أنا الأمير بايرون. وأنتِ.. شاعرة؟

- لا.

- لا يهم. رقصكِ شعر لو تدرين.

- صحيح. فالشعر فن. ورقصي أنا فن.

- أنشدي لنا بيتًا من الشاعر الحكيم عمر الخيام..

أنشدته وأنا أتراقص جالسة..

غـد بظهـر الغيـب واليـوم لي
وكم يخيب الظـن في المقبـل
ولســت بالغافـل حتــى أرى
جمـال دنيــاي ولا أجــتلي

استمرت سهرتنا في حوارات عن الفنون. أنا والإنجليزي قربنا مقعدينا من بعضهما، صرنا مع الباقين ولسنا معهم. قلت باختصار سأفشي لك سرًّا فلا تبح به. أنا أميرة واسمي مرمرة. تعجب وزادت حمرة خديه الرائعين. جاء وقت إغلاق الملهى. خرجنا سويًّا. تبين لي أن بساقي الشاعر عيبًا ما. فخطواته بها هزة غير طبيعية.

كل منا على حصانه فلحق بنا لودفيج على حصانه خلفنا. ولما تساءل عنه الإنجليزي قلت له إنه خادمي وفي نفس الوقت حارسي. تعجب. فالخادم أشقر وسيم مثله وأقوى منه جسدًا. نظرت للقمر. توسط السماء لجيني اللون ساحرًا. نظر بايرون للقمر وقال:

- القمر واحد. لكنه في بلادنا له جمال، وهنا في بلاد الشرق له جمال آخر. وأنا جئت لبلاد الشرق لأرى جمال الشرق كما رأيت جمال الغرب.

وحدنا أنا والأمير الإنجليزي بايرون. شاعر ساحر الكلمات. لم أتحدث معه كثيرًا، أتعمد ذلك. أريد أن أسمع حديثه الشاعري الموسيقي. وقبل أن نصل لبيته، تيقنت أن هذه الليلة هي ليلتي. هي ليلة فض عذريتي. وصلنا للبيت، فطلبت من لودفيج الصرّة التي تحتوي رداء رقصي وبقية احتياجاتي. هبط من على ظهر حصانه وناولني إيّاها. طلبت منه أن يعود للحرملك ويأتيني صباحًا. عاد لامتطاء حصانه وهو يحاول مداراة حزنه. وضع الإنجليزي الحصانين في حظيرة البيت. ودخلنا بيته متوسط الاتساع. لم يكن عنده سوى خادمة عجوز حتى لم تصحُ على أصواتنا.

خلعنا نعالنا وتخففت من ملابسي، وهو فك عمامته الأنيقة. فكما انسدل شعري الأسود الفاحم، انسدل شعره الأشقر الفضي. كلانا نظر لوجه الآخر في إعجاب. جلسنا على وسادتين. ننظر لبعضنا في رضاء. هو واثق مطمئن وأنا مطمئنة وإن كانت بي مسحة قلق. وقلقي ليس

منه، قلقي من دواخلي أن تتغلب عليّ. أتت العجوز والنوم يربك خطواتها. ابتسمت لي. طلب منها طعامًا خفيفًا وقارورة خمر وكأسين. يتحدث لي في بساطة. إنه أسد جميل رقيق في عرينه. وأنا طاووس يتمنى حضن الأسد الطيب، ويخشى أسوده التي بداخله. سألته:

- مَن أنت؟

ضحك..

- يا له من سؤال عويص! وهل أعلم أنا مَن أنا حتى أقول لكِ مَن أنا؟

- حاول. وإن لم أفهم ما لم تفهمه، سأشعر بك.

- رأي معقول. وربما وأنا أحاول اكتشاف مَن أنا، أفهم مَن أنا! أليست لعبة شيقة؟

- وجميلة.

- وستقولين لي مَن أنتِ؟

- قلت لك حقيقة ظاهري، إني أميرة واسمي مرمرة. أما أنا ببواطني، فإن فهمت أنا مَن أنا، سأقول لك مَن أنا. لكن سأروي ربما أفهم نفسي، أفهم مَن أنا. وأكيد ستشعر بمكنوني.

جاء الطعام والشراب، وسمح للعجوز أن تعود لنومها. حكى لي أولًا قصته في اختصار، لم يحكِ التفاصيل الكثيرة، حكى عن أهم نقلات حياته وأهم منغصاته وآلامه ومفرحاته. يبدو لي يا عبد الرحيم أنه لا يوجد بشري في هذه الحياة مستريحًا تمامًا مهما كان غنيًا أو

ذا مكانة. كل منّا له بؤسه وحزنه ونقصانه. حكى بايرون فقال:

- تخيلي أن أبي اسمه جاك المجنون، وأن أمي رغم تدليلها لي المبالغ فيه، عايرتني بساقي المشوهة؟! فكيف أكون أنا إذن؟ هاها. لكنهما أورثاني لقب لورد. أورثاني جاهًا ومالًا، عشت بهما حياة رغدة في مظهرها. والأهم أورثاني نفسًا مُتعَبة وشعارية مرهقة. مات أبي وأنا في العاشرة من عمري، فورثت اللقب طفلًا! استخف بي مجلس اللوردات فكرهتهم واحتقرتهم. مرت سنوات. تزوجت وأنجبت فتاة، هي الشرعية الوحيدة عندي. أشاعوا أن هناك علاقة جنس بيني وبين شقيقتي. آلامي تتفاقم. هجرت زوجتي. ومع معاناتي وأنا ما زلت في مقتبل العمر، صرت ذا تركيبة بشرية مرتبكة مُربكة. فقدت استقرار نفسي. وبقدر حبي للغوص في أعماق البشر، إلا أني حين أكون وحيدًا أشعر براحة. ففي الوحدة يشعر المرء أحيانًا أنه أقل وحدة. كرهت بلدي. أسكتلندا بلدي. سافرت لبلاد أخرى كثيرة غربًا وشرقًا وجنوبًا، وظلمتُ فيها فأحببت بلدي! فهل سأعود إلى بلدي؟ مَن يعرف؟ أحببت العديد من النساء وأحبتني نساء أكثر مما أحببت أنا. حياتي في بلدي وفي بلاد الناس، سلسلة من الطيش تقودني عواطفي الجامحة كرهوان أصيل. نزواتي العفية كثور هائج.

كتبت الشعر صغيرًا، ومن أولى قصائدي نلت استحسانًا وشهرة من الصعب أن ينالها شاعر آخر هكذا

سريعًا. كان يأس ما يخيّم على بلدي والبلاد من حولي. شِعري أضاء نورًا ونارًا فأزاحا كآبة اليأس من البلاد. وقتها احتلت العقلية الصرفة أفئدة الناس. بأشعاري حببت الناس في المشاعر، والاعتراف بالإلهام والفنون ومنطلقات النفوس، لتكون كلها كتفًا بكتف مع العقل. وقد كان، أي أنا بايرون الشاعر، بقصائدي ساعدت البلدان على فك قيودها والانطلاق. أبدلت الفرنجة من حال ركود لحال حركة لو تصدقين. ورغم مالي الوفير ومكانتي العالية كلورد، والأعلى منها كشاعر خطير، لم أسترح ولن أستريح ربما حتى أنال راحة الموت. وُلِدت أشك في كل شيء، ولا أنكر أي شيء! كيف؟ لا أعرف. هل تعرفين أنتِ؟ مُتعَب مُتعِب أنا. فهل ارتكبت خطايا غامضة لا أعرفها ويعرفها الإله؟ ربما. أقول ربما، لكن أنا متأكد ألا ذنب لي. فما أعانيه سببه هذا الوجود، لست أنا السبب.

يا أيتها المرأة الشابة الجميلة. أيأتي يوم وأستريح أنا من قدر السفر، أتأتي ليلة وتهدأ نفسي وتهجر إشعال براكينها؟ ليت، فهذا مطلبي. هذا مطلبي الذي لن أناله. فأنا الباحث عن نجمة مستحيلة. وكأن نجمتي أصلًا لم تخلق بعد! عليّ أن أختصر أكثر في حكايتي. اسمعي..

«ليكن نورًا» قال الله، فكان نورًا. "ليكن دمًا" قال الإنسان، فكان بحرًا من الدماء. تُرى.. هل أنا ممن قالوا دماء، ليصير كوننا دماء؟ عن نفسي أقول كما قالت لك

من دقائق.. ما أعانيه سببه هذا الوجود، لست أنا السبب. لست أنا السبب.

تجرع بايرون كأسًا. صارت معالم وجهه الجميلة أكثر رونقًا وتضوعًا وجمالًا. كنت على وشك أن أثب عليه فألقيه على ظهره وأشبعه قبلات تليها قبلات. رفع رأسه لسقف حجرتنا، بقي قليلًا وكأنه يبحث عن شيءٍ ما. ثم نظر لي وأنشد بالعربية..

على هذا الخد وعلى ذاك الجبين
تتهادى الرقة في حسن الكلام
بسمة تهل على القلوب فيصحو
الحنين
تحكي في نعيم عما مضى من
سالف الأيام
بصفاء عقل وحكمة السنين
وطُهر قلب كم عاش في هيام

وبعدها وقف أمامي. عاد خطوتين للخلف. غاص في إلقاء أشعار بلغته وبمشاعره وتعبيرات عينيه وملامح وجهه الملائكي. يتحرك في الحجرة أمامي هنا وهناك. لم أفهم كلمة منها، لكني أحسست بكل حرف يقوله. يا لروعة الشعر! يا لجمال الفن! يا لحلاوة الإنسان حين يسبح في شاعرية نقية بللورية! تقدم مني وقبّل قمة رأسي. جلس بجانبي مخمورًا بالشِّعر وأنا مخدرة به وبشِعره. مال وأسكن رأسه على فخذي. فانتفض فخذي وارتعش جسدي وتأوه قلبي. فمه بجوار خصري. أنشد

أبياتًا رقيقة فكانت مع أنفاسه ذبذبات تسري في كُلي. ثم دقائق لا يتكلم. وضع يده حول خصري. فأخذت أربت ظهره. اعتدل وسأل:

- أمعكِ ملبس رقصك الجميل؟

ذهب هو لحجرته وعاد مرتديًا جلبابًا سماويًا رقيقًا، فوجدني في ملبس الرقص، الكاشف عن الجسد والمرصع بالنجوم. أخذ يدور حول الحجرة، ناظرًا لي متمعنًا وكأنه صقر سيثب في أيه لحظة على عصفور أسير هو أنا. مشيته غريبة، لكنها ليست معيبة. جميلة. يا أله.. أكل شيء في هذا المخلوق جميل حتى عرجه؟!

أتاني واحتضنني سريعًا، وأنا أقول في نفسي لمَ تأخرت أيها الغريب الجميل؟ قبّلني وقبّلته وزدنا تقبيلًا ولا أدري أأنا البادئة أم هو؟ وهل هذا يهم؟ المهم أن القبلات تزيدنا التصاقًا فتتقابل خلايانا. قبلات تتخلل الجسد كمخدر عسلي الطعم خمري التأثير. وأنا في هذه الدوامة المثيرة المنسابة، لم أقلق من أشباحي الكئيبة التي تعصف بي كلما دخلت في متعة الجسد. لم تكن موجودة، وهل كانت موجودة أصلًا؟! تخففنا من ملابسنا في ليونة. يا لجمال جسد الأمير الإفرنجي! وردي ناعم رشيق جميل. وكان كل ما تبقى سهلًا سلسًا رائع المذاق بالغ المتعة مدهش التفاصيل.

الشاعر أزاح عني الرعب من فعل المضاجعة، فسلمت له نفسي في تلك الليلة. ليلة مفرحة تغلبت فيها على

خشيتي من تلاقي جسدي مع جسد الذكران. إنه سحر الشاعر. سحر الجمال. سحر بايرون. الأمير بايرون. الشاعر الذي خلقه الله غاية في الوسامة. غاية في السحر، ومن الجمال ما سحر. بايرون الذي خلق الله دواخله غاية في الشقاء. بمواهبه أحس بي نفسًا وجسدًا. لم يبدأ ويدخل جسدي. لا. انساب في مشاعري. رطَّب نفسي فهمدت كوابيسي الباطنية. بطيبته وحبه الحقيقي، وبشاعريته وخبرته، ساعدني على الاسترخاء الناعم الهادئ لأحضانه. فكانت الليلة حين اكتملت، ثلاثية المضاجعة. وبكائي بعد كل مرة، بكاء فرح باستكمال اللذة، فرح بتغلبي على الخوف والرهبة. فرح بانتصاري على الشبح الكريه الذي كان يتصاعد من أحشائي، ويخيفني ويربكني ويفشلني في محاولاتي السابقة. شبح كثيرًا ما قطع عليّ لذتي ببشاعة قبحه، ورائحة الموت التي تنبعث منه. بكيت بكاء سعادة عميقة.

وبعد أول مرتين، أي لذتين رائعتين! تناولنا ما يعوض إرهاقنا، وشربنا ما يعطي العافية ويعوض عرقنا الذي بللنا وبلل الملاءة تحتنا. نظر لي وقال:

- كلما أُطيح بمبدع، أصبحنا عبيدًا للأغبياء.

فترة وأحببت أن أحكي له. وجدت أذنًا تسمع وقلبًا يتأثر فحكيت ما بي. حكيت متاعبي ومقتل أختي جوهرة وأخي سِلْوِي. بكيت وأنا أعيد وأزيد في آلامي التي توجع داخلي ولا أعرف كيف أطببها، وخشيتي أن

تعود وتهزمني بعد رحيله. عن خيبتي في حبي الحقيقي اليتيم، عن خيبتي وصدمتي في نسيم قلت له:

- بايرون. أنت أول مَن رعى حديقتي وهزم شبحي الكاره للحب.

احتواني وكأنه موسيقى تنبعث من كل مكان. وفي حالتي وأنا مرتاحة من المضاجعة ومن الحكي، قال لي العديد من الكلمات ببساطة وكأنها عفوية، وفيها كل الحكم.. قال:

- كلماتي عاجزة عن تصوير عواصفكِ وآلامكِ الداخلية. في بدنكِ حرارة، وليس في قلبكِ سوى الطهر. يا مرمرة، أنتِ مثلي تنشدين المخاطر والأشعار. لحني ولحنكِ الأساسي هو لحن الحزن. يا مرمرة، أنتِ عاصفة من الوجدانيات والأحاسيس المضطربة. عودي لنسيم فهو يحبكِ، والأهم أنكِ تحبينه.

- أوحشني فعلًا نسيم. قسوت عليه لأنني أحببته. وها أنا أغفر له. شغفي بنسيم يماثل شغفي بالرقص. كلاهما يعطيني راحة واستقرارًا. كلاهما ضرورة أساسية عندي ولا أعلم كيف؟ لكن المشكلة كما قلت لك.. لقد تزوج. وأنا التي بغبائي فرضت عليه أن يتزوج الجارية.

- انشدي لي من أبيات الخيام.

أخذت نفسين عميقين..

لا توحش النفس بخوف الظنون

واغنم من الحاضر أمن اليقين

فقد تساوى في الثرى راحل غدًا
وماضٍ من ألوف السنين

تأوه بايرون وصفق منتشيًا. ثم أمسك بكأسه يرتشف. نظر لي مستحسنًا هذا الشعر. بين أن هذا الشاعر حكيم أيضًا. ثم.. مَن فينا بدأ بالقبل ولمس جسد الآخر! عدنا لنخترق بعضنا للمرة الثالثة. والديوك تستحث الفجر. استلقينا مثل قارورتين من عسل.

مسترخيان على ظهرينا، ننظر للسقف وكفّانا في احتضان. قال:

- كنت أتمنى أن أبقى معكِ أيامًا. شهورًا.

اعتدلت والتفت بجذعي وشعري المفكوك يهتز هنا وهناك. أبعدت خصلة عن عيني ناظرة إليه في دهشة..

- ماذا؟

- سأسافر غدًا.

- ستسافر غدًا؟

- نعم.

- غدًا؟!

- تقرر ذلك حسب مركب الإبحار.

ألقيت بنفسي بجانبه أغالب دموعي. مفاجأة مؤلمة. أول رجل يفضني. أول رجل كاد يعالجني من أشباحي الكريهة. ليلة واحدة. بل ليلة ناقصة ساعات، ثم يسافر اليوم التالي! دموع تنهمر في عيني. هو اعتدل هذه المرة. ينظر إليّ في شفقة. يمسح دموعي بأصابع رقيقة. نظراته تعتذر. أمسكت بأصابعه وقبّلتها. قلت:

- لو تبقى معنا أيامًا؟

- المركب المبحر لن ينتظر.

- تجد غيره بعد أيام.

- لي ارتباطات مع أصدقاء مسافرين معي، ومع المنتظرين في اليونان التي أنا مسافر إليها.

- يحزنني سفرك السريع. يطعنني سفرك السريع. أبحث عنك سنوات، وحين أجدك.. تكون على سفر!

- أنا قلت منذ سنوات طوال.. يا لضعف الإنسان أمام الأقدار!

حزنت. لقد مال قلبي له. ومال جسدي لجسده من قبل أن نتماس. هو الذي يستطيع أن يحتويني بدون أن يقاومه شبحي القبيح. هو مَن ينسيني آلامي وآخرها ألمي وحسرتي مع نسيم.

في الصباح دخلت علينا العجوز. أيقظتني وتركت أميري الشاعر نائمًا. أتت لي بالقهوة. أشربها وأنا أتمعن في الجمال النائم. فرحة به تعسة لسفره في الغد. عيناي دمعتا فوجدت يدًا تربت كتفي. إنها العجوز التي تقف بجانبي وأنا لا أراها. رفعت رأسي أنظر إليها. ابتسمت لي ابتسامة فيها حنان الأم وخشيتها. قلت لها جملة واحدة:

- سيسافر اليوم.

في جناحي بقصر الحرملك لم أنم. طوال النهار أحكي وأحكي وأعيد وأزيد عن ليلتي تلك. أحكي وفرحتي بليلتي ممزوجة بدموع فجيعتي أن مَن أبهجني سافر!

كان المستمعان لي اثنين كلًّا منهما على حدة. لودفيج وذات الرِّفعة. لودفيج سعيد بسعادتي، لكنه لا يستطيع كتمان سعادته بأن بايرون رحل من المملكة، قلت لذات الرِّفعة

لا تقلقي، فسأمر من محنة سفر الإنجليزي. قالت: سأظل قلقة. وقلت للودفيج: لا تحسده. قال: أنا لا أقل عنه مكانة ولا جمالًا، لكن أنا أحسده في أمرٍ واحد. أنه مكتمل وأنا مخصي.

ذات الرِّفعة سعيدة بسعادتي حزينة بحسرتي. تخشى عليّ من التمادي في انطلاقاتي وتصرفاتي وحسراتي. ألقت عليّ بمفاجأة..

- نسيم لم يتزوج، وعشيقته الجارية بافاريا رحلت بالفعل من كل المملكة. وهو باقٍ ينتظرك.

- ماذا؟ نسيم لم يتزوج؟ حقًّا؟

- حقًّا، وهو باقٍ ينتظرك.

قمت عليها أحتضنها وأقبلها قبلات منهمرات.

***

(12)

الأميرة ذات الرِّفعة، على باب القصر، توقفت زخّات المطر. الحارس يقف أمامها ويشعر بأنها ليست امرأة عادية. تأمره بأن يريها حجرة شكّور. تدفع الباب وترج شكّور من كتفه وهي تناديه بصوتٍ عالٍ. يستيقظ شكّور فزعًا. لم ينم إلا منذ ساعة، بعد قضاء ليلة عشق معها. وجدها تقف بجوار سريره في هيئة فزعة. صاح:

- ماذا؟ ما الذي حدث؟

قالت كلمة واحدة:

- اتبعني.

تصعد للدور العلوي حيث الجناح الملكي. لودفيج ينام على فرشة بسيطة بجوار الباب. صحا وذات الرِّفعة تدفع الباب بقوة، والباب مغلق من الداخل. يقف لودفيج حائرًا. ينفتح الباب عن عبد الرحيم برداء نوم لين بدون عقال وشعره ينسكب حول رأسه. تدفعه ذات الرِّفعة بخشونة وتدخل، فتجد مرمرة بملابس العشق الشفافة، وشعرها ما زال مبللًا من بعد حمام ضمها هي وعبد الرحيم. مرمرة تنظر إلى ذات الرِّفعة في دهشة. اندفعت ذات الرِّفعة واحتضنتها باكية بصوتٍ عالٍ.

شكّور الذي دخل بعد ذات الرِّفعة، يقف حائرًا هو وعبد الرحيم. مؤكد أن كارثة ما قد حلت، وهذه الكارثة بعيدة عنهما. كارثة تخص ذات الرِّفعة ومرمرة. مرمرة تربت شعر ذات الرِّفعة، ثم أخذتها للشرفة العريضة لتستنشق الهواء الطازج المعبأ بعطر وورد الحديقة،

ورائحة ما بعد المطر. أجلستها وجلست بجانبها حيث قضت الساعات تحكي لعبد الرحيم. لودفيج أتى بأسرّة إضافية. يجلسون حول ذات الرِّفعة. لودفيج أتى لها بعصير ليمون مسكر وجلس على الأرض جانبًا. تناولت ذات الرفعة رشفات لتهدأ، لم تهدأ. عادت للبكاء. مَن حولها ينظرون للغلاف الأصفر الذي تقبض عليه بقوة وإصرار. بدأت ذات الرِّفعة تتمالك نفسها. تسألها مرمرة عن سبب بكائها. لا تجيب، ثم مدت يمناها القابضة على الغلاف وقالت:

- اقرئي.

تناولت مرمرة الظرف، أخرجت الورقة وبدأت القراءة بصوت مسموع. ثم صرخت:

- أخيرًا سنعرف تفاصيل مقتل أخي سِلْوِي!

يحتضنان بعضهما في بكاء. صوت أرجل حصان. مرمرة تطلب من لودفيج إحضار ممبار. يقفون وممبار يدخل عليهم. تخطى الخمسين من عمره، ما زال سليم البنية واضح قسمات الرجولة. الطيبة تشع من ملامحه. لم يُلقِ سلامًا. ملامح وجهه بها حزن شفيف. لودفيج أتى بسرير لممبار. شكّور أمسك بذراع ممبار وأجلسه في السرير الأوسط وجلسوا جميعًا حوله. دمعات نزلت من عيني ممبار وبللت طرفا شاربيه وذقنه. أتى له لودفيج بشراب الليمون. رفض ممبار. لكن شكّور أمسك بكأس الليمون وألح على ممبار الذي تناول الكأس وشرب جرعات.

الأميرة ذات الرِّفعة قالت له:

- ممبار. لم أصدق ولم تصدق الأميرة مرمرة أنك شاركت في اغتيال الأمير سِلْوِي. رغم أنك كنت مساعدًا لجَربال سنوات طويلة.

تكلم ممبار:

- القائد جَربال. أحببته واحترمته، كنت أصدق تابعيه. فله أفضال عليّ لا أنكرها بل أرصدها وأشكره عليها. فأنا من عائلة فقيرة. فقيرة جدًا، لي أربع أخوات بنات وأنا الولد الوحيد وسطهن. أبي كان طباخًا ماهرًا يعمل في مطعم متخصص في طهي الممبار، لذا كان لقبه ممبار. كنت أتعلم في الكتّاب وأعمل مع والدي لأساعده. مات أبي فجأة. تركت الكتّاب، وبقيت في مطعم الممبار وبرعت في عملي، فصار اسمي ممبار نفس اسم أبي. القليل الذي أكسبه من المطعم، بالكاد يكفينا أنا وأمي وأخواتي البنات. أحمل هم أمي وهم زواج شقيقاتي. تقدمت لأكون جنديًا في جيش الملك، فالأجر في الجيش أعلى. قبلوني فتقدمت الصفوف لقوة جسدي ووسامتي، والأهم قدرتي على الاستيعاب وخطي الجميل، وفي وقت قصير صرت من القيادات الصغيرة المسئولة عن مائة جندي. بعدها أحد قادتي، أبلغ القائد الكبير جَربال عن قدراتي المتعددة، فاختارني لأكون من ضمن مساعديه. لم يمر عام إلا وترقيت لأعلى ووصلت لأكون مساعد جَربال الأهم ومكمن أسراره. نسيت أن أقول.. إنه من أول أسبوع عملت معه، سألني عن سبب

تقدمي لأكون جنديًا عاديًا رغم إمكاناتي العالية؟ حكيت له. فإذا به يتولى علاج أمي التي مرضت، وتكاليف زواج شقيقاتي الأربع، فصرت من وقتها مدينًا له بالخير الذي أفاض به عليّ وعلى عائلتي. فضله هذا منعني من رؤية شروره وأحقاده. كنت أبرر لنفسي كل أفاعيل جَربال، فقد كنت أحبه وأقدره. مولاتي الأميرة ذات الرفعة، أريد أن أدخل في لب الموضوع، لكني أريدكِ أنتِ والأميرة مرمرة وحدكما أن تستمعا، لا أستطيع البوح المفتوح وأمامي غرباء.

نظرت الأميرة ذات الرِّفعة لشكّور في رجاء. قام وقام بعده عبد الرحيم وخرجا.

قال ممبار:

- أميرتي ذات الرِّفعة. يا ذات السمعة الطيبة والقلب الشفيق. سامحيني بداية فقد شاهدت جريمة اغتيال زوجكِ الأمير النبيل سِلْوِي السُمَيِّد. واغفري لي في النهاية، فقد تأخرت كثيرًا حتى أعترف بما كان. عذري أن جَربال أشاع أني مشارك في الاغتيال. جَربال يخشى أن أفشي السر للجيش ولكم. بعد أن هربت من مدينة القباب ومعي زوجتي وابنتَيّ، واختفيت معهما بعيدًا هنا وهناك، حتى لا يرصدني بصاصو المتغوِّل. أخشى على زوجتي وابنتَيّ من التعذيب والمهانة والاغتصاب، فأنتِ تعرفين جبروت المتغوِّل وقسوته، ولا تعلمين أن جَربال ليس بأقل منه جبروتًا وقسوة. وبعد أن زوجت ابنتي سريعًا، وارتحت من خوفي عليهما، رحلت أنا وزوجتي

إلى إمارة النهر الخامس. أبقيتها في قرية قصية. وذهبت للقائمين بالهوجة ضد الملك وحاشيته. انضممت لهم وحكيت لهم ما كان، وفضحت السر، لكن السر انتشر على أنه شائعات. ووصلت الشائعات لكم في قصر الزمردة. المتغوِّل وجَربال ضربهما الرعب. فصار البصاصون يبحثون عني بإلحاح وبدون هوادة لقتلي. أنا المطلوب الأول لبطانة الملك، لخطورتي ليس على جَربال الخسيس فقط، ولا حتى لخطورتي على الوزير المتغوِّل ومَن معهما، بل لخطورتي على الملك عِلوِي نفسه.

العائلة التي تحمل للأمير سِلْوِي ضغينة وكراهية دائمة، هي عائلة الجَرابلة، فالأمير كان من أشد الفاتكين بها في الانقلاب الأخير. قتل منهم الكثير وأنهى أعمار فرسانهم وشبابهم، فيما سمي بعد ذلك بمذبحة الجرابلة. والجرابلة من وقتها يتحينون الفرصة لقتله. والمتغوِّل المملوء بسم الكراهية والشر، لم يتوقف عن الوشايات المستمرة في أذن الملك، والملك يستمع أيضًا لتلميحات مقلقة من قائد جيشه جَربال، وخباثات من لوز شقيق زوجته فوز.

كنت كاتم أسرار قائد الجيوش جَربال، والمنظم لأوقاته واجتماعاته، وكاتب رسائله العلنية والسرية. ولثقة الجميع فيّ، سمحوا لي بأن أجلس جانبًا في جلسات سرية عديدة، جمعت جَربال بالوزير المتغوِّل وانضم إليهم كثيرًا لوز النوارني، وأيضًا قائد عسكري

مهذب، لا ينطق بأي كلمة فيها إساءة لأحد، يحاول جَربال أن يجذبه ناحيته ليكون ساعده الأيمن. حضر هذا القائد اجتماعًا واحدًا ولم يشارك بعدها. اسمه فتّوح، وفتّوح هو الذي يلي جَربال في الرتبة. المتغوِّل حاول التقرب من فتّوح كما يحاول التقرب إلى كل قيادات الجيش. الاجتماعات أساسها تحضير مؤامرات على العرش، وعلى سيدي الأمير سِلْوِي السُمَيِّد. المتآمرون الثلاثة كان كل منهم أخبث وأحقر من زميليه. لم يجتمعوا ولن يجتمعوا بصفتهم زملاء، ولا أصدقاء بالطبع. هم مجرد متآمرين يقضون مصالح مشتركة، يجتمعون وهم كارهون لبعضهم، وبعد أن ينتهوا من الأمير سِلْوِي، كل منهم سينتظر الفرصة ليتخلص من زميليه سواء بالنفي أو السجن أو حتى القتل.

كنت محبًا لقائد الجيوش جَربال، وكنت أقدره حقيقة، حتى زاد من شروره، ثم كانت القشة التي قصمت ظهر بعيري، بعير التبعية والإخلاص لجَربال. هذه القشة هي مؤامرة اغتيال الأمير سِلْوِي. جَربال لم يشارك في تلك المؤامرة فقط. لا. بل هو الذي أشرف على عملية الاغتيال، ثم كان هو من طعن زوجك الطعنة القاتلة.

سأحكي بالتفاصيل التي تم جمعها من شهود العيان، ومما حكاه صبي وأخته الصبية، ليس لأضايقك وأتعب قلبك الطيب، بل لأنشر مدى خِسَّة جَربال، وأيضًا لأهدئ

لظى قلبي الذي يُشوَى كل برهة مما شاهدته عيناي وسمعته أذناي، وصمت عنه لساني وقتًا طويلًا. مشهد اغتيال الأمير النبيل.

خلال تواجدي في اجتماعات المتآمرين، فهمت أن الاضطرابات في الولايات زادت وصارت مقلقلة. وأن الرعية ضاقت بقسوة الملك عليها وفساد حاشيته فكرهته، وكرهت واحتقرت وزيره المتغوِّل الخبيث، وشيخه المنافق صقالي الذي يصدر الفتاوي التي تنافق الملك وتبرر فساده. زمجرت الرعية وتفجرت فهاجت منتفضة في المقاطعات السبع، بما فيها مقاطعة النهر الأكبر، والتي فيها مدينة القباب وقصر الزمردة! الوزير المتغوِّل أرسل بصاصيه فطاردوا الشيخ عبد الرازق وقبضوا عليه وكتفوه وسجنوه وعذبوه.

الولاية الخامسة هي أكثر الولايات غضبًا ورفضًا لفساد الملك عِلوِي وحاشيته. فهذه الولاية فيها جبل الصد. جبل متسع ذو شعاب عديدة، يعتصم فيها الهائجون في كل مرة يعاندون فيها الملك، ويصدون جيوشه. تصاعدت هوجات الولاية الخامسة، فصارت تنذر بالنهايات الدموية. شباب الولاية كوّنوا جيشًا فطريًا، وصعدوا جبلهم ليحموا أنفسهم من هجمات جيش الملك عِلوِي. بقية أهل الولاية يزوّدون جيشهم الشبابي بكل ما يحتاجونه من الغذاء والكساء. وفي فترات غير منتظمة، فجأة يهبط هذا الجيش ليلًا، ويهاجمون قلاع جيش الملك وقوافل إمداد جيشه.

يقتلون ويسرقون الطعام والشراب والسلاح أيضًا، ثم يعودون للجبل.

في الهوجة الأخيرة للولاية الخامسة، قال بصاصو المملكة للمسئول عنهم، والمسئول أبلغ الوزير المتغوِّل، أن الذين صعدوا لجبل الصد حوالي ألف شاب. صعدوا مسلحين بالسيوف والرماح والفؤوس، وتزودوا خاصة بالأقواس والسهام! واستطاعوا هزيمة الجيش الأول الذي هجم على الثائرين في جبل الصد، وأرسلوا رسالة مع جندي أسروه، رسالة تحوي مطالبهم. الوزير المتغوِّل، زوّر في مطالب هوجة الشباب. وقال إنها متبجحة، فهم يطالبون بتخفيض المكوس ورفع قبضة تجار العائلات الأربع على تجارة مقاطعتهم، وسجن الشيخ صقالي المنافق وأتباعه، والإفراج عن الشيخ الثائر عبد الرازق. أما المطلب الكارثة فهو تنحية الملك نفسه عن العرش وتسليمه لأخيه الأمير سِلْوِي.

غضب الملك عِلوي غضبًا ناريًا على هوجة الشباب المتبجحة، وصمم على إبادتهم. فكيف يطالبون بتنحيته عن العرش وإجلاس أخيه؟! فهل للرعية أن تختار ملوكها؟! إنها علامة من علامات يوم الحشر.

ومن هنا بدأت الخطوات العملية في مؤامرة اغتيال الأمير سِلْوِي. نصح المتغوِّل الملك بإرسال جيش أقوى وأكثر عددًا من الجيش السابق الذي لم يفلح في هزيمة الهوجة، جيش يمحو الهوجة محوًا فيقتل فيهم بكل قسوة، ليُعلمهم الأدب، ويذلهم ويكسر رقابهم التي طالت

على مليكهم. أيد قائد الجيوش الاقتراح، وقال إنه شخصيًا سيكون على رأس هذا الجيش. ولن يعود إلا ورؤوس زعماء الهوجة مقطوعة ومعلقه على أسنه حراب جنوده.

تحركت قوة كبيرة من الجيش وعلى رأسها القائد جَربال وكنت أنا معه. وعندما دخلوا الولاية الخامسة، نهبوا وقتلوا الكثير من رجالها، وأهانوا نساءها بكورًا وثيبًا واغتصبوا منهن الكثيرات. أقاموا معسكرا واسعًا منيعًا على بُعد من الجبل. حاول جَربال ان يصعد بقواته الجبل ليصطدم بمقاتلي الهوجة، محاولاته لينة وكأنه في رحلة. نبال الهوجة قتلت من جيشه عددًا كبيرًا. فارتد إلى معسكره وهو راضٍ عما يحدث للجيش الذي هو قائده! أرسل جَربال الرسائل إلى الملك عِلوِي، مبينًا ألا حيلة في صعود جبل الصد وهزيمة شباب الهوجة بالقوة، وبقي على هذه الحالة من الجمود شهرًا كاملًا. مرسال بعد مرسال للملك، يؤكد أن صعود الجبل بقوة الجيش، مستحيلة.

الوزير طلب من الملك عِلوِي أن يوفد أخاه الأمير سِلْوِي، للتفاوض مع هوجة الولاية الخامسة. وكان الأمير سِلْوِي قد ذهب إليهم منذ سنوات، كما كان مرسالًا لتهدئة ولايات أخرى، أخذت في الغليان ويهددون بهوجة. واستطاع الأمير سِلْوِي أن يرضي المظلومين بتخفيف المظالم عنهم. ثم توقف عن وساطاته، عندما لم يستمع له الملك، مفضلًا وشايات حاشيته الفاسدة،

الذين يحرضونه على التجبر وإذلال الرعية. الأمير سِلْوِي أبلغ الملك، أنه بدون تنفيذ نصائحه برفع المظالم وكبح الفاسدين، فرحلاته لتهدئة الناس لن تأتي بمفعول مستمر. لذا اعتزل الأمير الوساطات بين أخيه الملك وبين الهائجين.

الوزير المتغوِّل وجدها فرصته. وسوس للملك.. أن سِلْوِي سينتهز تلك الهوجة وغيرها، وسيقلبه عن العرش ويجلس عليه. ذكّرة بأكذوبة أن هوجة الولاية الخامسة تنادي بسِلْوِي ملكًا، وستفعل بقية الولايات نفس الشيء، فتخلص منه قبل أن يتخلص منك. فعلى الملك عِلوي إرسال سِلْوِي ليتفاوض مع هوجة الولاية الخامسة، ويعدهم باسم الملك بالموافقة على طلباتهم. ولا يهم إن تآمر معهم على العرش. فبعد نزول المتمردين من الجبل مطمئنين بالاتفاق. سينقض عليهم جيش جَربال، ويعمل فيهم السيف وتُنفذ مقتلة لن ينسوها أبدًا، ويتم إلقاء القبض على زعماء الفتنة وتقطع رؤوسهم. ويعود الجيش بالأسرى الأوباش في موكب يمر على عدد من الولايات. أما الأمير سِلْوِي، فلن يعود من تلك المهمة. ولن يكون بعدها خطرًا على عرش عِلوي.

الأمير سِلْوِي وافق على الذهاب. رافقه فقط مساعده الزودي. وفي معسكر جيش الملك، تقابل مع جَربال قائد الجيوش. وتناولا العشاء مع عدد من القيادات وأنا من ضمنهم. ورغم الحوار البسيط، فسِلْوِي يعلم أن جَربال

يكرهه، ولن ينسى مقتل شباب ورجال عائلته في حربهم الأخيرة.

الهوجة بمجرد علمها أن الملك عِلوِي سيرسل إليهم الأمير سِلْوِي للتفاوض، وافقوا فورًا، رغم أنهم من قبل رفضوا الجلوس مع لوز الجشع، فلوز شخصيًّا من أسباب ثورتهم. هو أكبر المستولين على أرزاقهم. أمّا الأمير سِلْوِي، فالرعية تثق فيه. وسبق وأن تفاوضوا معه، فكان شريفًا صادقًا، إن أعطى وعدًا ينفذه.

في الصباح الباكر، اتجه الأمير للجبل ومعه مساعده، لا يرتديان ملابس قتال، فقط كل منهما تمنطق بسيفه. زراعات ممتدة وأشجار متناثرة هنا وهناك. كلما مرا على قرية يجدها قليلة السكان، بائسة تنظر نحوهما بكراهية! أكيد تلك النظرات غير المريحة بسبب أنهما فارسان من فرسان جيش الملك. ولما يقترب من الناس ويعرفون أنه الأمير سِلْوِي، يبكون أمامه بكاءً حارًّا ويشكون الظلم الذي يقع عليهم. وأن أغلب الأهالي هربوا رعبًا مما يفعله بهم الجنود في ذهابهم وإيابهم للهجوم على الجبل. الجنود يهجمون على البيوت والدكاكين وينهبونها، واغتصبوا النساء والفتيات. وعدهم الأمير برفع شكاواهم والانتقام من الفاعلين. تأكد الأمير سِلْوِي، أن أفاعيل الجنود المخزية وبكل هذا الحجم، لا يمكن أن تكون إلا بأوامر من قائدهم.

صبي وصبية من قرية اعتدى عليها جنود جَربال، كانا مفتونين بالأمير الوسيم الفارس الشهم الأمير سِلْوِي.

فصارا يتابعانه من بعيد متخذين الزراعات والأشجار ستارًا لهما. الفتى مفتون بفروسية الأمير، والفتاة بوسامته. وعند حدود الجبل عادا لقريتهما.

صعد الأمير ومساعده الجبل. رحبت به الهوجة. قابل زعماءهم فأكرموه بشراب طيب. سمع منهم وسمعوا منه. فوجئ بأنهم لم يطالبوا بتنحية الملك عِلوِي. رغم أنهم قالوا بوضوح.. نتمنى أن تكون أنت الملك. قال في نفسه: يا لخباثاتك يا مُتغول يا حقير، تزوّر في مطالب الهوجة لتضع الكراهية والميل للحرب في قلب الملك. ثم جَربال يأمر بسلب ونهب الناس، حتى يكره الناس جيش الملك وكل عائلة الملك. إنها مؤامرة على الملك وعلى عائلة السمايدة يشترك فيها المتغوِّل الحقير وجَربال الحاقد. قرر أنه حين عودته للمعسكر سيعزل جَربال، وحين يصل لقصر الملك، سيصر على عزل المتغوِّل الكاذب الشرير الخبيث.

طالت المفاوضات والأخذ والرد. فترة راحة وعلى الأرض الترابية تناول معهم أبسط الطعام. عادوا للتفاوض والراحة ثم التفاوض حتى أقبل عليهم الليل ولم ينتهوا. وافقهم على تخفيض المكوس وحمايتهم من الفاسدين. شباب الهوجة واثقون في الأمير سِلْوِي، متأكدون أنه سيعود لهم خلال أيام لن تزيد على سبعة كما قال. وسيعود معلنًا لهم أنهم حصلوا على أغلب حقوقهم المهدرة. في نهايات الليل، ودعته الهوجة حتى

أسفل الجبل، ولم يتوقع أي منهم أن هناك خطورة على حياة الأمير.

مر الأمير ومساعده على أكثر من قرية ساكنة. الفجر يشعشع. وفي المسافة بين قريتين وقعت جريمة اغتيال الأمير سِلْوِي ومساعده المخلص. الصبي والصبية لمحا الأمير ومساعده. تابعوهما من بعيد وشاهدا المعركة الأولى وحكيا ما شاهداه فيما بعد.

لمح الأمير ومساعده عشرة من الأشباح كامنين، فاستلا سيفيهما. هجم العشرة على الأمير ومساعده. وقعت معركة أطاح فيها سِلْوِي بثلاثة من المهاجمين. فالمهاجمون ليس بينهم مَن يعادل فروسية الأمير. والزودي رغم كثرة المهاجمين أطاح بواحد منهم. كر وفر بالخيول بين سِلْوِي والزودي وبين الباقين الستة. قضى سِلْوِي على اثنين آخرين، وفقد مساعده الزودي الذي نال طعنة في جانبه. سِلْوِي يلعن المهاجمين بأقذع الألفاظ وهو يناورهم بحصانه، ويضرب فيهم فأسقط واحدًا من الأربعة المتبقين، وفي نفس الوقت، نال طعنة من خلفه أصابت كتفه اليمنى إصابة قوية. تحمل الطعنة وابتعد بحصانه. فطارده الثلاثة الباقون، فوجئوا بالأمير يناور ويعود إليهم مهاجمًا من جانبهم فيجندل أحدهم ولم يبقَ سوى اثنين، فرّا سريعًا قبل أن يأتي دورهما في القتل.

رغم آلام الطعنة هبط الأمير من على ظهر حصانه. وهو يتوجع أسرع لمساعدة الزودي الملقى أرضًا. وضع

سيفه في جرابه. بيسراه وضع الأمير رأس مساعده على فخذه وهو يواسيه. الزودي يلفظ أنفاسه الأخيرة. وهو يحشرج نصح أميره:

- ابتعد عن هذا المكان، ربما.. ربما غيرهم الآن يتابعونك.

الدمع من عيني الأمير. فقد صديقًا مخلصًا عمل معه لسنوات. بصعوبة حمل الجثة ووضعها على حصان القتيل. ركب حصانه بصعوبة. بيسراه يمسك بلجام حصانه، وبيمناه الجريحة يمسك بلجام الحصان الحامل للجثة خلفه. نزف الجرح لا يتوقف والآلام تشتد والجسد يفقد حيويته وتضيع عافيته. الجرح نافذ وربما يفقده ذراعه بأكملها، أو على الأقل لن يستطيع استخدامها في مبارزات بعد ذلك، وسواء هذا أم ذاك، فالجرح سيمنع الأمير من الفروسية القتالية تمامًا.

الأمير في حيرة.. مَن هؤلاء الذين هاجموه؟ ليسوا عصابة ولا هم من شباب الهوجة. ملبس غالٍ أنيق! يواصل السير رغم نزف جرحه. فربما كما قال الزودي، هناك مَن يتبعه. ولم يكد يقطع سوى مسافة قصيرة، إلا وظهر له في الظلام عشرة فرسان آخرون. أحاطوا به في دائرة. الأمير تأكد أنه مقتول مقتول. ترك لجام الحصان الثاني. واستل سيفه بصعوبة، لكن لم يهاجمه أحد. الأمير ينظر إليهم في غيظ. لولا إصابته لهاجمهم ولو كانوا مائة فارس. فوجئ بفارس يتقدم ناحيته

ويخاطبه بصوت يعرفه تمام المعرفة. صوت يقول في سخرية واثقة هادئة:

- وقت هجومكم على قصرنا، كنت قد طلبت مبارزتي. وها هي الفرصة أتت لك لتبارزني يا سِلْوِي.

إنه صوت قائد الجيوش. صوت جَربال! الأمير في غل. أجابه:

- الآن وأنا مصاب يا جبان؟ الآن بعدما أرسلت عشرة جبناء يكمنون لي ولمساعدي؟ الآن وملبسي عادي وأنت تحمي رأسك ببيضه حديدية ومتدرع بالزرود؟ الآن وذراعي مهيضة يا حقير؟

أطلق جَربال حصانه فهاجم بعنف. مبارزة سريعة نتيجتها محتومة. الأمير يناور بحصانه ليفلت من ضربات جَربال. يريد رفع يمناه بقوة ليطعن جَربال، فلا تطاوعه ذراعه. جَربال يستنزف بقية قوى الأمير. عينا الأمير تغيمان بعد أن فقد أغلب دمائه. نال طعنة كانت القاضية. سقط من على ظهر حصانه قتيلًا مغدورًا. جَربال من على ظهر حصانه ينظر إليه في تشفٍّ. أحد الفرسان اقترب وهبط من على ظهر حصانه وأسرع ناحية الأمير. حمل رأس الأمير في رفق وأراحه على فخذه. جَربال اقترب بحصانه ناظرًا في غضب لهذا الفارس الذي يشفق على عدوه. كنت أنا هذا الفارس. صاح جَربال غاضبًا مني:

- ممبار. هل تشفق على سِلْوِي؟! أأنت حزين على مقتل عدوي يا ممبار؟! أنسيت مَن هو سيدك ومَن هو

عدو سيدك؟

- ..

- ارفع جثة مَن تشفق عليه وضعها على ظهر حصانه.

جَربال أمر بقية الفرسان بالذهاب لموقع القتال الأول. وشدد عليهم بأن يدفنوا الذين قتلهم الأمير ومساعده الزودي في المعركة الأولى، والدفن يكون بإتقان بحيث لا يعلم أحد بوجود قبر أصلًا. بعد الدفن يتلاشون فلا يعرف أحد مَن هم. فإن عرف أحد أنهم من عائلة الجرابلة وليسوا من جنود الملك، ستكون العواقب كارثية.

جَربال وأنا عائدين على ظهر جوادينا، جَربال في المقدمة. وأنا خلفه أمسك بلجام الحصانين وعليهما جثة الأمير سِلْوِي وجثة مساعده الزودي. قبل أن ينبلج الصباح، دخلنا المعسكر باكين. جَربال يمثل البكاء، وأنا أبكي بحرقة. قال القائد جَربال إنه لما تأخر الأمير سِلْوِي، قلق عليه. فأخذني معه وذهبنا لنتحرى الطريق. فوجدنا جثتي الأمير ومساعده ملقتين أرضًا. هو يحكي هذا كذبًا وأنا أبكي على مقتل الأمير وعلى نفسي في حالتي هذه المخزية.

الحزن في معسكر الجيش كله، فالجيش لا يحب قائده الرسمي جَربال. يحب الأمير سِلْوِي، فهو ابن للجيش والراعي له. لم يظن أي من الجنود ولا أي من القيادات، أن الأمير سِلْوِي بطلهم المحبوب، قد قتل بسيف قائدهم جَربال. أرسل أربعة جنود بالجثتين

ورسالتين للملك يعلمه بما حدث، ويعلمه أيضًا أن جيشه سيخرج سريعًا في قوته الكاملة ليهجم هجمة غاشمة على جبل الصد، ليفتك بالهوجة التي اغتالت الأمير سِلْوِي، بعدما تفاوض معهم وفي الغالب لم يوافقهم على مطالبهم الخسيسة، خاصة مطلبهم بتنحي الملك عِلوِي عن السلطة.

لم تستطع القيادات التي تلي جَربال أن تعترض على هذا الهجوم ناقص العقل ناقص الأعداد، فالذي اغتالته الهوجة هو الأمير سِلْوِي. الوحيد الذي قال لا في اجتماعهم الطارئ هو أنا. لكن جَربال شتمني واتهمني بأنني ناقص الولاء للملك والعائلة الملكية. ثم أمر ببقائي مع الحرس في المعسكر وألا أشارك في الهجوم الانتقامي.

لم تنقضِ سوى ساعتين إلا وجيش المملكة يخرج من معسكره في هجوم عصبي متوتر على الجبل. رعية الهوجة تعجبوا، لا يمكن أن يكون الأمير سِلْوِي قد سخر منهم وعلم بعض مواقع قواهم وضعفهم وعاد ليبلغ جيش الملك، ليهجموا عليهم بهذه السرعة وهذا العدد الكبير! القائد جَربال لم يكن في المقدمة، ولم يكن من ضمن الذين تلقوا السهام القاتلة، فتضعضع الهجوم، وانكسرت همّته، فهبط عليهم شباب الهوجة بالسيوف والرماح والسكاكين فكانت مقتلة بشعة في صفوف جيش الملك، أجبرتهم على الفرار الجبان حتى لا تتم إبادتهم تمامًا. خلال هروبهم تركوا جثث مئات من

الجنود والقيادات ملقاة مضرجة في دمائها، ولم يأبه أحد باستغاثات الجرحى. في طريق فرارهم، ألقى عليهم الفلاحون الطوب ولعنوهم واستطاعوا الإمساك بعدد من الجنود الهاربين على الأقدام، وقتلوهم ضربًا بالأيادي وركلًا. انتقامًا من جبروت ملك غبي مستبد قاسٍ، وانتقامًا من جيشه الذي أذلهم واغتصب نساءهم.

عاد الجيش المهزوم في خزي إلى المعسكر، جمعنا ما خف حمله وتركنا الباقي، فالرعب من هجوم شباب الهوجة وأهالي القرى على المعسكر، احتمال وارد. عدنا منكسرين لمدينة القباب ودخلنا منكسي الرؤوس من باب الجيوش، السيوف في أغمادها والرماح غير مشهرة والطبول خامدة والأبواق خرساء. فتناقل أهل المدينة أخبار الهزيمة المخزية لجيش الملك. فرحوا بالانكسار وكأن هذا الجيش ليس جيشهم، ليس جيش المملكة، بل هو جيش الملك عِلوِي وجيش العائلات الأربع الفاسدة.

بحث عني جَربال. لم يجدني. كنت قد تسللت فأنا أعرف أنه لن يتركني وقد شك في ولائي، وأنا الوحيد الذي يعرف سر مقتل الأمير سِلْوِي بكل التفاصيل، أنا مَن شاهد الاغتيال بأم عينيه.

وتعرفون ما بعده.

ركع ممبار محنيًا رأسه..

- وها أنا أمامكما يا أميرتَيّ. إن كنتما ترغبان في عقابي على تأخري في إخباركما بقصة مقتل الأمير، فها

هي رقبتي مستعدة للقص. وإن كنتما تسامحانني، فاسمحا لي بالهروب سريعًا، فقد يكون أمري قد انكشف.

الأميرتان قامتا وأوقفتا ممبار، واحتضنتاه باكيتين شاكرتين. قالت الأميرة ذات الرِّفعة:

- أيها الرجل النبيل الوفي. كيف ولماذا نعاقبك؟ بل واجبنا أن نشكرك. أنت تُعرض نفسك الآن للوقوع في قبضة المتغوِّل وجَربال، وإن وقعت فالموت محتوم عليك. نشكرك ونقول لك.. يكفينا أن ما أعلنته في الولاية الخامسة عن جريمة الاغتيال، وصل إلى كل أرجاء المملكة، وهذا ما زعزع الوزير الخبيث والقائد القاتل الخائن.

الأميرتان عرضتا عليه أن تعطياه مالًا. رفض. فقط طلب بأن يسمحا له بالاحتفاظ بالحصان، فسيبتعد به سريعًا. وعند الباب توقف والتفت ناظرًا للأميرة مرمرة وقال:

- أيتها الأميرة مرمرة. الناس يأتون بسيرتكِ بحب وانبهار. يقولون ليت ملكتنا تكون مرمرة الطيبة.

خرج من الجناح ولم يره أحد بعد ذلك لأيام حتى سخنت الهوجة لآخرها.

***

(13)

الشمس بدأت تترك منتصف السماء وتميل للعصر. الأميرتان على صهوتي حصانيهما مسرعتين لقصر الحرملك. دخلتا القصر والملك عِلوِي في قيلولته الممنوع فيها إيقاظه لأي سبب. خطواتهما سريعة في الممرات. وعند جناح الملك الحرس كلهم من المخاصي الضخام المسلحين بالسيوف. أنصاف عراة حتى في الشتاء. لا يستطيع أي منهم التعرض لأي من العائلة الملكية. الحارسان على باب حجرة نوم الملك. احتارا واضطربا ماذا يفعلان؟ هل يمنعا الأميرتين من الدخول؟ كيف وواحدة هي أخته والثانية هي أرملة أخيه؟ لم يفعلا شيئًا. جاريتا الملكة اللتان في مناوبة الخدمة، كانتا جالستين أمام الباب، وقفتا أمام باب حجرة سيدتهما، كانتا أشجع من الحارسين. حقيقة أنهما كانتا في ارتباك، لكن لهما مسئولياتهما. اعترضتا الأميرتين وأبلغتاهما بأن الملك في قيلولته. الأميرتان دفعتاهما على الجانبين، ثم دفعتا باب حجرة الملك بقوة فأحدث الباب صوتًا فزعًا وهو ينفتح على مصراعيه. الملكة والملك بملابس النوم وعليهما غطاء خفيف. فزعت الملكة فوز فاعتدلت على السرير تنظر ما يجري. شاهدت الأميرتين تتجهان إلى السرير العريض. الحجرة واسعة. الأميرتان تأخذان خطوات وخطوات لتصلا للسرير. الملكة تدفع كتف الملك المستغرق في نومه. اعتدل هو الآخر ليلوم زوجته على خشونتها في

إيقاظه. الملكة ريانة الجسد متينة، والملك ضعيف هزيل. الأميرتان قد وصلتا بجوار السرير، على صوت الأميرة مرمرة:

- عِلوِي. عِلوِي أيها المجرم.

وقبل أن يستوعب الملك عِلوِي الأمر. انتبه على صوت الأميرة ذات الرِّفعة..

- الآن تأكدنا يا حقير. لقد شاركت في اغتيال زوجي؟ شاركت في اغتيال أخوك يا عِلوِي؟

الملك وزوجته فوز هبطا حافيين من على السرير من الناحية البعيدة عن الأميرتين، وقد بدءا في استيعاب الأمر. الملكة فوز تصيح غاضبة في الأميرتين كيف تقتحمان غرفتها؟! والملك عِلوِي يصيح .لا. لا. لا. هي صيحات رفض من ضعيف وجد نفسه في مأزق، كيف يتهمانه هذا الاتهام الكاذب الخطير؟ الأميرتان التفتا حول السرير العريض وهجمتا على عِلوِي. مرمرة دفعته في صدره وهي تواصل اتهامه بالخسة والجبن. وذات الرِّفعة تلومه بغلظة كيف هان عليه أخوه؟! عِلوِي لم يجد مفرًّا من دفع أخته مرمرة بيديه في قسوة. لم تتأثر مرمرة بدفعته الضعيفة. عادت تهاجمه هذه المرة هجومًا شاملًا. تضربه بيديها وقدميها وعِلوِي يتراجع وهو يصفها بقلة الأدب ويلعنها بالعاهرة. يهددها.. كيف تضرب أخاها؟ كيف تضرب الملك! يصيح: أنا الملك. أنا ملك مملكة الأنهار السبعة. نعم السبعة. ذات الرِّفعة تتابع راضية بما تفعله مرمرة بعِلوِي الخائن. الملكة فوز تنادي

الحراس ليدافعوا عن الملك. حضر حارسان ولم يستطيعا فعل شيء. وجدا الأميرة مرمرة تمسك بشعر الملك وترجه رجًا والملك يحاول الإمساك بشعرها، لكن الأميرة تبعد رأسها عن يديه، وهي مستمرة في بهدلته. الملكة تأمر الحارسين بالقبض على الأميرة. الحارسان في حيرة، أنقذتهما الأميرة ذات الرِّفعة بقولها: إياكما من التدخل. هما أخ وأخته. وإن غضب عليكما أحد منهما، فستنالان عقابًا مريرًا. خرج الحارسان، ودخلت جاريتا الملكة الحجرة على صوت الشتائم وجعير الملك. ينظران لما يحدث في رعب. إحداهما خرجت مسرعة، لا تستطيع أن تشاهد بهدلة الملك. تطور التضارب بين عِلوِي ومرمرة، لم تجد الملكة فوز بدًّا من التدخل، وبدلًا من هجومها على مرمرة التي تمسك بزوجها من شعره وتشده لجانب ثم آخر وهي تلعنه. هجمت الملكة فوز على ذات الرِّفعة، فالحقد بينها وبين ذات الرِّفعة أشد وأنكى. فوجئت ذات الرِّفعة بهجوم فوز عليها. فوز بيسراها أمسكت ذات الرِّفعة من شعرها وجذبتها ناحيتها ولأسفل حتى أسقطتها أرضًا. وبقبضة يمناها تضربها على ظهرها. مرمرة تركت شعر عِلوِي وخطت خطوات أربعة تكاد تكون قفزات، وصلت حيث فوز وذات الرِّفعة. مرمرة أمسكت فوز من شعرها وجذبتها بعيدًا عن ذات الرِّفعة. ثم عضتها من أعلى كتفها فصرخت فوز صرخة ألم عميق. انضمت ذات الرِّفعة لمرمرة وانهالت ضربًا وعضًّا في فوز. عِلوِي يسترد

أنفاسه ويراقب زوجته وقد سقطت أرضًا وتنال الضرب العنيف والعض الشرس. تصرخ وتطلب من عِلوِي أن ينقذها. اضطر عِلوِي للتدخل لإبعاد مرمرة وذات الرِّفعة من فوق زوجته، فإن لم يفعل فلاحقًا سينال الكثير من البهدلة من فوز. فشل عِلوِي في إبعاد الأميرتين من فوق زوجته، صفع مرمرة بقوة. مرمرة فقدت أعصابها أكثر، فتركت فوز وردت الصفعة لعِلوِي بصفعة هائلة رجّته رجًا. فاستجمع عِلوِي قواه ولكمها بقسوة في صدرها فأسقطها على مقعدتها. ذات الرِّفعة ما زالت تمسك بفوز تحتها وهي تواصل ضربها. قامت مرمرة من سقطتها ولم تهاجم عِلوِي. أسرعت للمنضدة الحاوية على طبق فاكهة. التقطت السكين التي تتوسط الفاكهة. رفعتها وعادت تجري لتطعن عِلوِي الذي هرب منها، ليدور حول السرير العريض ومرمرة تطارده وتلعنه. ذات الرِّفعة تركت ضرب فوز وأمسكت بمرمرة. عِلوِي جلس على السرير متعبًا. انضمت فوز وجلست بجانبه تنظر لمرمرة في رعب. قالت لها:

- أتقتلين أخاكِ؟!

- سأقتل مَن قتل أختي جوهرة، ثم اغتال أخي.

- بدلًا من القتل. نسوي الموضوع.

لم تجبها مرمرة. فاجأتها بوثبة ودفعت عِلوِي لتسقطه على ظهره أعلى السرير. وضعت حد السكين على زوره. فوز تصرخ وذات الرِّفعة ترجو مرمرة أن تهدأ. عِلوِي ظن في نفسه أنه مذبوح مذبوح. صاح:

- مرمرة. أختي. سأقول ما حدث. وسأقول لكِ ما أنوي عليه. أنا مصر على أن يتولى راسم بن سِلْوِي كرسي العرش من بعدي. مصر أن يكون راسم زوجًا لابنتي نورة.

- أعرف كل هذا. أريد أن أعرف كيف تم اغتيال سِلْوِي.

- أبعدي السكين.

- ستقول؟

- أقسم سأقول. لكن أتسمعينني للنهاية؟

أبعدت السكين. جلس عِلوِي منهارًا غير مصدق أنه نجا من الذبح. انخرط في البكاء. فوز تحتضن كتفه لتهدئه. جلست ذات الرِّفعة بجوار مرمرة. عِلوِي أشار للجارية فأتته بكأس مياه. شرب وأعاده لها فابتعدت وتركت الحجرة كلها. عِلوي أخذ أنفاسًا بعمق ليهدأ. قال:

- مرمرة تظني أني غير نادم على مقتل أختنا جوهرة؟! أبدًا. ضميري يعذبني. كنت سببًا في مقتلها. لكن.. لكن أقسم بالله لم أكن أقصد. كنت أريد تخويفها لا قتلها. قتلتها بغبائي. إنها تأتيني في كوابيس بهيئتها. بهيئتها الفظيعة التي شاهدناها عليها يوم فتحنا عليها باب الحجرة. تأتيني وهي تسحب خلفها جثة رفيقها الصبي السائس. كم أنا نادم على قراري بإغلاق الحجرة عليهما. وكنت مشفقًا عليكِ يا مرمرة لأنني السبب الرئيسي في لخبطة حياتكِ. أنا آسف لكِ. آسف لجوهرة. أنا..

- علمنا أنك لم تقصد قتل جوهرة، شاهدناك وسمعنا من غيرنا، عن بكائياتك وانهياراتك. نعلم ونوقن بأنك آسف لمقتل أختك. صارحنا بدورك في اغتيال سِلْوِي. أرح ضميرك وقل الحقيقة.

- لم أقتل أختي، حاولت تأديبها فماتت. أقسم بالله إنني لم أكن أعلم أن أمري بغلق الحجرة سيتسبب في مقتلها.

صاحت فيه ذات الرِّفعة:

- وأخوك. علمنا بما تم في مقتل أختك. صارحنا بدورك في مقتل أخيك.

- لم أقتله. لم أقتله.

- عرفت بالمؤامرة ووافقت على اغتياله.

بكاء مر من عِلوِي. ثم وهو ينهنه قال:

- طول عمري وسِلْوِي يضايقني. أنا الأكبر. لكنه نال الوسامة والفروسية والشجاعة. نال حب النساء والبنات. نال حب الرعية. أما أنا.. فلا شيء. حتى أبي يعجب بسِلْوِي ويهملني. يفاخر به ويتجاهلني. ثم يهيننني بكل قسوة وينوي إبعادي من ولاية العرش ووضع سِلْوِي مكاني. يبعدني عن ولاية العهد وأنا الأكبر وسِلْوِي هو الأصغر! كيف؟ كيف هان عليه احتقاري هكذا؟! مرمرة. ذات الرِّفعة.. ماذا سيكون شعوركما إن كنتما مكاني؟ نلت من الظلم الكثير. اضطرني سِلْوِي أن أحسده. وآخر المظالم.. هو وفوز.

فوز امتقع لونها. تتوقع ما سيقول. قالت:

- أبعدني عن مشاكلك مع إخوتك.

عِلوِي نظر لها نظرة غضب. ثم نظر لذات الرِّفعة وأخذ في لطم خديه مرات متواليات، ثم استمر في حكيه:

- أنا أحببت فوز. أحببتها من صغرنا وتأكدت أنها لي وأنا لها. لكن فوز تركتني وأحبت سِلْوِي. سِلْوِي. سِلْوِي. حتى مَن أُحبها، سِلْوِي لم يتركها لي، أخذ قلبها، ترك لي جسدها فقط. ذات الرِّفعة أتعرفين. في صباحية زواجنا أنا وفوز. فوز أخذت تبكي حسرة أنها قضت ليلتها في أحضان مَن لا تحبه، ومَن تحبه أحب مَن هي أقل منها جمالًا ومكانة. أنتِ يا ذات الرِّفعة. حين أضاجع فوز، أحس بأنها تناجي سِلْوِي! حتى وأنا فوقها تكون مع سِلْوِي! فماذا تتوقعان مني تجاه مَن صعد وتصاعد في أجواء المجد والحب والتقدير. وأبقاني الفاتر الواهن الشاحب؟

فوز وهي تلعن عِلوِي وتتهمه بالكذب والجنون، عِلوِي يستمر في الحكي الشجني..

- أعترف بأنه في طفولتنا كان سِلْوِي يحبني. وأيضًا في صبانا. أحبني سِلْوِي، وأنا أقسم بالله كنت أحبه وما زلت أحبه وسأحبه حتى أموت. لكما أن تصدقاني أو تكذباني. كنت أحبه لأنه أخي. أخي النبيل الذي لم ينازعني العرش الذي اغتصبته منه. لكن.. لكن سِلْوِي سلب مني حلاوة الحياة. كان لزامًا عليّ أن أوافق على اغتياله، حتى لا يزيحني من العرش فيأخذ آخر ما أملكه وأفاخر به. وافقت على اغتياله والشيطان يركبني

ويأمرني بأن أفعل الشر بأخي. ولما شاهدت جثته. بكيت عليه ألمًا ووجعًا. وما زلت أبكيه ليل نهار. آآآه. بعدما أعطيت موافقتي على اغتياله، أكتشف أني وافقت على اغتيال أحب الناس إليّ بعد أمي وأبي. أسرعت بإرسال مراسل ليمنع أخي من مواصلة رحلته ويعود. شددت على المراسل بالإسراع. لكن المرسال وصل بعد أن تم تنفيذ الأمر. آه من نهش الضمير. اكتشفت بعد مقتله أنني قتلت ابن أمي وأبي. لم أفرح ولو لبرهة بعد مقتله. لذلك أنا أضع بقية حياتي كلها، كلها في سبيل إسعاد راسم بن سِلْوِي. راسم الذي أخطط لعودته. سيعود لكم ولنا خلال أيام.

عاد للبكاء العالي والرعشة العالية. ألقى بنفسه على ظهره كاشفًا عن زوره. قال لمرمرة:

- تستطيعين الآن أن تذبحيني انتقامًا لسِلْوِي وجوهرة. لكن سامحيني. سامحيني وترجي ذات الرِّفعة أن تسامحني.

مرمرة وذات الرِّفعة في حالة شفقة وحزن تغلبا على نار الانتقام الذي حضرتا به. فوز تلطم خديها ومستمرة في لعن عِلوي واتهامه بالجنون. دقائق وعِلوِي ما زال في حالة انهيار. مرمرة وذات الرِّفعة هبطتا من السرير لتبتعدا. أوقفتهما فوز. قالت:

- انتظرا. يجب أن نصفي مشاكلنا وننظر لما يجب أن يكون في أيامنا القادمة. أنا وعِلوِي عندنا تصميم أن

نعوض ما جرى على سِلْوِي، ونضمن العرش لراسم بن سِلْوِي وابن ذات الرِّفعة.

أجابت ذات الرِّفعة:

- أنتما لا تهتمان براسم بن سِلْوِي. اهتمامكما بابنتكما نورة. فهي تميل لراسم وراسم هو الأنسب لها نسبًا. هل ستخادعيننا يا فوز؟

- لا. بل أحذركما وأحذر نفسي. إن تأكد راسم بما سمعه بالشائعات التي تتهم عمه في قتل أبيه، فسيكره عمه وربما كره نورة، وحتى لو لم يكره نورة. نورة ربما تتحول عنه. كيف ستعيش مع مَن قتل أبوها أباه؟

ذات الرِّفعة تضحك ساخرة، وفوز تواصل تحذيرها:

- إنه وضع مستحيل. ونورة إن عرفت بضربكما لأمها وأبيها، ستكرهكما. الحل.. أن تبقى الأسرار مدفونة في صدورنا نحن الأربعة. ونترك أولادنا يعيشون معًا في هواء نقي غير ملوث. يعيشون في سلام غير محملين بخطايانا.

أجابتها ذات الرِّفعة:

- كنت أظن أنكِ أذكى من ذلك. راسم ونورة يعرفان كل شيء. ابني راسم يشك في أن عمه شارك في اغتيال أبيه ولو بالصمت. لكنه يعطي لعمه الأعذار، ويقول يكفي عمي ندمه الحارق. وأنا أعرف ابني.. همّه العرش، وطالما عمه يحجز له ابنته ويسهل له الجلوس على العرش، فلن تحرقه قضية اغتيال أبيه.

- أيعرف ابنك وتعرف ابنتي؟

- نعم، وأنت تعرفين أنهما يعرفان. لنترك هذه المحاورة الخبيثة. احذري من أخيك لوز، فهو لا يحب لا ابنتك ولا ابني؟

- عرفت أنه يريد إبعاد نورة وراسم ليضع ابنه على العرش. لقد صار عدوي. فلن يكون أعز عندي من ابنتي. ثم مَن يتآمر على توءمته، فقد نقض الأخوة.

***

(14)

الأميرتان لم تذهبا لجناحيهما. بل خرجتا والنهار واضح، على حصانيهما وخلفهما حارسان. فالأمور لم تعد آمنة. ذات الرِّفعة أصرت على أن تُبلغ الساموراي بالمؤكد في غموض اغتيال الأمير سِلْوِي. فالساموراي من أعز وأقرب أصدقاء الأمير المغدور. قابلتهما حبيبته الخادمة عسلية الغامقة. الساموراي في جولة صحراوية يفعلها كل أسابيع. يبقى فيها أيامًا لا يعلم أحد ولا يعلم هو كم ستستغرق جولته. ففي جولته هذه يتدرب على القتال ويبتعد. حكت لها ذات الرِّفعة حكاية الاغتيال. قالت عسلية الغامقة:

- الساموراي قال لي أكثر من مرّة إنه يشك في جَربال. وإن جَربال هو إما المخطط لاغتيال سِلْوِي، أو هو مَن اغتاله بسيفه. الساموراي سيغضب غاية الغضب، وسيصر على الانتقام من جَربال.

***

لوز رغم أعماله المنتشرة في كل الولايات السبع، فهو مستقر تقريبًا في ولايتين.. ولاية العاصمة ذات القباب. وولاية البحر. ولاية البحر فيها تتركز المكاسب المهولة، فأغلب تجارة المملكة تخرج وتأتي منها. لوز بصفته شقيق الملكة، ضغط كثيرًا على بقية التجار من غير عائلته، وحاصرهم وجعلهم مجرد أتباع له. كرهوه لكنهم مضطرون لنفاقه. أما رعية الولاية، فهم كارهون لجميع التجار وعلى وجه الخصوص لوز الخبيث. والأمور كانت

ماشية لأن المكاسب كثيرة والرعية في ولاية البحر، تأكل وتشرب ولا يجوع فيها جائع. حتى وصلتهم أنباء ببوادر هوجات في بقية الولايات. هنا هاج فيهم أمر غير الجوع، إحساسهم بالكرامة سخن واشتعل، لماذا يتعالى عليهم كبار التجار؟ لماذا يعاملونهم وكأنهم عبيد؟ لماذا مقابل كل درهم يكسبه أي منهم، فالتاجر يكسب ألف ألف؟ لماذا لهم القصور ونحن في بيوت عادية وأقل من عادية؟ وبدأ شباب الولاية في اللّماضة ضد التجار وإبداء الرفض والتهديد بما هو أكثر.. الهوجة مع بقية رعايا المملكة.

لوز أخذه الغرور بذكائه وثروته التي فاضت فيضًا. خطته مع الوزير المُتغوّل، أن يقلبا عِلوِي عن العرش، فيكون لوز هو الملك، ويبقى المتغوِّل وزيرًا ويزيد الملك لوز من ثروة المتغوِّل ونفوذه. وكما أن المتغوِّل لا يثق في لوز، فإن لوز لا يثق في المتغوِّل. لكنهما يعملان معًا لساعة أن يتصادما. لوز قرر أنه يوم يجلس على العرش، سيطيح بالمتغوِّل، ويضع مكانه البكاتوشي. والبكاتوشي هو أكبر مساعدي المتغوِّل في ولاية البحر، ولوز على معرفة بالبكاتوشي ويسهر معه ويشربان في مسامرات. ويعلم لوز أن البكاتوشي ليس بالخباثة الخطيرة. زاد لوز من جلوسه وسهراته مع البكاتوشي، بل وأخذه معه ليسهرا أكثر من مرة، مع والي الولاية نفسه. وهبه مالًا وفيرًا وأدخله في تجارة رابحة. وصرح له بأنه سيزيح المتغوِّل ويعينه مكانه، ومقابل هذا عليه أن يتعاون معه

من الآن. وهذا خطأ لوز الأول الذي أودى بطموحاته وبحياته أيضًا. الغنى الذي وضح على البكاتوشي، بالإضافة لتواجده المتواصل مع لوز، لفت الأنظار إليه. أتى أحد أتباع المتغوِّل للبكاتوشي، وصرح له بأن وزيرهما المتغوِّل، أخذ يشك فيه وفي علاقته بلوز، وأنه يراقبه، وعند أي بادرة خيانة سيكون عقابه أليمًا.

ارتعب البكاتوشي فأبلغ المتغوِّل بأن لوز ينتوي أمرًا. أمره المتغوِّل بأن يستمر في تقبل صداقة لوز ومساعداته، وينقل أخباره أولًا بأول للوزير. ولما صارح لوز البكاتوشي وأغراه أن يكون بجانبه هو ومَن يجد فيهم الرضاء، ليساعدوه على قلب عِلوِي من العرش ثم تنحية المتغوِّل من الوزارة على أن يتولاها البكاتوشي. أوصل البكاتوشي الخبر للوزير المتغوِّل، وكتب أنه يشك أن والي الولاية متفق مع لوز.

لوز له قصره المنيف داخل المدينة الساحلية، وله أيضًا بيت واسع يطل على البحر بالقرب من مرسى مراكبه ومخازنه. المكان مزدحم بالعمال المعروفين والأغراب والتجار والسماسرة. هذا المقر الواسع به حجرات تطل على البحر. واحدة منها بها نافذة واسعة، مخصصة لنومه ليلًا حين يحتاج الأمر. وفيها يرتاح ويقيِّل ظهرًا. له حراس عديدون. خلال الليل ينتبهون، لكن في النهار الواضح لا يتوقع أن يحاول أحد أن يضر بأحد، وهل مجنون يفكر في قتل لوز وفي قارعة النهار؟!

خلال قيلولة لوز كانت نهايته. في العصر دخل عليه خادم من خدامه ومعه صينية عليها كوب القهوة المعتاد. وجده ملقى وسط الحجرة على ظهره مذبوحًا، والدماء تلوث المكان حوله خاصة من ناحية سريره حتى مكان سقوطه. لم يعلم أحد مَن الذي قتله. لوز مكروه من الجميع. أقتله منافسوه من أحد التجار الغرباء الذين ظلمهم لوز؟ أم تاجر حاقد عليه من عائلته النوارنة؟ فهو ظالم متجبر عليهم أيضًا.

رعية ولاية البحر بعد أن سمعت باغتيال لوز، أشعلت هوجة وإن كانت ليست ذات خطر مثل هوجات ولاية الجبل وولاية المستنقعات. حرقوا بعض المخازن وهددوا بحرق الباقي إن لم تتم معاملتهم بالحسنى، ورفع أجورهم.

الوالي في رعب. لا يعلم مَن قتل لوز أكبر تاجر في المملكة وأحد أهم كبار عائلة النوارنة، بالإضافة إلى أنه توءم الملكة؟ الوالي أحس بأن قاتل لوز من طرف المتغوِّل، أي إن المتغوِّل شم رائحة المؤامرة المنتظرة. تأكد من هذا حين أتاه أمر بالحضور للعاصمة. ذهب ومعه مساعده وأربعة من الحراس، ولم يصل أحد منهم للعاصمة.

صرخت الملكة فوز حين جاءها النبأ. لطمت خديها وبكت بكاءً مرًّا، أدّت ما ينبغي لتوءم أن تؤديه حين يصلها خبر مقتل توءمها، لكنها لم تحزن حزنًا حقيقيًّا. فقط تأثر بسيط للدم الواحد والذكريات الواحدة.

فتوءمها لوز لم يعد نصيرًا لها، ويخطط معها للمصلحة المشتركة، بل كان يخطط ضدها ليبعد ابنتها عن العرش ويتولاه ابنه.

***

من بعد اغتيال الأمير سِلْوِي، لم يعرف إلا القليلون مدى تدهور جسد ونفس الملك عِلوِي، ويتم التكتم على ما يفعله كل ليلة. بملابس نومه يدور في الردهات التي تحيط بجناحه. وجناح الملك شاسع به ردهات وممرات عديدة تخصه وحده، وعبيد وجوارٍ مخصصون له ولزوجته وابنته. الملك يجوس فيها مخاطبًا نفسه بتحريك شفتيه ولا يُخرج أي صوت. يشير لصدره ويلوم نفسه باكيًا. عيناه وملامح وجهه تظهران ما يريد قوله.. الندم واللوم. لا يستمع لرجاءات الملكة بأن يعود لحجرته. تأتي ابنته نورة مهرولة. ترجوه وتستعطفه أن يهدأ. يتركها الملك تسير خلفه هنا وهناك وكأنه لا يعرفها، حتى يتعب ويقعى ويشير لها فتأتي وتميل برأسها إليه. يقبل رأسها ويستسلم. يحمله العبيد ويعيدونه إلى سريره باكيًا. التطبيب لم يأتِ بنتيجة معه، وجلوسه تحت القبة الزمردية لم يفد. أتوه بمجذوب شهير فتراقص وأرغى وأزبد، وأوصى بنقع كلمات مبهمات في مياه معكّرات، والكثير من البخور، ولا فائدة.

تطورت حالته لأخطر من هذا، عندما اشتدت هوجات الرعية في أكثر من ولاية، ووصله أن الرعية حانقة عليه

وتريد شلحه من العرش. لم يعد يخرج خالي اليدين في ردهات القصر. بل صار يمسك بسيفه ويهدد الحوائط والستائر وكل مَن يقابله من العبيد والجواري، على أنهم الرعية الرعاع الذين يتحركون ضده. العبيد والجواري يهربون منه، فهو في حالته هذه يمكن أن يقتل أيًّا منهم. ما يستر أفعاله أنه حتى حين يخاطب الغير لا يصدر أي صوت، تعبيرات عينيه وملامح وجهه بدلت الندم واللوم بمشاعر جديدة. الغضب والاستكبار والكراهية. الملكة فوز هددت بأشد وأقسى عقاب لمن يفشي الحالة السيئة للملك.

صارت الهوجات مشتعلة خطيرة وفي أكثر من ولاية. في ليلة لم يستكِف الملك بالسير في الردهات، سلم ضيق يصعد من جناحه إلى سقف القصر. صعد للسطح وأخذ يسير فيه هنا وهناك ملوحًا بسيفه، يدور حول القبة الزمردية بخطوات عصبية. يقف على حافة السطح مهددًا رعية الهوجة بالذبح والعذاب المريع. شفتاه تتحركان لكنه لا يرفع صوته مطلقًا. أنزلوه بصعوبة وأغلقوا الباب المؤدي من السلم إلى السطح بقفل متين.

الأميرة ذات الرِّفعة وهي نائمة في ضيق صدر، تأخر وصول ابنها يكويها كيًّا، وقرب فراق حبيبها شكّور يؤلمها. قميصها الذي ترتديه لا يستر جسدها، تكاد تكون عارية. تتقلب على فراشها. انتفضت مرتعبة وقد استبانت همهمة ملاصقة لسريرها. اعتدلت وصرخت:

- مَن؟

لا مجيب. ومع ضوء المصباحين الخافتين، تبينت رأسًا أبيض الشعر يستند على حافة سريرها ويصدر منه نهنهة البكاء. صاحت مرة أخرى:

- مَن؟

وقبل أن تقفز من سريرها ارتفع الرأس وبان وجه الملك عِلوِي. باكيًا بائسًا نظراته رجاء وتضرع. الجواري الحارسات يقفن عند الباب ينظرن إلى الأميرة مبينات عجزهن عن منع الملك من الدخول عليها.

عِلوِي يداه متشبثتان بالسرير ووجهه الباكي مرفوع ناحية ذات الرِّفعة، توسل:

- سامحيني يا ذات الرِّفعة.

ذات الرِّفعة في ذهول. كرر الملك قوله بطلب المسامحة. قالت له ذات الرِّفعة وهي تسحب ملاءة تغطي بها جسدها..

- أسامحك! هكذا ببساطة؟

- لقد وافقت على اغتيال سِلْوِي. أخي سِلْوِي. زوجك سِلْوِي.

صاحت ذات الرِّفعة ويداها تركتا ملاءة السرير، وانهالت تضرب وجنتيها بقبضتي يديها..

- آآآآآه. سِلْوِي. سِلْوِي. اصمت يا منحوس لا تزد نار حسرتي نارًا.

وقف علوي يصرخ ويجري في أنحاء الحجرة وهو يلطم خديه بقوة بقبضتيه. ذات الرِّفعة تتشنج وتولول

وترج جذعها يمنة ويسرة، وهي الأخرى تلطم وتصيح باسم زوجها سِلْوي. اتجه علوي إليها وركع عند سريرها وشعره المهوش ينتفض مع رعشة رأسه. ينظر إليها بعينيه الجاحظتين. أمسك بمعصم ذات الرِّفعة وصاح:

- لكن أقسم بالله. لقد أرسلت بعد الموافقة. أرسلت فورًا رسولًا ليوقف الأمر. لكن.. لم يصل في الوقت المناسب. يا ذات الرِّفعة من وقتها وأنا أموت كل دقيقة. أنتحر كل لحظة وأنحر نفسي ندمًا كل دقيقة.

- انتقم منك الله في الدنيا والآخرة. لكن لا. لا. مجبرة أن أسامحك، فمن المؤكد أن أخاك سِلْوِي قد سامحك.

- لا. لم يسامحني. قولي له أن يسامحني. أقبل قدميك.

انحنى على قدمي ذات الرِّفعة يقبلهما، ثم اعتدل مستمرًا ثابتًا على ركبتيه أمام ذات الرِّفعة الجالسة على سريرها. استمر في حديثه:

- صار سِلْوِي يأتيني كل ليلة كما رأيناه يوم أتوا بجثته. يلومني. يذكرني بأفضاله عليّ، ثم.. ثم يطعنني بسيفه بقسوة فأصرخ أنا متألمًا مفزوعًا. هذه الليلة فعل كما يفعل كل مرة، لكنه زاد بقوله.. لِمَ لَمْ تمت حتى الآن؟ أطعنك كل يوم وأنت لا تموت؟ مُتْ مُتْ أيها الملك الحقير.

يستمر الملك عِلوِي في بكائه. ذات الرِّفعة تربت رأسه وتطلب من جارية حارسة أن تسرع وتأتي بنورة ابنة عِلوِي. ولما أتت نورة وجدت أباها في نفس وضعه راكعًا

بجوار السرير ورأسه على ركبتي ذات الرَّفعة، التي تشاركه في البكاء.

تحت عرش الملك الضعيف عِلوِي، الذي تمكن من أذنيه وزير خبيث. هاجت الولايات السبع وزعماؤها اتصلوا ببعضهم، وتصاعد غضبهم ليكون هوجة لا تبقي ولا تذر. الأمطار التي بدأت تزداد لم تستطع إطفاء تلك الهوجات النارية. مئات استولوا على مراكب التجار الكبار، وفردوا أشرعتها لتضرب الرياح في باطنها، وتدفع المراكب في اتجاه مدينة القباب. ومئات يستولون على خيول علية القوم وحميرهم وبغالهم. ويتجهون في جماعات كثيفة العدد للهدف الذي لن يحيدوا عنه.. مدينة القباب، ثم قصر الزمردة. وهناك ينتزعون عهدًا من الملك عِلوِي أن يرفع الظلم عنهم. وحين انضمت إليهم هوجة المستنقعات وعددهم كبير، ازدادوا ثقة ورفعوا من سقف مطالبهم وأقسموا أن ينفذوا ما اعتزموه.. إما أن يتنازل عِلوِي عن العرش، وإما أن يتم قتله. هكذا!

سكان مدينة القباب أنفسهم، في ضيق صدر. متململون وليس لديهم نفس فرصة الولايات التي هاجت وثارت، مدينة القباب مكتظة بالبصاصين والجنود. ورغم هذا فهم في حالة استعداد لوصول الهوجة لأبواب المدينة. وقتها سيكون لهم دور ما، ما هو؟ لا يعرف أحد. يكرهون الملك عِلوِي وكراهيتهم الأشد تنصب على الوزير المتغوِّل. رأيهم مع رأي بقية

رعية المملكة، يجب إبعاد عِلوِي عن العرش، لكن مَن البديل؟ في المدينة، الاتفاق شبه الجماعي أن تتزوج الأميرة الطيبة مرمرة رجلًا طيبًا مثلها، وقويًا مثل أخيها المغدور الأمير سِلْوِي. فتكون هي الملكة وزوجها الملك. أتباع الشيخ عبد الرازق، مصرون على تولية الملك على أن يكون لقبه خليفة المسلمين. نقطة ضعف أتباع الشيخ عبد الرازق، أنهم قليلو العدد.

الجيش مثل الرعية يكرهون الملك عِلوِي. نفوسهم متألمة من اغتيال أميرهم سِلْوِي. الشائعات المتداولة تزداد رسوخًا، أن قائدهم جَربال هو القاتل. نفوسهم تتحرك لتعصي قائدهم القاتل. ينتظرون التأكد من الشائعات ليفتكوا بجَربال ويقتلوه شر قتلة. جَربال في توتر حارق خشية على حياته. خاصة بعد خبر مقتل لوز ثالث أهم ثلاثة في التحضير لمؤامرة اغتيال الملك عِلوي، ومن بعد أن تباعد عنه فتّوح، ورفض أن يكون تابعًا له في شروره. تأكد جَربال أن قيادات الجيش وجنوده تحوّلت تجاهه من الحيادية إلى الضدية. فبدأ يتحسب لنفسه ووضع حوله عددًا من الجنود الموالين له. قابل الوزير المتغوِّل سرًا. ترجاه ذليلًا أن يسرع ما اتفقوا عليه سابقًا، التخلص من الملك عِلوي. لكن المتغوِّل يرفض التعجل، ويصر على انتظار وصول الهوجات إلى مدينة القباب، وأن على جَربال أن يحصن نفسه وينتظر ما ستفعله الأيام.

ليلًا. فتّوح عقد اجتماعًا مع قيادات الجيش. واتفقوا أولًا على إرسال عدد من الجنود أصدقاء ممبار القدامى، للبحث عنه وطمأنته أنهم سيحمونه حين يصلهم ويعلن حقيقة مقتل الأمير سِلْوِي. الأمر الثاني، موافقة الهوجات في تنحية الملك عِلوي وتنصيب الأمير
راسم بن سِلْوِي ملكًا على البلاد، هذا حين يتم فك أسره من البدو. وأخيرًا الانتقام من البدوي عبد الرحيم الوسيم ورفيقه، اللذين أتيا في تبختر، ليفرضا جزية على المملكة!

في نفس هذه الليلة. نظرًا لتوالي الأحداث السريع، عبد الرحيم الوسيم وشكّور لن يتمكنا من التلاقي مع الأميرتين ذات الرِّفعة ومرمرة. عبد الرحيم جوفه في نزاع ضد بعضه. في شوق ساخن لليلة أخرى مع الأميرة مرمرة، وفي قلق ناري من طول تعطيله في المدينة. إن كل هذا التعطيل معناه أن مؤامرة ما تكاد تحيط به وتنطبق فتقضي عليه. قرر نسيان الشوق لمتعة جسد الأميرة مرمرة. أقسم إن هذا اليوم هو يوم الحسم، إما مفاوضة وأخذ الذهب والفضة، وإما الرحيل، وعلى المملكة بعدها أن ترسل إليه في صحرائه لتفاوضه. بعد اتخاذه هذا القرار لم يستطع أن ينام. يتقلب في فراشه قلقًا مغيظًا.

وفي نفس الليلة. جاء العبد الباسم وخلفه الجواري والعبيد حاملي قوارير الخمر ومشروب النكاح. دخلوا مبنى مبيت الجنود المضاء جيدًا بالمصابيح. هلل

فرسان البدو فرحين، أخيرًا سينالون الليلة الثالثة من إكرام الضيوف. انطلقت الجواري إليهم ينادين بعضهم بالاسم ويأخذن بعضهم بالأحضان فورًا. العبيد داروا على البدو بالكؤوس المترعة فتجرعوا مشروب النكاح متشوقين، رغم مرارته الزائدة هذه المرة، ثم تجرعوا كؤوس الخمر الثقيلة كأسًا وراء كأس. وبدأت السهرة الفاسقة. على الحشيات احتضنوا الجواري. الكل عارٍ والكل منهمك مع شريك الفراش. تصاعدت التأوهات والكلمات الملتبسة الساخنة. الجواري وصلن لذروتهن والرجال فوقهن لم يقذفوا ماء الحياة بعد، مشروب النكاح يطيل مدة الفعل. ولما بدأ أولهم في القذف، أخذ في التشنج والولولة والصراخ العالي الحاد، السامعون ظنوا أنه يولول لشدة وحرقة اللذة. التسعة الباقون وصلوا لذروتهم في وقت متقارب. هنا بانت الخديعة بصراخ الجواري من تحتهم. فرسان البدو كل منهم وهو في لحظات قذفه لمنيه، ألم ناري يشتعل أسفل بطنه ويتركز في عضوه ثم عروقه الصاعدة للقلب، ويوالي الصعود حتى قمة الرأس. ينازع سكرات الموت لحظات سريعة، ثم يتخشب جسده في وضعه هذا ويموت.

تبعد كل من الجواري الجثة المتخشبة التي فوقها. يصرخن ويبكين فلم تكن واحدة منهن تعلم بأن مشروب النكاح هذه المرة به هذا السم الناري الغريب. جارية نحيفة ضعيفة لم تستطع إلقاء مَن فوقها بعيدًا، استغاثت فساعدتها إحداهن. الجواري ينظرن لمَن كانوا

يضاجعونهن في نشوة وفرحة، وقد صاروا جثثًا متخشبة، وقد تجبست على وجوههم آلام فظيعة ورعب وحشي. الجواري واقفات مرعوبات عاريات صارخات. دخل العبد الباسم في عبوس وهددهن إن واصلت إحداهن الصراخ.

حجرة الأمير وشكّور. بابهما يفتح عنوة وقبل أن ينهضا من سريريهما، كان الجنود حولهما شاهرين الحراب عليهما. جند كثيف. بملابس نومهما أُخذا للخارج حافيين وعاريي الرأسين. الفجر لم يصل بعد. وضعوا سلاسل في أياديهما وأخذوهما لمبنى بيت الجنود ليريا ما حل بفرسانهما البدو. شاهدا فرسانهما التسعة ملقون عراة في هيئات أصنام خشبية فزعة، كان عضو كل منهم منتصبًا بشدة وقطرات من المني ما زالت تلوث مقدم ذكورتهم. عبد الرحيم وشكّور يصرخان في لعنات على الملك وعلى المملكة وعلى الجنود الذين حولهم. سحبوهما للخارج. توقفا عن السباب حين ألقى عليهما تحية الصباح صوت يعرفانه.. فطرون الفأر. يلعنانه باسمه وفطرون الفأر يضحك سعيدًا.

رموا كلا منهما على ظهر حمار. بطنه على ظهر الحمار بدون بردعة. وساروا في كوكبة خيول وحمارين إلى قصر الزمردة، الأمطار تهطل والفجر يأتي متثاقلًا. طوال الطريق وفطرون الفأر يسخر من عبد الرحيم وشكّور مكثرًا من نعتهما بالبدو الأجلاف. وعند باب قصر

الزمردة أنزلوهما وزادوا من قيدهما بقيدٍ إضافي في رسغي الساقين، بحيث تكون خطوة كل منهما لا تزيد على نصف ذراع. حالهما مذل بائس وضيع. يكادان ينفجران من الغيظ. يسائلان نفسيهما.. ما الذي جرى؟ ما المؤامرة التي دبرها المتغوِّل الخبيث؟ كيف يفعل بهما كل هذا الإذلال والأمير راسم ما زال في قبضة قبائلهما؟

الفجر والعصافير تشقشق على أغصان أشجار حدائق قصر الزمردة. الجنود يدفعونهما من ظهريهما بكل غلظة. منكسران يسيران في الممرات التي كانا يسيران فيها سابقًا بكل أبهة وفخار. وصلوا بهما لقاعة العرش. الحاجب يقف على الباب ينظر لهما في شماتة. سبقهما ودخل القاعة وأعلن بصوت جهوري متفاخم:

- مولاي الملك العظيم عِلوِي السُمَيِّد. ملك مملكة الأنهار السبعة. وباسط سلطته على تخوم المملكة على الصحراء الصفراء وعلى البحار الزرقاء. يدخل على عظمتكم الأسيران البدويان الحقيران عبد الرحيم الوسيم وقريبه شكّور.

القاعة الفاخرة وهما يتقدمان حتى وقفا أمام العرش المتربع عليه الملك عِلوِي السُمَيِّد. صاح الشيخ صقالي من جانب القاعة:

- اسجدا يا أيها الحقيران لمولاكما الملك عِلوِي السُمَيِّد.

نظرا له في كبرياء ورفضا السجود، فأجبرهما الحراس على السجود ودفعوا جبهتيهما حتى تلامسا الأرض. وحين حاولا الوقوف منعهما الحراس. عليهما البقاء جالسين على ركبتيهما.

الملك عِلوِي وجهه مهضوم كئيب، خصلات شعره خارجة من تحت التاج والعمامة الحمراء، متهدل أبيض. وكذا لحيته وشاربه في لون الفضّة. لم يعد يصبغ شعره. القاعة ليس بها سوى الملك والوزير المتغوِّل، والشيخ المنافق صقالي، وعدد كبير من حراس الملك المدججين بالحراب والسيوف. الحاجب انسحب لخارج القاعة. الملك نظر لعبد الرحيم وشكّور في احتقار وبصوت ضعيف صاح:

- يا وزير. تصرف مع هذين الحقيرين.

الوزير أشار للحراس أن يبتعدوا عن الأسيرين. تقدم هو واقترب من الأسيرين المكبلين تمامًا بالقيود الحديدية. يبتسم في شماتة. أخذ يدور حولهما ويحادثهما:

- ظننت يا عبد الرحيم أنك قادر على لي ذراع ملك مملكة الأنهار الجارية؟

وقف خلف الأسيرين. وضع رأسه بجوار قفيهما وهمس:

- في أول دخول لكما في هذه القاعة. تطرداني من مقعدي، وتجلسان عليه! لم أنسَ هذه الإهانة. ثم.. ثم يا غبيين، لِمَ لَمْ تتفكرا لماذا تركتما تنكحان أميرتين بهذه

السهولة؟! لقد تركتكما لسببين.. أولهما.. ما دام النكاح بعيدًا عن أفخاذ حريمي، فلا بأس. هاها. ثانيًا لأشجعكما على البقاء حتى آخذ وقتي وأستكمل مؤامرتي التي أغرقتكما فيها. هاها.

عاد الوزير لرفع صوته وهو يتحرك حولهما، وينظر للملك تارة وللمكبلين بالسلاسل تارة..

- أنت تجاوزت الحدود يا عبد الرحيم. لذلك عقابك سيكون شديدًا. عقابك سيكون عبرة لكل بدوي يفكر في تعطيل قوافل الملك. تظن أنك تملك ذِلّة علينا. وأننا لا نستطيع إيذاءك طالما أميرنا

راسم بن سِلْوِي أسيرًا عندكم؟

صوت الحاجب:

- الأمير راسم بن سِلْوِي ولي العهد.

لا عبد الرحيم ولا شكّور استوعبا ما سمعاه من صوت الحاجب. وقبل أن يستوعبا صاح الوزير المتغوِّل:

- قفا والتفتا إلى باب القاعة يا حقيرين، فسيدكما على وشك الدخول.

الحرس أوقف عبد الرحيم وشكّور لينظرا ناحية باب القاعة. الذهول ارتسم على ملامحهما.

تكلم الشيخ صقالي:

- ليريا كيف خيب الله خباثاتهما. هاها.

مفاجأة مرعبة.. يدخل الأمير راسم بلحمه وشحمه. في ملبس بالغ الأناقة. عمامة حمراء مثل عمامة الملك. قميص حريري أزرق وسروال ملون بالطول أحمر

وأزرق. ذقنه وشاربه مرسومان بعناية. يدخل في خطوات سريعة. كل ما فيه جميل فيما عدا ملامح وجهه التي تنطق بالشر. سريعًا تقدم ناحية العرش وانحنى للملك عِلوِي. ثم أسرع ووقف أمام عبد الرحيم وشكّور. يهمل شكّور ويركز نظراته الحادة الغاضبة على وجه عبد الرحيم. وفجأة بكف يده أخذ في صفع وجه عبد الرحيم وهو يلعنه بالبدوي الحقير. عبد الرحيم يحاول الانفلات من قيوده ليشتبك مع راسم. القيود حديدية قوية ثقيلة. والحراس يمسكون به من كتفيه ومن وسطه، فيزيدونه عجزًا. والأمير راسم ابتعد خطوتين تحسبًا أن ينفلت عبد الرحيم من قيوده ومن أيادي الحراس. صاح عبد الرحيم:

- لو لم أكن مكبلًا بالأصفاد، لما جرؤت على هذا يا جبان.

الأمير راسم ابتسم في ترفع وأخذ خطوات تجاه العرش وخاطب الملك:

- هذا البدوي الحقير صفعني وأنا أسير عنده. بدوي متخلف. يدعي أنه أمير! وكأن الإمارة تجوز للبدو!

الوزير المتغوِّل قال:

- عندك كل الحق مولاي الأمير. الآن البدوي الحقير عبد الرحيم محتار كيف تم فك أسرك؟! هاها. اسمع يا عبد الرحيم.. تتذكر يوم أخذناك لبيت الخط؟ تتذكر حين ضايقناك حتى تهورت وكتبت بخطك أسطرًا كثيرة، ومن بعدك فعل نفس الفعلة ربيبك هذا المدعو

شكّور؟ بهذه الأسطر منكما عرفنا نوعية خطكما. فكتبنا خطابين لأهلكما في باديتكما العفنة. وكما شربت أنت لعبتنا، شرب قومك اللعبة. قلنا لهم إن أميركم وشكّوركم والبقية كلهم بخير. والمطلوب أن تفكوا سراح الأسرى وتعيدوهم لمملكتهم، كبادرة خير للملك، وأيضًا أن ترسلوا هدايا قيمة للملك، حتى يهديكم بدوره ما يليق بملك عظيم مثل الملك عِلوِي السُمَيِّد. هاها قبائلك يا عبد الرحيم أرسلوا هدايا من لحمهم الحي. هدايا ستصيبهم بالفقر. طبعًا أميرنا راسم جاء بالسلامة ومَن معه من أسرى. لكن.. لكن لأننا نريد الانتقام منكم، ومما فعلتموه بجيشنا من قتل وأسر، طلبنا أيضًا أن يرسلوا لنا عشرة من أقوى وأجلد شباب قراكم، بحجّة أنهم سيكونون رعاة القافلة العظيمة التي سيرسلها الملك لكم. هاها. صدقوا. هاها. طبعًا هم معذورون فالخطابات بخطك المعروف لديهم. وعائلة هذا الشكّور أكدت أن الخطاب الذي يحمل توقيعه هو بخط يده أكيد. هاها.

عبد الرحيم وشكّور في ذهول. يستمر الوزير المتغوِّل في الكلام:

- بكل أسف، كنا نتمنى أن يكون من العشرة ابن من أبنائك. لكنهم فضلوا عدم الحضور. ربما لا يريدون رؤيتك. ربما يكرهونك مثلًا.

عبد الرحيم وشكّور ينظران شزرًا للمتغول الذي صاح في الحاجب:

- أرسل أسرى الأعراب.

حراس يدخلون صفين شاهرين حرابهم وبينهم عشرة أسرى من شباب البدو. الأسرى حفاة عراة الرؤوس منهكون متربون مهوشو الشعر واللحية في ملابس رثة. عندما شاهدوا عبد الرحيم وشكّور في حالة ذل مثلهم صرخوا لوعة محاولين الانفلات من القيود. الحراس يضربونهم بقسوة. أحد الشباب رفع يديه المكبلتين بالقيود، ولفها حول رقبة حارس من الحراس محاولًا خنقه. حارس آخر طعن الشاب بحربته طعنتين فخر هذا صريعًا.

عبد الرحيم وشكّور لم يستكفيا بلعن راسم والمتغوِّل، بل لعنا الملك، لم يأبه بهما أحد. المتغوِّل أمر:

- يا حراس. ابعدوا جثة هذا الأعرابي المتهور. ثم آتوني بمَن ذهب أولًا بالجمال الثلاثة.

في سرعة أبعدوا جثة الشاب البدوي. بعده دخل حارسان بينهما البدوي عجرد مكبلًا بالأصفاد. في حال أصعب من العشرة الذين سبقوه. يدفعونه للأمام بقسوة. صاح في عبد الرحيم:

- ضحكوا عليك وسخروا منك. أمسكوا بي قبل خروجي من بوابة المدينة. ضربوني وعذبوني وأهانوني. أنت السبب. سرنا وراءك فكان هذا نصيبنا. سيقتلوننا جميعًا يا عبد الرحيم.

الأمير راسم قال:

- أسرع يا مُتغول، فوراءنا مشغوليات.

- أمرك يا سمو الأمير.

قبل أن يتم ما بدأوه، وقف الملك عِلوِي وأخذ طريقه ببطء وضعف للخارج قائلًا للأمير راسم:

- تابع الأمور. أنا مُتعب.

انتظروا حتى خرج الملك عِلوِي. نادى الوزير:

- والآن آتوني بالبطل الذي حمل الرسائل للبدو وأتى بأميرنا راسم وغيره.

صاح الحاجب:

- البدوي الشهم خادم ملك مملكة الأنهار السبعة. الفارس عاقص.

مفاجأة محزنة إضافية لعبد الرحيم وشكّور، بقية الأسرى البدو عرفوا الخائن من قبل. الذي دخل قاعة العرش هو فعلًا الفارس البدوي عاقص! دخل في ملبس قشيب وابتسامة واسعة ورضاء عن النفس عميق. يأخذ خطواته برشاقة رغم سمنته الفاضحة، ولم يأبه بسباب الشباب المأسور ولا بنظرات عبد الرحيم وشكّور المحتقرة له. وقف أمام الأمير راسم وأحنى رأسه، ثم نفس الأمر أمام الوزير المتغوِّل. ثم وقف أمام عبد الرحيم وشكّور. عبد الرحيم وهو على بعد خطوات كثيرة من عاقص، بصق عليه وقال:

- خنتنا! خنت قبيلتك يا عاقص؟!

ضحك عاقص وقال:

- الذهب يا عبد الرحيم. الذهب والنساء يا أمير البدو.

صاح شكّور:

- لن يأتمنك المتغوِّل ما دمت خنتنا فستخونه.

ضحك الوزير وقال:

- عاقص. شكّور يحاول ضربنا في بعضنا هاها.

الأمير راسم صاح:

- قلت وراءنا مشاغل. استكمل المطلوب يا وزير.

- أمرك يا أميرنا العظيم.. أخرجوا الأسرى الأعراب، واشنقوهم فورًا في الميادين. أما عبد الرحيم ومعه الحقير الثاني، فسيتم حبسهما حتى ننتهي من هوجة الصعاليك، فنشنقهما في حفل كبير يليق بمقام مَن يقال عليه أمير.

في غلظة ساقوا الأعراب العشرة ومنهم عجرد للخارج. ثم في غلظة أشد ساقوا عبد الرحيم وشكّور إلى السجن البشع. نالا من البهدلة الكثير.

***

(15)

خارج أسوار المدينة، خاصة أمام باب الجيوش، حشود من الرعية الهائجة، لم يتركوا سوى باب الفيافي المطل على الصحراء، والصحراء خالية من الزرع والمياه. ينامون في العراء، لا يهمهم هطول الأمطار أو توقفها، خاصة أن البرد لم يصل بعد. مأكلهم ومشربهم من الحقول الخضراء والقنوات المائية. لا يعرفون ماذا يفعلون. برز من وسطهم شباب غضبهم ناري، أقسموا ألا يعودوا لديارهم إلا بعد إسقاط الملك عِلوِي! أبواب مدينة القباب أغلقت من دونهم، ويعلمون أن خلف الأبواب قوات حاشدة من الجيش، لن تتركهم يندفعون في شوارع المدينة بسهولة. وكل يوم، بل وكل ساعة ينضم إليهم عشرات وعشرات من الرعية الهائجة من ثقل الظلم عليها. وبأعدادهم المتزايدة هم مطمئنون.

جَربال قائد الجيوش، الآن حبيس الجيش! ممنوع من مغادرة المعسكر. طوال الليل يتساءل.. هل عرف الجيش أنه قاتل الأمير سِلْوِي، أم ما زالت مجرد شكوك؟ إن تأكدوا أنه الفاعل فهو مقتول مقتول ولن يهتموا بقوة عائلته وسطوتها.

أتى ممبار مطمئنًا. دخل على تجمع القيادات وعلى رأسهم فتّوح وبينهم الساموراي. قال ما شاهده بنفسه. قررت القيادات قتل جَربال، وبدون استئذان الملك، فالملك صار مخبولًا تمامًا.

الظهيرة وأمطار غزيرة تنهال. أتوا بجَربال منزوع السيف سائرًا على قدميه، ويحيط به عدد من الجنود بحرابهم المشرعة. الأرض الرملية تتشرب مياه الأمطار. مظلة خشبية عريضة تحمي من المطر. تحتها كبار قيادات الجيش بملابسهم العسكرية، وأمامها الساحة الكبرى في المعسكر. مئات من الجنود يحيطون بالساحة، حماسهم لما هو آتٍ كبير ولا يهمهم أمطار تنهال عليهم. الساموراي جالس وسط القادة بملبسه المعتاد وقت الأزمات. على رأسه بيضة حديدية بيضاء يهبط منها غطاء جلدي مموج يحمي العنق من الجانبين. صديري أسود عليه درع. ثم حزام يحمل جرابي سيفي الساموراي. ثم سروال أسود أيضًا عليه درع حتى أعلى ركبتيه. ثم خف خفيف في القدمين. وجود الساموراي فأل سيئ لجَربال. فهو لا يطيق الساموراي، ولا الساموراي يطيقه.

وقف جَربال أمام القادة، المطر ينهمر عليه. وقبل أن يتكلم القائد فتّوح ليعلن اتهامه لجَربال باغتيال الأمير سِلْوِي، كان جَربال يصيح بصوتٍ عالٍ متهمًا القيادات كلها بأنهم بانقلابهم على قائدهم، قد فعلوا هوجة همجية مثلما يفعل الرعية الواغش بالملك. لم تؤثر كلماته لا في القيادات ولا في الجنود. فتّوح أشار فأتى ممبار. وهنا تأكد جَربال أنه مقتول مقتول.

ممبار توسط الساحة وأخذ يتحرك تحت الأمطار أمام صفوف الجنود، شارحًا بصوت جهوري كيف خطط ونفذ

القائد جَربال مقتل الأمير سِلْوِي. وكيف قتله بنفسه وكان الأمير سِلْوِي مصابًا ومرهقًا تمامًا. كلما توغل ممبار في الحكي، حاول جَربال تكذيبه، لكن الجنود الذين يحرسونه يمنعونه بخشونة. حشود الجنود يصيحون راغبين في توالي السماع ومطالبين بقتل جَربال. بعض الجنود بكوا حزنًا على بطلهم الأمير سِلْوِي.

أنهى ممبار الحكي. صاح الجنود مطالبين بالإعدام للخائن جَربال. قبل أن يوافق القادة العسكريون على قرار الإعدام، وقف الساموراي وقال:

- تعلمون مدى حبي واحترامي للأمير سِلْوِي السَمَيِّد. وتعلمون أيضًا الكراهية التي بيني وبين جَربال. هلا أعطيتموه فرصة الدفاع عن نفسه بالسيف؟ وإعطائي فرصة مبارزته لأقتله بسيفي وأشفي غليلي منه؟

وسط الساحة الرملية التي بللتها الأمطار المستمرة. الساموراي بملبس فرسان اليابان. وقد أشهر سيفه الطويل. أتوا لجَربال بسيفه الأطول من سيف الساموراي. جَربال أطول قامة من الساموراي، فهذا يعطيه الفرصة في الضرب من بعيد، فهذا في صالحه وضد الساموراي القصير.

بدأت المبارزة في الساحة الرملية الصفراء، وتحت وابل الأمطار التي لم تهمد. جَربال يدافع ويعمل على إبعاد الساموراي عنه. والساموراي يناور ليدخل في خصمه فيكون القتال تلاحميًا. ضربات السيفين وارتطامهما ببعضهما يحدث أصواتًا معدنية صارخة. في

مناورتهما يتحركان في أركان الساحة، هذا يهاجم ويكاد يوقع بغريمه، غريمه يهرب منه ليحاول الإيقاع بخصمه. تحركات وصيحات جَربال وهمهمات الساموراي. أخذا وقتًا طال. حتى تمكن الساموراي من تفادي ضربة ساحقة من جَربال بهبوطه لأسفل، وأخذها فرصة وبضربة قاطعة أصاب جَربال فوق ركبته. ابتعد الساموراي خطوات وسط فرحة وهتاف الجنود. جَربال يعرج ونزف الجرح سريع. تأكد أنه مقتول مقتول، إن لم يجازف ويتمكن من طعن الساموراي طعنة قاتلة. جَربال يهاجم هجوم اليائسين على الساموراي الذي يراوغه برشاقة ويجعله وكأنه يهاجم شبحًا لا يدركه. اندفاعة من جَربال يتفاداه الساموراي، ويدور خلف جَربال ولا يطعنه في ظهره، بل يطعنه في ساقه السليمة ويقف بعيدًا يراقب، جَربال وهو يتخبط محاولًا عدم السقوط. أتى الساموراي من أمامه. جَربال يسقط سيفه من يمناه. ويخر على ركبته ناظرًا ناحية صدر الساموراي. لحظات صمت. يصيح الساموراي:

- خذها انتقامًا لصديقي الأمير سِلْوِي.

حفيف سيف الساموراي وهو يشق الهواء ويضرب عنق جَربال ليسقط رأسه جانبًا ناثرًا الدماء، ويسقط جسد جَربال جانبًا، وعنقه يبُك سرسوبًا أحمر يتزايد ليكون جدولًا. الجنود تجري مهللة على الساموراي الذي أراحهم بقتله للمجرم الذي اغتال حبيبهم الأمير سِلْوِي. يحيطون به يربتون كتفيه ويمدحون فروسيته ونبله.

تجتمع قيادات الجيش عصرًا. وافقوا على طلب الساموراي بعد أن شرح لهم كيف أن الأمير البدوي أكرم القائد حميدو شامة وزوّجه من فتيات القبيلة. وأن انتصار جيش الأمير البدوي على جيوشهم، كان انتصارًا شريفًا، وسبب الهزيمة طيش الأمير راسم وعدم استماعه لنصائح القائد حميدو شامة. اقتنعت القيادات بما يقوله الساموراي، فهم لا يحبون الأمير راسم رغم أنه ابن محبوبهم سِلْوي. فراسم طائش وليس بالقائد الذي يفاخرون به. طلب الساموراي أن يتم نقل السجينين الأمير وقريبه من السجن الكئيب الذي هما فيه، إلى قصر الضيافة، وأن يعاملا بطريقة تليق بأمير، ويكفي أنه تم قتل فرسان الأمير بالسم وفي وضع حقير، ثم قتل الشباب العشرة وأضيف لهم عجرد.

قررت القيادات العسكرية أيضًا، عدم قتال الرعية، فقتالهم سيكون وبالًا على المملكة. بالإضافة إلى أن الرعية مظلومة وتحملت الكثير. وعلى الأمير راسم أن يتزوج سريعًا بنورة ابنة عِلوِي. ثم يتنحى الملك عِلوِي السُمَيِّد عن العرش، لابن أخيه الأمير راسم بن سِلْوِي. وبهذا تهدأ الأمور ويتبخر غيظ الهوجة الكبرى الخطيرة. هكذا قرروا، لكن القدر لم يوافق على كل ما قرروه.

الأمطار ازدادت شراسة ومدينة القباب متوترة من داخلها وهائجة من خارجها. وقصر الزمردة الخضراء ليله وكأنه هادئ. لا تصلهم همهمات الهائجين خارج أسوار وأبواب المدينة. مَن بداخله مر نصف الليل بدون

أحداث تقلقهم فناموا. والملك ليلة أمس لم يتحرك من مخدعه، فظن الجميع أنه بدأ يهدأ من خباله. لكن الملك عِلوِي هذه الليلة قام وهو بملابس نومه البيضاء الخفيفة الهفهافة. أمسك بسيفه. تسلل في الممرات وذهب للسلم الصاعد للسطح. فتح القفل الكبير وألقاه مع المفتاح بعيدًا. مَن أعطاه المفتاح؟ لم يعلم أحد. السطح يتلقى الأمطار الغزيرة والليل حالك السواد، فلا قمر ولا نجوم تطل فقد حجبتها السحب. الهواء رغم المطر منعش والمشهد مُضبب. الملك عِلوِي يأخذ شهيقًا عميقًا ويزفره بقوة وإصرار. يرفع وجهه للسماء ويتلقى الأمطار بشغف. اشتعلت في جوفه خيالات البطولة والبسالة ووصلتا لحد التهور. يدور حول القبة الزمردية متخيلًا أنها تمثل هوجة الرعاع المتجمعين ضده. يضربها في جوانب القبة بسيفه ولا يتكلم، فقط همهماته غاضبة، الأمطار بلّلته تمامًا. برق ورعد زاداه اشتعالًا وشبقًا لفعل ما لم يفعله طوال حياته. يترك محيط القبة. في الظلام السائد يبدو الملك الملتاث وهو يسرع في اتساع السطح هنا وهناك، وكأنه شبح وطواطي أبيض مُبلل موسوس. يدور شاهرًا سيفه لاعنًا الرعية الغوغائية بدون إصدار صوت. أحس به عبيده. أسرعوا ليأتوا به، ابنته نورة أتت سريعًا وخلفها أمها فوز. بعدهما أتت الأميرتان ذات الرفعة ومرمرة. صعد الجميع للسطح في سرعة بقدر ما يستطيعون، فوجدوا الملك عِلوِي وكأن عشرة شياطين تتشيطن داخل

جسده. عافية لا يعلم أحد من أين أتته. يسرع حول السطح ملوحًا بسيفه ضاربًا به على رؤوس ورقاب أعدائه. وقف على حافة سور القصر مهددًا، لا يخيفه مطر ولا تيارات هواء تثير ذيل ثوبه المبلل. يهبط ويسير بجوار الحافة بخطوات سريعة، ليهدد جانبًا آخر ممن يراهم هو في خيالاته رؤية العين. ابنته نورة تتقدم وحدها لتهدئه. لكن الوقت فات. الملك عِلوِي يقف على الحافة مرة أخرى وبرق يلمع ورعد ينفجر. يصيح في صوت جهوري:

- مَن أنتم؟!

ويرفع يمناه بالسيف ليضرب الجموع الهوائية ضربة ساحقة فيهبط كفقاعة بيضاء تهفهف في الفراغ المبلل بدون صراخ. يرتطم بالأرض ميتًا وما زالت قبضته ممسكة بالسيف. دماء من أنفه وفمه تسيل من مياه الأمطار وتسيح على الأرض. من سطح قصر الزمردة، انطلقت صرخات ابنته وزوجته تعلنان النهاية المأساوية للملك عِلوِي السُمَيِّد.

موت ملك ليس بالأمر الهين. قبل شروق الشمس كانت مدينة القباب تموج بالتجمعات التي تتداول حادث سقوطه. شرح يقول إن الملك أصابه الجنون منذ شهور، ضميره نقح عليه بشدة، والسبب قتله لأخيه الأمير الطيب سِلْوِي. وآخرون يقولون إن زوجته فوز، هي التي تسببت في جنونه، بوضعها في مشربه عشب الهلوسة. والجميع يعلم أن الملكة فوز من عائلة النوارنة

الخطيرة والمشهورة باللؤم والخباثة. وكانت ترشيحاتهم لمرمرة الطيبة لتتولى العرش فتكون الملكة ومَن تتزوجه هو الملك! وسحقًا للعائلات الأربع المستبدة. ومَن يعارض ويتشنج هم تجمعات اللحى التابعة للشيخ عبد الرازق. واتفق الكل على أن راسم بن سلوي لا يصلح، فهو ليس فارسًا نبيلًا مثل أبيه. وعلم الجميع أن راسم لم يظهر بين مَن أسرعوا لسطح القصر لإنقاذ الملك قبل سقوطه، فراسم يريد التخلص من الملك سريعًا، ليكون هو الملك. وكانت حجّته في الاختباء، أنه كان نائمًا، ولم يوقظه عبيده إلا بعد فوات الأوان.

القائد فتّوح وقد صار المتولي لأمور الجيش، بمجرد علمه بموت الملك عِلوِي، أسرع مع كوكبة من الجنود إلى قصر الزمردة، فوز أرملة الملك تطالب بتسريع دفن عِلوي، ثم عقد قران راسم على ابنتها نورة، وفي نفس الليلة يجلس راسم على العرش، هكذا بالتوالي. تريد التأكد من أن راسم سيتزوج ابنتها نورة ولا يغدر بها. وفتّوح سمع بنفسه صيحات الرعية ومطالبتها بتمكين الأميرة مرمرة من العرش. وإعلانهم كراهيتهم لراسم بن سلوي. وفي نفس الوقت، إغراء العرش يداعبه.

اجتماع سري بين القائد فتّوح والوزير المتغوِّل. عليهما إدارة المملكة بحنكة في هذا الوقت العصيب، فتّوح لا يدري إلا ما يخص القتال، المتغوِّل هو العالم بشئون المملكة. أشار المتغوِّل بتهدئة الأوضاع ومهادنة هوجة الرعية، لوقت يتم دحرهم. ثم صارح القائد فتّوح

قائلًا: إن تحكم العائلات الأربع في المملكة لم يعد مفيدًا، بل صار ضارًّا بمصلحة المملكة، وسيتسبب في هوجات متواليات تطيح بالأخضر واليابس.

سأله فتّوح:

- لكن الملك يجب أن يكون من أحدهم!

- لا. هذا تاريخ وانتهى. في مثل أحوالنا يجب أن يتولى العرش رجل قوي حازم حاسم. أنت.

انفتحت بوابة الجيوش. تقدمت فرقة فرسان عسكرية يتقدمها قائد شجاع. أزاحوا عشرات من أفراد الهوجة للخلف ثم اصطفوا أمام البوابة بقليل. ثابتين مشرعين أسلحتهم أمام بقية جحافل الهائجين، التي ما إن شاهدت البوابة تفتح، حتى أسرعت في اتجاهها صائحة صيحات الفرح. توقف الهائجون أمام الفرسان المسلحين، وتبينوا أن أعلى البوابة وعلى جانبيها عشرات الجنود وأقواسهم وسهامهم مستعدة للانطلاق. الهائجون الذين سمعوا بإشاعة موت الملك، ثم تأكدوا منها. صاح القائد العسكري طالبًا الحوار مع زعماء الهوجة. لم يسمعه أحد، وإن سمعه العشرات فلم يعره أحد اهتمامًا. الألوف تندفع ناحية القائد وجنوده مشرعين أسلحتهم الحديدية. عبر العشرات ما بين خيول الجنود. الخيول بدلًا من أن تخيف الحشود، هي التي خافت من كتلهم البشرية وزحفهم السريع وصياحهم وزمجرتهم المدوية.

أمر القائد بالانسحاب سريعًا داخل المدينة. عبروا البوابة لكن الجنود المخصصين لفتح وإغلاق البوابة لم يستطيعوا إغلاق البوابة. المئات تعبر خلف المئات وتمنع زحزحة ضلفتي البوابة الهائلتين. القائد على صهوة حصانه أمر فرسانه بتعطيل المرور الكاسح، وأمر جنوده الاحتياطيين بمساعدة المخصصين لإغلاق البوابة. مرت ساعة زمن حتى تمكن فرسان الجيش من تعطيل اندفاع دخول الرعية، وتمكن الجنود من إغلاق البوابة بعد عنت مرير وقتل عشرات من الهائجين. في هذه الساعة البسيطة السريعة، كان قد عبر لداخل مدينة القباب مئات من الغاضبين الممرورين المطالبين بالعدل والإنصاف وتوفير أبواب الرزق. وبقي خارج السور الآلاف.

مدينة القباب في حيص بيص. فوضى. وحين أقبل الليل كانت كل المقاهي محشودة بالناس. وكل المطاعم والمشارب والأفران قد استبيحت، والاستباحة ليست شغبًا أو بنية التدمير، بل احتياجًا للطعام والشراب. لم يخلُ الأمر من بعض سكان القرى الأفقر، الذين حسدوا أهل المدينة الذين يعيشون في رغد بالنسبة لهم. انفتحت بعض البيوت للغرباء، والأكثر تم فتحها خشية من غضبهم، وحدث القليل من النهب والسلب ومحاولات أقل من احتضان النساء والفتيات.

الهائجون تكتلوا في ساحة الفروسية. منصة نصبت. وقفت عليها مجموعة تصيح في الناس لتنظمهم.

مضطرون لاختيار قائد لهم. فكان قائد هوجة جبل الصد. هو الأول، يليه قائد هوجة المستنقعات، ثم أربعة كل واحد يمثل ولاية من الولايات السبع. أما ولاية مدينة القباب فقد أصر على حوزتها شاب من أتباع الشيخ عبد الرازق. قرروا المحافظة على المدينة، وصد أي تصرف يضر بأهاليها. ثانيًا التفاوض مع ممثل للملك وممثل للجيش.

قصر الزمردة في ضيق. الحرس الملكي خارج وداخل القصر، ويعاضدهم فرقة كاملة من الجيش. فالقصر هو مركز السيطرة أو هكذا يجب أن يكون. ندمت الملكة فوز على تعطيلها تتويج راسم بن سلمي. السيطرة الآن بين يدي الوزير المتغوِّل والقائد فتّوح وحشود الهوجة.

استُدعي مفاوضو الهوجة للقاء في قصر الضيافة.

الأميرة ذات الرِّفعة في غاية السعادة بعودة ابنها وحيدها راسم. لم تشبع من احتضانه. لم تشبع من الحديث معه. ثم ضربها القلق أن الاضطرابات بإمكانها الضرر ليس بالعرش فقط، بل بحياة ابنها نفسه، فعواصف غضب ودوامات غامضة تضرب المملكة. ذهبت لصديقتها الأميرة مرمرة. مرمرة سعيدة بما يحدث وإن ضربها القلق أيضًا من خراب يعم الجميع. بقيتا سويًا وليس في أيديهما ما تفعلانه. فكرتا في الأمير عبد الرحيم وصديقه شكّور. تعلمان أنهما خرجا من الحبس وأنهما حاليًا في قصر الضيافة. قالتا إن الأسلم لهما أن يخرجا سريعًا من المدينة. وبعد استتباب

الأمور، يمكنهما أن يعودا من صحرائهما ليتفاوضا ويحددا علاقة قبائلهما بالمملكة وتأمين قوافل التجارة الصحراوية.

قصر الضيافة. الدور العلوي فيه عبد الرحيم وشكّور. السفلي اجتماع بين مَن يمثلون السلطة، القائد فتّوح ممثلًا للجيش، وفطرون الفأر ممثلًا للوزير المتغوِّل، المتغوِّل لم يجد أجدر منه، وخشي أن يذهب بنفسه فيتعرض للسوء عاجلًا أم آجلًا. أمام فتّوح وفطرون الفأر، عشرة يمثلون الهوجة، العشرة منفلتون عصبيون. يجلسون جميعًا على مائدة طويلة عريضة. الحوار حوار الطرشان. لا أحد يسمع أحد. وكل جانب يهدد ويتوعد. لعن أحدهم فطرون الفأر فرد اللعنة بلعنات ثم تلقى لعنات من أكثر من فرد. حاول فتّوح التهدئة فلعنوه هو وأمه وأباه. ولولا تواجد خمسين فارسًا على أهبة الاستعداد خارج القصر، لكان الاعتداء قد حدث على فتّوح وفطرون الفأر.

انفض الاجتماع وخرج الجميع غاضبين. في الدور العلوي عبد الرحيم وشكّور يسمعان الأصوات العالية واللعنات ثم الهدوء. لا يستطيعان الخروج من الحجرة الواسعة المريحة المحبوسين فيها. خلف الباب عدد من الجنود يحرسانهما، فهما في حبس وإن كان المحبس في قصر. عبد الرحيم وشكّور في حزن حارق. فبدلًا من الذهب والفضة والهدايا القيمة التي كانا يضمنان انتزعاها من الملك، هاهما محبوسان مذلولان وقد تم

تسميم الفرسان الذين كانوا معهما. وقُتل أيضًا عشرة من خيرة شبابهم. نكسة مؤلمة مهينة مخذية، لن تنساها القبائل، بل ستُحكى لأجيال بعد أجيال. عبد الرحيم حاله مهينة، وغيظه تركز في شخص واحد.. عاقص الخائن.

اتفق الوزير المتغوِّل والقائد فتّوح، على شق صف الهائجين. ثم تعيين الملك سريعًا، ثم محاصرة الهائجين بعد جمعهم في مكان واحد، وطردهم خارج المدينة، فالتفاوض معهم لم ولن يجدي.

الليل والمدينة لا تنام. الكل ساهر والكل يتحدث والكل يدلي برأيه والكل غير متفق مع الكل. المقاهي ساهرة والشوارع لا تهدأ من السائرين فيها. والبيوت لم تعد بيوتًا، صارت مقاهي مصغرة. فوضى ضاربة، لم يكن التنظيم متوفرًا سوى في مكانين، الجيش وأتباع الشيخ عبد الرازق.

قرأ الساموراي رسالة الأميرتين. أرسل لهما بالموافقة. ذهبتا على حصانين وخلفهما أربعة فرسان من الحرس الملكي. عند قصر الضيافة وجدتا الساموراي في انتظارهما. صعدوا للدور العلوي. أمر الساموراي بإطلاق سراح السجينين، عرض رسالة الجيش الآمرة بذلك.

الأمير وشكّور في خلال هذا الوقت القصير بقصر الضيافة، استعادا عافيتهما بالطعام والشراب الممتازين وبالنوم المريح. هبطوا بهما للدور السفلي وشكروا الساموراي الذي أسرع لمعسكر الجيش ليتابع آخر

التطورات. الأميرتان انفردتا بمن كانا أسيرين. هجمت الأميرة ذات الرِّفعة على شكّور واحتضنته باكية. تشكو لشكور، رغم فرحتها بعودة ابنها، فإنها تخشى عليه مما يحدث. أما مرمرة فقد أمسكت بساعدي عبد الرحيم وقالت:

- الوزير المتغوِّل لن يترككما أحياء. ثم.. تعرف أن فطرون الفأر تابع لي أكثر مما هو تابع للوزير المتغوِّل. سيبقى شكّور قليلًا مع ذات الرِّفعة، ثم يلحق بك في بيت الساموراي، حيث ستستقبلك عسلية الغامقة. ثم يأتي لكما فطرون الفأر ليساعدكما على الخروج من بوابة الفيافي المجاورة لبيت الساموراي.

ذات الرِّفعة أصرّت على أن يأخذ شكّور كيس الدنانير الذهبية منها. مرمرة أعطت عبد الرحيم كيس ذهب، ليستعين به.

عبد الرحيم أسرع على حصان ومعه فارس يدله على الطريق. بمجرد أن ابتعدا قليلًا من قصر الضيافة، توقف الأمير وقال للحارس:

- أريد أن أصل للمكان الذي فيه عاقص. هل تعرفه؟

- اسمه ليس بيت عاقص.

- ما اسمه؟

- بيت شحمة. شحمة التي تزوجته.

مد الأمير يده بقطعة ذهبية للحارس فتناولها فرحًا. انطلقا لمسافة بعيدة. بيوت متناثرة واضح أنها لأناس ليسوا بالفقراء ولا هم من علية القوم. أشار له الحارس

على البيت. بيت واسع بحديقة صغيرة. قبل البيت ببيتين. هبط عبد الرحيم من على ظهر حصانه وربط لجامه في سور بيت. سار سريعًا لا يأبه بمَن قابله في طريقه ونظر إليه في استغراب. جلبابه الأبيض الواسع وغطرته وعقاله ليس معتادًا هنا. دخل بيت شحمة. مر على الحديقة وضرب الباب بقبضتيه. ضرب بشدة فانفتح الباب عن امرأة بالغة السمنة. المرأة غاضبة من ضرب بابها بكل هذا العنف. بدأت في سب عبد الرحيم لكنها لمحت وجهه وقد تصخر غضبًا وعينيه تبكان نارًا. ومن ملبسه توقعت أنه الأمير عبد الرحيم. صرخت فركلها عبد الرحيم بباطن قدمه في بطنها فأسقطها على ظهرها. سل سيفه وقبل أن تستعدل نفسها لتصرخ، ضربها ضربة قاطعة بالسيف تحت إبطها فكسر لها أضلعها وأغمي عليها. أتى عاقص مهرولًا شاهرًا سيفه. حافي القدمين يرتدي سروالًا أبيض واسعًا وقميصًا أبيض خفيفًا. شعره متناثر هنا وهناك. يهرول بصعوبة بسبب سمنته. يظن أن لصوصًا استغلوا حالة الفوضى فداهموا البيت. يفاجأ بعبد الرحيم. يتراجع وعبد الرحيم يتقدم ناحيته في إصرار. عاقص يريد استعطاف عبد الرحيم لكن لسانه يتخشب وعينيه تجحظان. يعلم مقدار خيانته لعبد الرحيم، ويوقن أن عبد الرحيم لن يسامحه. ألقى بالسيف أرضًا وركع على ركبتيه، ثم سجد أرضًا صائحًا:

- ندمت. الشيطان وزّني فخنتك. ندمت. ثم.. ثم.. عندي طرق تعوضك عن خسارتك. تعود بها للقبائل..

وقبل أن يستكمل عاقص حديثه. ضربه عبد الرحيم بقدمه فأسقطه على جانبه وصاح فيه:

- التقط سيفك وبارزني لتموت ميتة فيها بعض الشرف يا خسيس.

يبكي عاقص مشيرًا بيديه رافضًا المبارزة التي يضمن فيها هزيمته. يقول له عبد الرحيم:

- إن قتلتك أنا فسأقتلك بطريقة تعذبك عذابًا مؤلمًا. التقط سيفك وانتحر لترحم نفسك مني.

يزحف عاقص ويمسك بسيفه. فجأة يلقي بنفسه أرضًا ناحية عبد الرحيم ويضرب ساقي عبد الرحيم الذي توقع ذلك ووثب للخلف.

- أيها الخسيس أنا أعرفك وأعرف خباثاتك.

عاد عاقص للبكاء. عبد الرحيم وجهه ما زال على حال وصوله. صخري الغضب ناري الانتقام. عاقص وهو يبكي يعتدل على ركبتيه ويمسك السيف من ناحية مقدمته واضعًا المقبض أرضًا. يريد أن يهبط بصدره السمين على حد السيف فيخترقه السيف ويموت سريعًا. لحظات وعاقص يولول ويشهق ويزفر سريعًا وتنكمش ملامحه مضيقًا عينيه ليفعل فعلته. لم يستطع. يقف في بطء وهو يصيح:

- لا أستطيع. لا أستطيع. عبد الرحيم. من أجل عشرتنا الماضية. طعنة واحدة في قلبي وأرحني. طعنة

واحدة أستحلفك بالله.

وللمرة الثانية يحاول إصابة عبد الرحيم عنوة. هجم عليه فصده عبد الرحيم. مبارزة قوية بين رجل فتي قوي سريع، ورجل شحمه يزن خمسة رجال. وفي سرعة يضرب عبد الرحيم بسيفه ضربة مائلة لأعلى من الشمال لليمين، فتمر مقدمة السيف على بطن عاقص ويشرطها شرطة عميقة. يصرخ عاقص وبكف يسراه يمسك مقدمة بطنه، وينظر ناحية الجرح.. الدماء تسيل من بين أصابعه ومن تحت كفه. أدرك أنه انتهى. يحاول الهروب مبتعدًا ودماؤه تسيل أرضًا وعبد الرحيم يتابعه هنا وهناك. يتوقف عاقص طالبًا من عبد الرحيم أن يستكمل قتله. الدماء لوثت نصفه السفلي تمامًا. ترك عاقص سيفه ورفع يديه عاليًا مستسلمًا تمامًا. عبد الرحيم يضربه ضربة ثانية مائلة لأعلى من اليمين للشمال، فيحدث به صليبًا دمويًا مائلًا. يصرخ عاقص وهو ينظر لأمعائه وهي تنكب منه وتتدلى. يسقط على ظهره وبيديه يحاول لم شمل أمعائه. عبد الرحيم يقف بالقرب منه ينظر إليه في احتقار. عاقص ييأس ويطالب عبد الرحيم بأن يرحمه، ويستكمل قتله بطعنة في القلب. عبد الرحيم يرفض ويقول له:

- لن أطعنك لتموت سريعًا. لا. سأتركك بهاتين الضربتين السطحيتين، يستنزفان دمك فتموت ببطء وتتعذب أيها الخسيس. تسببت في قتل فرسان قبائلنا يا حقير.

يبتعد عبد الرحيم ليترك البيت. عاقص يلعنه بأمه. وعند الباب يجد شحمة تتأوه وهي تنظر إليه في كراهية. رفع سيفه ليطعنها فبكت خوفًا. تركها وعاد لحصانه.

في قصر الضيافة. انفردت ذات الرِّفعة بشكّور. سيسافر ويتركها. تحتضنه وتريده للمرة الأخيرة. غرقا في القبل. ترك شكّور سيفه على الطاولة. استلقيا على السرير ليس في بالهما أي أمر يقلق أو يفسد عليهما اللقاء الأخير. ذات الرِّفعة تهمس له يا حبيبي. والباب الذي أغلق يضرب ضربة كتف قوية وينفتح. الأمير راسم يدخل. يقف شكّور مبهوتًا وذات الرِّفعة لم تستطع حتى أن تقوم من رقدتها وتجلس، لم تستطع إسدال ردائها المنحسر عن فخذيها. فمها مفتوح لآخره ورعب وخجل يشعان من عينيها. ابنها عيناه تتجولان بين أمه وبين عشيقها البدوي. عيناه بين بكاءٍ مخزٍ وبين غلٍّ يطفح. استل سيفه. هنا وقفت ذات الرِّفعة وأسرعت بينه وبين شكّور. تطالب ابنها بأن يهدأ وستشرح له الموقف. وراسم يحاول إبعادها وهو ينظر في كراهية لشكّور. نجح في دفع أمه بعيدًا وهجم على شكّور ضاربًا بالسيف. شكّور تفاداه وأسرع ملتقطًا جراب سيفه واستل سيفه. راسم يهاجم في تهور وغل وشكّور يتفاداه فقط ولا يحاول طعنه. ذات الرِّفعة تلقي بنفسها على ظهر ابنها ممسكة به. يبعدها راسم غاضبًا وشكّور لا يستغل الفرصة لطعن راسم، بل ينتظر أن يهدأ. لا

يريد أن يقتل ابن حبيبته. راسم يعاود الهجوم وشكّور يدافع وذات الرِّفعة جالسة أرضًا تبكي لوعة. شكّور يرجو راسم أن يهدأ. يقول له إنه لا يريد إيذاءه. مستمر في دفاعه، حتى استغل راسم الفرصة وأصاب كتف شكّور. شكّور لم يعد له من منفذ سوى قتل راسم. لكن بكاء ذات الرِّفعة صار صراخًا موجعًا. تلاقت عيناه بعينيها، عيناها ترجوانه.. إنه ابني. ابني الوحيد. هاجم راسم بقوة وحاصر شكّور في زاوية الحجرة. رفع يمناه لينهي النزال بضربة قاصمة على الرأس. تفاداها شكّور بميل جانبي وسيفه لم يمل معه. بقي مواجهًا لراسم الذي اندفع بطيش لسيف شكّور فأخذه في بطنه. لحظات لا حركة لا شتائم لا بكاء. الثلاثة وكأنهم سخطوا أصنامًا ثابتة. ثم يمنى راسم رافعة السيف تتهدل جانبًا وهو يتقهقر للخلف. السيف مرشوق في صدره وحده بارز من ظهره. أمه تنظر إليه وهو ينظر إليها. كلاهما لا يريد أن يصدق ما جرى. شكّور يسير جانبًا مبتعدًا وهو ينظر في ألم لذات الرِّفعة. يحرك يديه في بلاهة وملامحه تعطي الوجوم. فما كان يريد ما كان. وما كان يظن أنه سيطعن قلب حبيبته بقتله ابنها الوحيد. انطلقت صرخة ذات الرِّفعة وهي تهب واقفة لتسند سقوط ابنها وتهبطه برفق على الأرض. صرخات متواليات وراسم تروح منه الروح ويموت في حضن أمه.

***

في بيت الساموراي. عسلية الغامقة تحضر بعض الطعام والشراب لعبد الرحيم وشكّور. شكّور يبكي بكاءً مرًا. حكى باختصار لهما أنه رغم أنفه قتل الأمير راسم، ابن مَن أحبها بجنون. وأنه بفعلته هذه يكون قد قتل ذات الرِّفعة نفسها. يبكي ويقول ليته ترك راسم يقتله. فهذا أفضل. رفض الطعام والشراب. والنهار يولي والليل يأتي بالنهايات المؤسفة.

النهار التالي من بداياته مشتعل. مقتل الأمير راسم كان زلزالًا أشد وطأة من زلزال موت الملك عِلوِي. الأحداث السريعة حيرت القصر والجيش أكثر مما حيرت الرعية. الذي خطط لمقتل الأمير هو المبتسم سرًّا والمتجهم للغاية علنًا.. الوزير المتغوِّل. الوزير يتلاعب ببصاصيه وأتباعه. ينشرون الشائعات ويبثون الخباثات. يخوفون الناس من تولي امرأة العرش، ويرعبونهم من قسوة وسطوة وتعنت ودموية أتباع الشيخ عبد الرازق. وسريعًا تضاءلت الجموع المؤيدة للأميرة مرمرة الطيبة. وأتباع الشيخ عبد الرازق لم يزيدوا ولم ينقصوا، وزاد بين الفريقين الجدل ليتحول في بعض الأماكن إلى شجار بالأيادي. وفي نفس الوقت، قطاعات من الرعية بدأت تنادي بتولي القائد فتّوح للعرش، فتلك الفوضى لن يكبحها سوى رجل قوي حازم. القائد فتّوح لا يصدق أن الأمور تسير في صالحه ليجلس على عرش لم يتوقعه، بل لم يفكر فيه.

العائلات الأربع تتشاور في خوفٍ بالغ من التقلبات، وفي خوف من بعضها. لم يرضوا بأن يقفوا مع الأميرة مرمرة، فعائلتا الجَرابلة والحوافظ، تصران أولًا على زواج مرمرة بشاب منهما، والنوارنة كالعادة صامتون ينتظرون الفائز ليبتزوه مقابل أن يعضدوه. اختلفوا وتشاتموا وانصرفوا خائفين من تقلب وقسوة الأيام.

لم يتوقف البصاصون وأتباعهم عن العمل. زادوا من فرقة أتباع مرمرة وأتباع عبد الرازق. ثم هيجوا الآتين من خارج المدينة متهمين رعية المدينة بتجاهلهم والتعالي عليهم. وبعدها شقوا صف الآتين من الولايات، خاصة بين الآتين من ولاية جبل الصد والآتين من ولاية المستنقعات. فوقعت اشتباكات دموية بينهم، وفي تلك الاشتباكات العصبية، قتل البعض زملاء لهم، فلا لون يفرق بينهم ولا ملبس. وبعد الغروب مباشرة نزل الجنود بآلافهم في الشوارع وقاموا بمطاردة التجمعات المنهكة وبعثروها، وألقي القبض على المئات وساقوهم لسجنهم في معسكر الجيش.

في الفجر التالي كان المنادي ينادي بأن القائد فتّوح قد تولى الأمور حتى تمر العاصفة، ثم بعد ذلك يكون ما قدره الله. رضيت جموع الرعية المحاصرة لمدينة القباب بهذا وبدأت تنسحب، فأفرج الجيش عن المقبوض عليهم مقابل خروجهم من المدينة.

الفجر رحل والنهار أتى. وجاء فطرون الفأر لبيت الساموراي وخلفه اثني عشر فارسًا حارسًا له. دخل

معتزًّا بنفسه واثقًا بسلطته. أوقف حرسه داخل الحجرة الواسعة. وقف أمام عبد الرحيم وشكّور الجالسين. أتت عسلية الغامقة ووقفت حائرة. قال فطرون الفأر في اختصار:

- يا عبد الرحيم. هيأت لك قتل عاقص. فالجندي الذي كان معك وأرشدك من أتباعي. ويا شكّور أنا مَن أبلغ راسم بتواجدك مع أمه فأتى ليموت ونتخلص منه. وما فعلته كان بمباركة من سيدي الوزير المتغول. هاها.

عبد الرحيم وشكّور وقفا. شكّور أمسك بمقبض سيفه، فاستمر فطرون الفأر في الضحك وقال:

- لا تنفعل يا شكّور، فأنا الآن بإمكاني القبض عليكما، أو قتلكما حسب الأوامر، وبإمكاني أيضًا تنفيذ أمر إنقاذكما بتهريبكما من المدينة. فماذا تختاران؟ القتل أنت وأميرك البدوي أم الرحيل في سلام؟ طبعًا الرحيل. أمامكما دقائق فقط. دقائق هي الفاصلة بين الهروب وبين الموت. ففي حالة الفوضى السائدة، قائد من الحرس الملكي، أمر فرقة من الحرس بالقبض عليكما، لأنكما قتلتما الأمير راسم.

قالت عسلية الغامقة:

- مَن الذي أعطى لك الأمر بإنقاذهما؟

- سؤال وجيه. الأميرة مرمرة، وعشيقكِ القائد الأصفر الساموراي. المهم.. الآن وفورًا تهربان من المدينة. ففي أي وقت ستصلنا مجموعة من المجموعات التي تبحث

عنكما. وبعدها سيتم اتهام الساموراي بإيواء مطلوبين للعدالة، سيُحاكم هو وأنتِ يا عسلية الغامقة. هاها.

- أنت حقير.

- صحيح. والحقير الذي هو أنا، سيضاجعكِ غدًا رغمًا عن أنفك.

وقبل أن تتحرك عسلية الغامقة لصفعه، وقبل أن يستل عبد الرحيم وشكّور سيفيهما، كانت حراب الحراس قد اقتربت من عنقيهما.

الأمير عبد الرحيم وشكّور على حصانين وبينهما فطرون الفأر وحولهم الحراس. يتجهون لباب الفيافي. الباب ليس محاصرًا من رجال الهوجة، فالفيافي ليس بها ما يأكلونه ويشربونه. عند الباب أمر فطرون الفأر بفتحه باسم القائد فتّوح. انفتح الباب. أمامهم المجال الأصفر الممتد. الصحراء الساخنة. قال عبد الرحيم:

- فطرون أيها الفأر، لماذا لا نرحل على جملين يطيقان الصحراء بدلًا من حصانين؟

- هاها. هذا لأنني قررت ذلك. وخذا هذا معكما.

أشار لحارس فاقترب على حصانه وأعطى عبد الرحيم قربة مياه صغيرة.

قال فطرون الفأر:

- المسافة بيننا وبين البحر من هذه الناحية، حوالي سبعة أيام سفر في هجير الصحراء الجرداء. وأنتما لن تتحملا المسافة والزمن بقربة مياه وحصانين منهارين سيموتان إنهاكًا وعطشًا في خلال يومين أو ثلاثة. هذا

ما خططت أنا لكما جزاء تعاليكما عليّ سابقًا. هاها. هيا.. فرصة نجاتكما تكاد تكون معجزة.

أصوات خطوات خيول تقترب. قال فطرون الفأر:

- فرقة المطاردة تقترب. فاخرجا سريعًا وإلا لن أستطيع تخليصكما.

بصق الأمير على فطرون الفأر. وأسرع بحصانه منطلقًا من البوابة وخلفه شكّور.

***